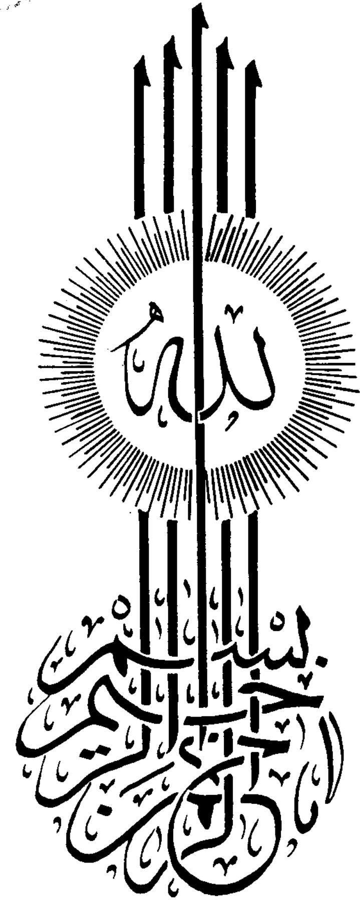




بيادر

بيادر : ملف ثقافي إبداعي - نادي أبها الأدبي

العــدد (٢٣) المحــرم ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م

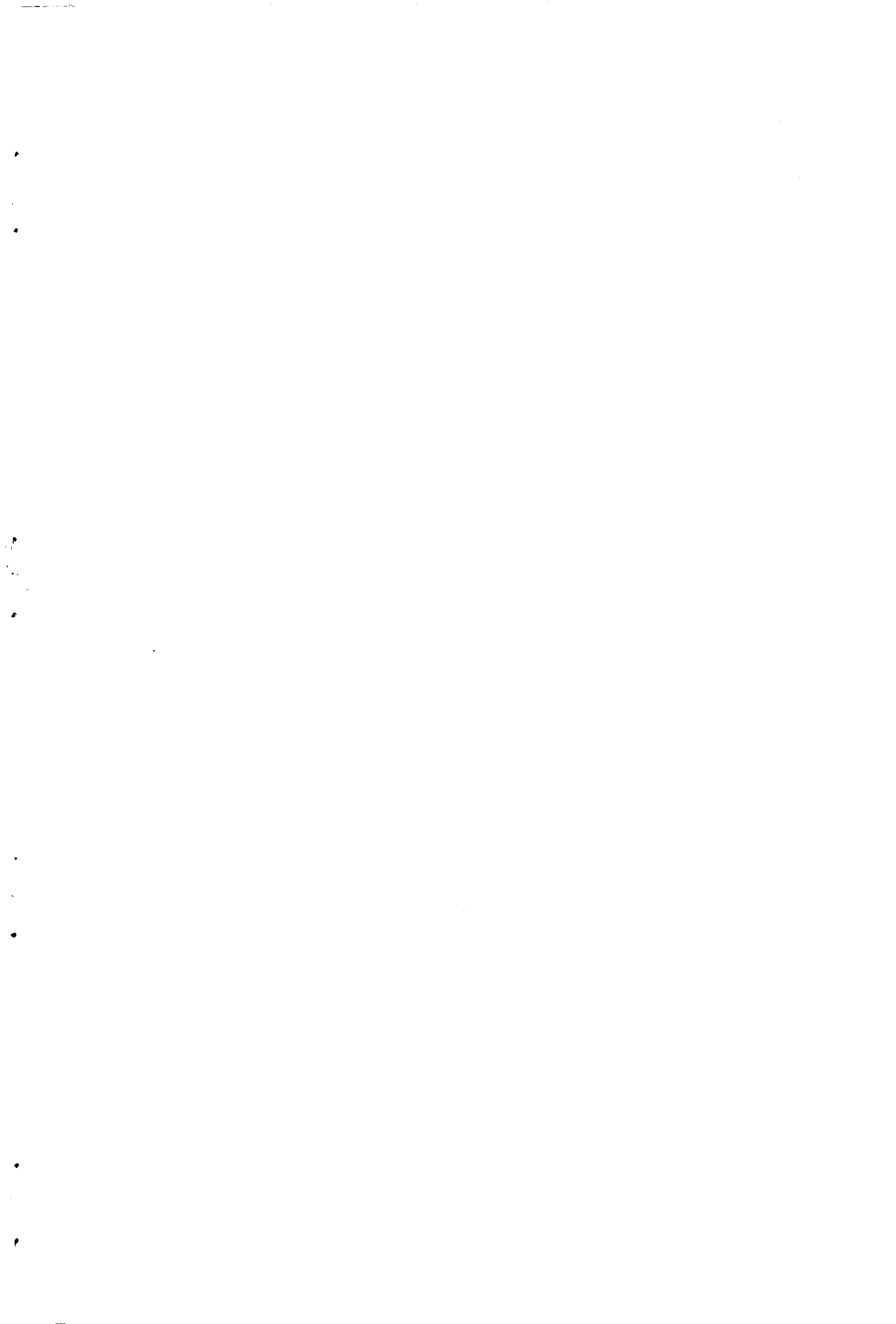
نادي أبها الأدبي ـ أبها ـ ص٠ب ٤٧٨ ـ تليفون : ٠٧٢٢٤٤٢١٠/٠٧٢٢٦٣٥٩٧

فاكس : ٠٧٢٢٦٢١٦٥ ـ المملكة العربية السعودية

PUBLISHEDBY ABHAH LITERARY CLUB P.O Box :478 Tel :072244210/072263597
Fax: 072262165 ABHA . SAUDI ARABIA

رقم الإيداع : ١٤/٠٠٥٣

ردمك : ١٣١٩ـ٣٥٠ ISSN



إشـــــارات

المشـــرف العـــام

* يهتم النادي بتكريم الرموز الأدبية والتعليمية والثقافية ذات الصلة بالمنطقة أو المملكة بشكل عام . . وفي هذا الإطار احتفى بعدد من المبرّزين من أمثال [حمد الجاسر ، عبد الله بن خميس ، عبد الكريم الجهيمان ، عبد المالك الطرابلسي ، محمد أنور أحمد ، إبراهيم العواجي ، محمد حسين زيدان ، عزيز ضياء ، محمد أحمد العقيلي ، وعدد من الشباب الذين نالوا درجة الدكتوراه من أوروبا وأمريكا في العلوم المختلفة بدرجة الامتياز، وكذا عدد من أدباء العروبة من أمثال د. حسين مؤنس ، عمر أبي ريشة ، عمر بهاء الدين الأميري ، القاضي أحمد الحضراني وغيرهم. وكان آخر من احتفى النادي به الأستاذ (يحيى بن عبد الله المعلمي) عضو مجمع اللغة العربية والأديب المعروف] وسيتابع النادي هذا الجهد إيماناً منه بأن الاحتفال بهذه المواهب الإبداعية جزء من رسالته يؤديها حسب قدراته ، وما لا يدرك كلّه لايترك جلّه . .

* دأب النادي منذ تأسيسه على مد الجسور مع بقية المدن الرئيسة بالمنطقة بتنظيم بعض الفعاليات الثقافية فيها بقدر الإمكانات المتاحة ، وعدم الاكتفاء أو الانكفاء على المدينة مقر النادي . . وفي العام الماضي أكد هذا التوجه بتعيين أعضاء منسقين له بالمحافظات ليكونوا همزة وصل أو ضابط اتصال بين النادي والمثقفين بالمحافظات واكتشاف المواهب الإبداعية والتعاون مع الجهات ذات الاختصاص من تعليمية وغيرها لإقرار الجانب الأدبي والثقافي بالمحافظة . . وقد كانت هذه الخطوة إضافة جيدة لما حققه النادي من أهداف نرجو لها أن تتضاعف وتكتمل بمرور الأيام .

* تدور تساؤلات كثيرة بين الحين والآخر عن مدى ما قدمته الأندية الأدبية للمرأة المثقفة . . ونادي أبها منذ تأسيسه وضع هذا الجانب

الهام في حسبانه ؛ لأن المرأة نصف المجتمع ولا تستقيم الحياة السوية بدونها ووفقاً لعقيدتنا وآدابنا المتوارثة كان إشراكها في المسابقات الثقافية واستكتابها في الملف الفصلي (بيادر) وطباعة نتاجها المتميّز ، والتعاون مع الجمعية النسوية فيما يتعلق بالنشاطات المنبرية الخاصة بالمرأة . . وأعتقد أن هذا الدور إيجابي إلى حد بعيد . . إلى أن يُصار إلى تأسيس أندية أو مراكز ثقافية تختص بالمرأة سواء كانت ملحقة بكليات التربية أو الجمعيات الخيرية النسوية . . إن شاء الله تعالى . .

* حرص النادي على تنظيم ملتقى القصة الأول ١٩ - ٢٠ / ٥ / ١٤١٤ هـ شارك فيه عدد من المبدعين في هذا المجال وبخاصة من الشباب .
وفي هذا الإطار قام بتنظيم الملتقى الشعري الأول للفترة من ٢٦-٢٧ / ١٠ / ١٤١٨ هـ اشتمل على قراءات شعرية ونقدية مع توزيع جوائز نقدية وشهادات تذكارية للفائزين . . وكان الملتقيان مفتوحين للجنسين وقد حققا نجاحاً يشجع على تنظيم المزيد من هذه الملتقيات .

* بهذا العدد نستقبل معكم قراءنا الأعزاء عاماً جديداً حافلاً بالمزيد من الخير والازدهار للوطن والمواطنين . . وإذ نبارك للجميع بإطلالته الغراء نسأل المولى العظيم أن يحقق فيه آمالنا وطموحاتنا بالعز والمجد لبلادنا الغالية والنصر والتمكين لأمة العروبة والإسلام على الأعداء المتربصين، إنه على كل شيء قدير .

الافتتاحية

رئيس التحرير

أ.د. غيثان بن علي بن جريس

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد :

فهذا العدد الثالث والعشرون من ملف " بيادر " يضم بين جنباته العديد من الأبواب والقضايا العلمية والأدبية والفكرية ، وهي تشمل معظم الأبواب الرئيسة التي ظهرت في كثير من الأعداد السابقة ، ولكن مانود الإشارة إليه هو ماورد في ثلاثة موضوعات بهذا العدد . اثنان منهما في باب " البحوث " ، والثالث تحت مسمى " قضية ورأي " .

فالموضوعان اللذان في باب " البحوث " هما : " تطور الخطط الدراسية في المملكة العربية السعودية مع التركيز على اللغة العربية " و" مصادر التاريخ الإسلامي ونقد الروايات " . وهذان موضوعان مهمان جديران بالدراسة المستفيضة ، حيث يتعلق أولهما بالخطط الدراسية في مناهج البلاد السعودية ، وخصوصاً تدريس اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم ، ومانود التركيز عليه هنا هو أهمية هذه المادة وما يجب على القائمين بوضع الخطط ودراستها من مسؤوليات تجاه اللغة العربية في المدارس العامة والجامعات حيث نرى ونلمس الضعف العام الذي يعم طلاب العلم في جميع المراحل في اللغة العربية ، ولابد أن يكون هناك أسباب وعوامل كثيرة ساعدت على إيجاد الضعف ، لكن ليس صعباً ولا مستحيلاً التغلب على مايواجه دراسة وتدريس اللغة العربية بشكل صحيح وسليم حتى يتم الارتقاء بمستوى طلاب المدارس والجامعات . وهذا نداء يجب أن يصل إلى كل الجامعات السعودية ، كذلك وزارة المعارف ، والرئاسة العامة لتعليم البنات ، بل إلى كل مدير مدرسة ومدرس أو كل من يتصل بسلك التعليم أن يبذلوا قصارى جهودهم في الاهتمام والتركيز على الرفع من شأن اللغة العربية وتدريسها لأنفسهم ولأبنائهم وبناتهم .

أما البحث الثاني " مصادر التاريخ الإسلامي ونقد الروايات " ، فهذا أيضاً من القضايا الحساسة والمهمة ، حيث يعد التاريخ ذاكرة الأمة ، والذي يجول بنظرة على مصادر التاريخ الإسلامي ، وكيف تم تدوينه يجد الكثير من المغالطات والروايات المتضاربة التي دونت على فترات مختلفة من تاريخ الأمة الإسلامية متأثرة بما حدث في تلك الأزمان من صراعات سياسية وعقائدية وفكرية . وإن كان التاريخ الإسلامي قد وصلنا في عشرات بل مئات المصادر فإن هناك قضايا عديدة ومتشعبة لازالت بحاجة إلى دراسات نزيهة حيادية بعيدة عن التعصب أو التطرف . وهذا نداء آخر لجميع المؤرخين والمتخصصين بل إلى جميع المؤسسات العلمية والفكرية أن تسخر إمكانياتها وتوجد من يستطيع أن يقوم بهذه المهمة عظيمة الأثر في حاضرنا ومستقبلنا ، وإنصاف ماضينا .

أما الموضوع الثالث والأخير في باب قضية ورأي فهو " الاستشراق والتنصير " ، فهذا باب واسع في مجاله ، فقد دون حول هذا الجانب مئات المؤلفات وآلاف المقالات المتنوعة في أفكارها ، وفي اللغات التي كتبت بها . والاستشراق والتنصير موضوعان متصلان يكمل كل منهما الآخر ، إذ الأول يمهد وييسر الطريق إلى تنفيذ الثاني . ولا تخلو جامعة كبرى في أوربا أو أمريكا من وجود قسم أكاديمي يدرس ويخطط للتنصير والعلوم الاستشراقية ، ومعظم تلك المؤسسات إن لم تكن جميعها تسعى إلى دراسة وإنجاز ما يحارب المسلمين في عقيدتهم وشعائرهم وتراثهم . وهذا أمر درسناه ولمسناه في أثناء دراستنا في تلك البلاد ، بل نجده في كل ما وصل إلينا من دراسات ومؤلفات مختلفة تم ترجمتها من لغاتها إلى اللغة العربية وتوجد في معظم المكتبات العربية الإسلامية .

وهذه الموضوعات الثلاثة الآنفة الذكر من أهم القضايا التي طرحت على صفحات هذا العدد بل من المواضيع الهامة والحساسة في مجال الدراسات التراثية والفكرية المعاصرة . وفي الختام نقول " سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين " .

البحــوث

((أبعاد توظيف الشخصية التراثية الإسلامية في الشعر المعاصر))

د. صابر عبد الدايم

* مدخل :

* إن توظيف الشخصية التراثية يعد أحد مصادر تشكيل الرمز في الشعر العربي المعاصر ، وفي ظلال هذا الرمز " ترتقي الصورة الحسية من كينونتها المادية التاريخية إلى صورتها الفنية حيث تصبح بؤرة لإشعاعات إيحائية لا تحد ، لأن الرمز كيان حسي يثير في الذهن شيئاً آخر غير محسوس . فهو يبدأ من الواقع - التاريخي ويتجاوزه إلى ما وراءه من معان مجردة وإيحاءات وظلال (١) . . فالشخصية التراثية في النسيج الشعري ليست تاريخاً يُرْوَى ، وليست سيرة يحللها الشاعر ، وإنما استدعاؤها يأتي في إطار رمزي قصصي غير محدد بأسوار التاريخ ، وغير خاضع لمنطقه المحكم ، وهذا الاستدعاء الفني له ما يبرره في تجربة الشاعر المعاصر . فهو يتكىء على المفارقة التصويرية واللغوية مسلطاً الشعور الناقد أو الرافض أو المتعاطف مع حركة الحياة المعاصرة .

* أبعاد توظيف الشخصية التراثية الإسلامية :

إن توظيف الشخصية في الشعر المعاصر لا يسير على نمط واحد . . بل تتعدد الأطر وتتنوع الرؤى والمضامين ، وربما تباينت رؤى الشعراء في توظيفهم لشخصية واحدة ، وربما جمع النص الواحد حشداً من الشخصيات والمواقف والأحداث التراثية في بناء شعري يعتمد المفارقة أساساً للتصوير الذي يجسّد التناقض بين الصورة التراثية وواقع الحياة المعاصرة .

* وتوظيف الشخصية التراثية خاصة وكذلك الأنماط التراثية عامة يتم في سياق فني يُعْنَى بالصيغ والأساليب والصور، ويُقَدَّم في إطار قصصي ودرامي ، ولا يقدَّم

المضمون فقط ، وهو إذا تم على هذا المستوى " يضع القاريء دائما على حافة نوع خاص من التوتر يمكن أن نطلق عليه " توتر التذكر " فلا يستطيع أن يمضي في تلقيه للنص دون أن يستحضر تداعيات نظيره في المستوى المستثار الشخصية التراثية ، ودون أن يقارن بشكل دائم بين مايؤديه كل من الطرفين ، وإذا كان القارىء العادي يكتفي بلمح المشابه ويسعد باكتشاف الموافقات . فإن القارىء المثقف يتوتر لهذه المشابه ولايرتاح حتى يدرك المخالفات ويضع يده على مناط المفارقة . إذ إن هذا هو السبيل الحقيقي لإعادة إنتاج دلالة النص الجديد ، وتوظيف النصوص والشخصيات الدينية في الشعر يعد من أنجح الوسائل ، وذلك لخاصية جوهرية في هذه النصوص والشخصيات التراثية تلتقي مع طبيعة الشعر نفسه وهي أنها مما ينزع الذهن البشري لحفظه ومداومة تذكره فلا تكاد ذاكرة الإنسان في كل العصور تحرص على الإمساك بنص إلا إذا كان دينياً أو شعرياً .

* ومن هنا يصبح توظيف التراث الديني في الشعر تعزيزاً قوياً لشاعريته ودعماً لاستمراره في حافظة الإنسان " (٢) .

* وهذا المنحى الفني في بناء التجربة الشعرية المتكىء على توظيف الشخصيات والنصوص الدينية لم يلتفت إليه الشعراء القدامى ، ولم يستفيدوا من القصص الإسلامي في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي ، ولقد أتيح للشعر العربي بعد عصر نهوضه عهدان ، كان حرياً أن يستجلي فيهما - لو اهتدى الشعراء حقاً- إلى الخلق والابتكار - كما يقول " طه إبراهيم " في كتابه (تاريخ النقد عند العرب) . . ثم يتابع قوله : ازدهر « الشعر » في أواخر القرن الأول الهجري بحضارة الإسلام ، وجيشان النفس العربية ، وجاء الشعر الإسلامي رائعاً جليا كالذي أخرجته الجاهلية أوأحسن ، ولكن هذا الازدهار كان على مثال الشعر الجاهلي ، فلم ينظر الشعراء في القرآن لغير الصياغة ، وبعض المعاني ، ولو أنهم تمعّنوا لوجدوا فيه أساليب من القول ، وضروباً من الفن الأدبي كان يسيراً أن يحتذوها : في القرآن مثلا الأسلوب القصصي ، وتاريخ الأقدمين ، وقصص الأنبياء ، وتلك أمور تزيد في روحية الأدب وتمد الشعراء بالأخيلة والإلهام (٣) .

* وحين نرصد الرؤى والأبعاد التي تتكيء على توظيف الشخصية الإسلامية وتستدعيها في صيغة فنية معاصرة نجد أنها في بعض مناحيها تتفرع إلى الرؤى والأبعاد التالية :

أولاً : الرؤية الشمولية للشخصية

ثانياً : الرؤية السياسية

ثالثاً : الرؤية المذهبية

رابعاً : الرؤية الذاتية

خامساً : الرؤية الضدِّية « المعارضة من خلال التناص » .

أولاً : الرؤية الشمولية :

* وتنطلق هذه الرؤية من المنظور العقدي . فالشاعر في اتكائه على هذا البعد الفني يموج وجدانه بوهج الإيمان ، والشوق إلى انتصار الوجود الإسلامي وعودته إلى تسنم ذروة المجد وقمة الحضارة .

* وخاصية الشمول في التصور الإسلامي يمكن أن تصبح طابعاً لصياغة التجارب الأدبية ، حيث تتسم بالخطاب الإنساني ، والسمو بالتجارب الذاتية الخاصة إلى الآفاق الفسيحة الشاملة ، وتتعامل مع الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وبكل أشواقها وبكل حاجاتها وبكل اتجاهاتها ، وهذا التصور الشمولي « يمنح القلب والعقل راحة وطمأنينة واتصالا بحقيقة المؤثرات الفاعلة في هذا الوجود كما هي في عالم الحقيقة والواقع » (٤)

* والرمز في هذا البعد الفني يعد إطاراً كليا للقصيدة ، وتتنامى فيه الأحداث والمواقف ، وتتفجر فيه الطاقات الإيحائية ، وهي تسلط عيناً على التراث وعينا يقظي على الواقع المعيش .

* وطبيعة الرمز في هذا التوظيف الفني تخالف الصيغة الرمزية في مرحلتها الأولى عند الرمزيين الرومانسيين ، حيث كانت تتكيء الرمزية الرومانسية على وسائل الإيحاء التصويرية والموسيقية ، فالرمز هنا « أي الرومانس » يجسد حالات نفسية

تكون بمنأى عن الواقع وحركته المائجة الصاخية في كثير من التجارب .

أما الرمز الذي يجسّده استدعاء الشخصيات الإسلامية فهو تفاعل مع حركة الواقع واستكناه لمعالم المستقبل ، وارتباط حضاري ووجداني بالجذور التراثية المكونة لهوية الأمة العربية والإسلامية وجوداً وحضارة وهوية وطموحاً إلى تجاوز مناطق الضعف ومسببات الاندحار والهزيمة .

* والرمز من خلال الشخصية التراثية في صياغته الفنية لا يظل حبيس مدلول واحد بل تتعدد دلالاته ، وتترامى آفاقه ، وتتنوع عطاءاته – فبالإضافة إلى تحقق المستويين الحسي والتجريدي في الرمز . . ينبغي أن لا يكون المستوى التجريدي المرموز محدداً بكل قسماته وأبعاده، لأن أساس الرمز الإيحاء ، والإيحاء ضد التقرير المباشر للأفكار والعواطف ، ولهذا تنتفي عن نطاق الرمز « الكلي الشمولي » تلك الاستعارات والكنايات والأمثال الرمزية المقصود بها إلى استخلاص عبرة أو مغزى صريح « محدّد » يفصح عنه الشاعر غالباً في نهاية القصيدة ، التي تبدو في تلك الحالة وكأنها قد سيقت خصيصاً من أجل البرهنة على الفكرة المرادة .

* فإذا تجاوزت الصورة الشعرية من خلال التوظيف التراثي للشخصية حدود الدلالة الحسية الضيقة واعتمدت على الإيحاء الرحب ، وليس على تقرير الأفكار أو بسطها وإذا فهمت على أنها بناء مركب تتآزر جزئياته وتتنامى ، ولم ينظر إليها – كما يفعل بعض الشعراء – على أنها مجرد وسيلة للتعبير غير المباشر غدت تلك الصورة وأمثالها رموزاً تثير من الناحية النفسية والروحية والوجدانية ما لا تقوى على أدائه اللغة في دلالتها الوضعية ، وفي تلك الحالة قد تعني القصيدة معاني متعددة لعدد من القراء ، وقد يكون كل من هذه المعاني مختلفاً هو الآخر عما قصده الشاعر » (٥)

ولكنه ليس متصادماً مع إحساس منشىء النص أو آفاقه ورؤاه واهتماماته ، والنص الجيد في منظور النقد الحديث هو الذي تتعدد دلالاته وتتعدد قراءاته فهو أشبه بالحديقة الغناء الفياضة بالطيوب والأصوات ، وتتعدد أبوابها بتعدد مرتاديها .

* وشخصية المصطفى صلى الله عليه وسلم كم كانت وما تزال وستظل مصدراً لتفوق كثير من التجارب الشعرية الرائدة . . وسر ذلك : أن مقومات الشخصية

المحمدية هي نموذج للشخصية الإسلامية في صورتها المثلى ، ولاغرو فهو الرحمة المهداة ، وهو أفصح العرب لسانا وأصفاهم جنانا ، وهو السراج المنير ، والبشير النذير وما زالت شخصية المصطفى عليه الصلاة والسلام تمد البصائر المؤمنة بأروع أسرار الكلم ، وأصدق آيات القصيد .

* والناقد الدكتور / حلمي محمد القاعود كانت أطروحته لنيل درجة الدكتوراه حول « شخصية محمد صلى الله عليه وسلم في الأدب العربي في القرن الرابع عشر الهجري » (٦)وهي دراسة وافية للأعمال الإبداعية التي تناولت شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام .

* والشاعر محمود حسن إسماعيل يخوض تجربة الارتحال مع النور الأعظم ويشهد ببصيرته انبثاق النور المحمدي في آفاق الكون ، فتتجمع خيوط الزمن في ذاكرته ، وتتوهج مسيرة الإسلام في وجدانه ، والنور الأعظم يتهادى أمام مسارات تجربته فتبصر الكون وقد أفاء الله عليه بظلال الإسلام ، وتبديد الرؤى الوثنية المظلمة

* يقول في صياغة خبرية بعد نداء إيماني صادق متجسّد في مستهل قصيدته : « ياأول نور » ، وهذه الصيغة الخبرية الممزوجة بالنداء تفصح عن تحقق الرؤية وواقعية الأحداث ، وتغلغلها في ضمير الزمن ، وتعاقب الأجيال ، وشخصية المصطفى عليه الصلاة والسلام هي الفلك الذي تسبح في مساراته هذه الأحداث المضيئة بكل معاني الخير والإيمان والأمان .

* وتتوالى الأبيات المصورة للأحداث في إيقاع سريع ، وموسيقى مصورة لحركة الشعور وحركة الواقع . . وهي موسيقى البحر « المتدارك » أو « الخبب » أو « ركض الخيل » .

* ويتميز إيقاع بحر «المتدارك» بخفته وسرعة تلاحق أنغامه ، وموسيقاه الواثبة تناسب سرعة الإيقاع في هذا العصر ، وهي أيضاً انعكاس لشدة الانفعال ، وتأجج العاطفة وتوقدها ، ويصلح للأجواء التصويرية التي يصح أن يكون النغم فيها عالياً "

* يقول محمود حسن إسماعيل :

يا أول نور

عَطَش الدنيا جُنَّ عليه . . ورَوَّى الحيرة من قدميه ! !

البِيد الظمأى شربتْ منه وراحت تسقي الظمأ اللاهث في الأكوانْ
وأذاب ضحاه جدار الليل . . وأوغل . . أوغل حتى شعشع في الإنسانْ
رشّ اليقظة والتوحيد والتوحيد على رئتيه
ومحا الذلة والإطراقة من جفنيه
ودهى الرق وكان محالاً لا يتزحزح عن كتفيه
ومضى يسحق كل ظلام . . عبر الدهر ومرّ عليه
عرج الأفق وأذّن من أعلَى أعلاه . .
وراح يدق . . ويطرق . . يطرق . . كل الأبوابْ
الفجر توهّج يا سارين على الأعتاب
والليل الضارب حول الكون تصدع في شفتيه وذابْ » (٨) ! !

* وقصيدة « من وحي النبوة » للشاعر : حسن عبد الله القرشي ترجم موقف الشاعر الحضاري ورؤيته الإسلامية ، ولكنه لا يستدعى شخصية المصطفى عليه الصلاة والسلام عبر الرمز الفني والتوظيف الشعري ، وإنما يصور في صدق وصراحة بهجة الكون ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأثر هذه البعثة وشخصية محمد صلى الله عليه وسلم في إنقاذ الكون من الضلالات والأهواء الزائفة ، والقيم الفاسدة .

* وفي ختام القصيدة يفصح الشاعر عن صدمته ، وتتجلى المفارقة بين الماضي المشرق المجيد وحاضر العالم الإسلامي المتخاذل الممزّق . وتحوطه الأخطار من كل جانب .

يقول الشاعر في مطلع القصيدة :

أيّ بشـرى علـوية الترديـــد   غمرت بالهدى شعاب الوجود ؟
أطلقي ياسماء أسمى الأناشيـ   ـد وضجى يا أرض بالتـوحيـد
فلقـد لاح في ذراك شعـــاع   مــاله فـي إئتــلاقــه من نـديـد
هو فجـر فرد على غرة الـدهـ   ـر وعيـد مخلــد التجـديد

* وفي ختام القصيدة يستدعى الشاعر موكب النور رامزاً به إلى زمن القوة ، والحضور الإسلامي الفاعل المؤثر في حركة التاريخ الإنساني منذ بزوغ شمس الدعوة الإسلامية ، يقول الشاعر / حسن عبد الله القرشي مصوراً واقع المسلمين ، وفي

الوقت ذاته يدفع بالعالم الإسلامي إلى النهوض من جديد على هدي من نور الكتاب المبين وسنة خاتم النبيين :

موكبَ النور قد عشينا فأرسلْ قَبْسَةً من ضيائك المنشود
قد تعالى القتام وارتكم المَيْـ ـن وبؤنا بواقع منكود
قَبْسَةً . . فالظلام هدّ قوانا
وامتداد الظلام لا شك يودي
هاهنا مهبط الرسالة مهوى الـ حق مجلى لعالم موعود
لا يزال الإسلام فينا فهيّا نصرع الشرك والأسى من جديد

* والدال المكسورة وهي حرف الروي في هذا النص تفسر عاطفة الشاعر الصادقة تجاه قضيته ومدى تعلقها بشخصية المصطفى صلى الله عليه وسلم . ولكن هذه العاطفة يمتزج فيها الشوق بالحزن ، والفرح بالانكسار ، فالدال تعبر عن صوت المحب الذي صار دالا من شدة الحزن ، وحركة الدال هي الكسرة وهي توحي بالانكسار ، فالضمة تعطي الفخامة والفتحة تعطي الاستعلاء ، أما الكسرة ففيها انكسار وألم .

أما علماء الأصوات فيذكرون أن الدال صوت أسناني لثوي انفجاري مجهور يتذبذب معها الوتران الصوتيان ، وهذا يومىء إلى القلق وهزة الشوق ، وهي من أصوات « القلقلة » لأنها تحتاج إلى تحريك " (١)

* فتشكيل القافية الصوتي شارك في تصوير عاطفة الشاعر وأوحى بطبيعة التجربة الشعرية .

* والقصيدة في إيقاعها الشعري تسبح في نغم البحر « الخفيف » . . وهو بحر « ساطع النغم ، بارز الموسيقى ، ثم إنه صالح للحوار « بقال وقلت » ، ويصلح للجدل وللترديد وللسرد ، ويمتلىء بالروح الملحمي ، وقد ذكر حازم القرطاجني في منهاج البلغاء « أن له جزالة ورشاقة » (١١)

* وتتضمن هذه القصيدة كثيراً من الخصائص السابقة فهي أشبه بالأعمال الملحمية حيث تتكون من أكثر من سبعين بيتاً ، وتصور كثيراً من أحداث الإسلام في عهد النبوة وهي تتكىء على السرد الفني والاستدعاء لبعض مواقف التاريخ من خلال

شخصية المصطفى عليه الصلاة والسلام . وبها بعض المشاهد الحوارية التسجيلية .
* ومن التجارب التي وظفت فيها الشخصية التراثية الإسلامية توظيفافنيا موازناً بين أفول حضارتين حضارة الإسلام في الأندلس وحضارة المسلمين في أفريقيا « زنجبار » قصيدة الشاعر الدكتور / عبده بدوي وعنوانها « جمشيد وأندلس الشرق » (١٢)
* ومنبع جودة هذه التجربة انطلاقها من رؤية شمولية لواقع العالم الإسلامي ، فهي روية إسلامية تتسامى فوق الحدود الوهمية المصطنعة التي فرضها أعداء الأمة الإسلامية على أبنائها فشتتوا شملهم يوم أن اصطنعوا لهم حدوداً جديدة خادعة من الجنس والعصبية واللغة والبيئة حتى ينسوا أنهم تظلهم الدائرة الكبرى دائرة العقيدة فهم في ظلالها الفينانة أمة واحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .
* يقول د / عبده بدوي في المقدمة النثريه لقصيدته :
[أحسست أن الدمعة الأخيرة الحزينة التي ذرفها السلطان العربي «جمشيد بن خليفة» آخر السلاطين العرب على زنجبار تَمُتُّ بصلة حزن عميقة إلى تلك الدمعة التي ذرفت في غرناطة يوم خروج الخليفة عبد الله - آخر ملوك بني الأحمر - منها] .
والشاعر في البناء التكويني لقصيدته جعل منها أربعة مشاهد تكون في مجموعها لوحة واحدة . وبدأ هذه اللوحة / القصيدة بمشهد الضياع . ثم مشهد الوجود العربي الإسلامي في زنجبار ، ثم مشهد الذكريات العائدة كسراب بقيعة ، ثم مشهد البكاء على الوجود العربي الإسلامي في أسبانيا « الأندلس » وفي زنجبار .
* يقول د / عبده بدوي منادياً في لهفة وأسى ، ومتخذاً من الكامل المجزوء صيغة إيقاعية منسجمة مع مسار تجربته الأليمة - فمناخ التجربة يوحي بالانقسام والتجزئة ، وأسلوب النداء المتكرر في مطلع كل مشهد يجسّد حالة البعد عن زمن البطولة ، وحالة الغربة المسيطرة على واقع الشاعر . . وواقع الحضارة الآفلة في الأندلس وفي أفريقيا « زنجبار » .
* والقافية الساكنة المقيدة توحي بحالة الجمود المسيطرة على مد الحضارة العربية والإسلامية في كثير من مناطق المعمورة ، والروي حرف الدال المردوف بالياء الممدودة يصور عمق الحزن وشدته وامتداده ، ويوحي بالقلق المسيطر

على الشاعر ، وقد اتفق الشاعران حسن عبد الله القرشي ود / عبده بدوي في رؤيتهما للواقع العربي والإسلامي فجاءت الموحيات الصوتية والأسلوبية لديهما متقاربة لأن منبع التجربة من حقل شعوري واحد .

* ولنتأمل بعض ملامح هذه التجربة الصادقة حيث يقول الشاعر في مشهد« الضياع » :

* جمشيد يا إشــراقـة جفت على الأفق البعيد
يا دمعـــة مذروفــــة من جفن تاريخ مجيــد
جمشيد وانصب الظـلا م وماج من بين السدودْ
فإذا الطيــور مهــاجرا تٌ بين أفـق من حـديـدْ
وأمامها الأمـواج والخو ف المجــوّف والجمـود
ويصدّها جمشـيـد من غير البيـــارق والبنــود
أرخى الجناح وأسند المنـ ـقــار وانتظـر الرعـود !

* وفي مشـهـد « العـودة بالذكـريات » يتـابع الشـاعـر نداءاته وتصـويره لـلمـأساة عـبر مفردات وتراكيب رامزة :

* جمشيد يا جزع المساء على النجوم الآفله
يـا آخــر المترنمين على طـريق القــــافلـــة
من أي بـاب ســوف ترجع بالحيـــاة الــزائلة ؟
بالذكريـات - بعالم جفت رؤاه الآملة ؟ ! !
بالنور . . . مدّ إلى الظلام المستبدّ أناملة ؟ ! !
بمـآذن . . لم تبتهج . . والفجر نجوى سائلة
هــذا هو التـاريخ يقتل في العصـور الذابلة
ويداك تخــرج من يديه إلى الديـاجي المـاثلة
ووراءك المجـد النضـير وأوجــه متقـــاتلـة

* وفي مشـهـد « البكاء » تتجسد المفارقة المصورة لأفـول حضـارتين . وهي مفـارقة قائمة على الموازنة ، وتثير فينا الحمية والنخوة والنهوض بعد العثرات والكبوات . . ولكن كيف . . ! ! !

جمشيـد إنك دمعة لمــا تــزل بين الجفـــون
إنا ذرفنـــا مثلهـــا والفجر في ليل سجين

لما غدت غرناطة　　مطروقة بالفاتحين
وامتد « حقد » للهلال　　فمال بالضوء الحزين
ومشى الخليفة مطرقا　　في موكب المستسلمين
ووراءه أم تقول　　بكل خوف الضائعين
قد آن أن تبكي هنا　　ملكا مضاعاً منذ حين
مثل النساء الباكيات　　بكل أحزان القرون

* * *

* قد عاد « عبد الله » يبكي ههنا بين السكون
من قلب جمشيد المعذب . . قلب جمشيد الطعين
سيظل يبكي ههنا في عصرنا . . عصر الأنين
يبكي العروبة والسماحة . . والمآذن والسنين ! ! !

* * *

* وشخصية « أبي ذر » يستدعيها كثير من الشعراء ، ولكن تتباين رؤاهم ، ومنهم من يجنح بموحيات الشخصية إلى دروب تتصادم مع التصور الإسلامي ومع واقع الشخصية التاريخي ، والشاعر " حسين علي محمد » ينجح في توظيفه واستدعائه لشخصية الصحابي الجليل " أبي ذر " حيث يرصد معالم الشخصية رصداً فنياً في لحظة التحول الحقيقي لحظة إشراق نور الإسلام في وجدان أبي ذر ، و في عقله ولحظة التحول هذه هي التي أضاءت له دروب حياته فيما بعد ، ويرجع توفيق حسين في هذه التجربة إلى ملمحين : أولهما : أنه لم يقلد غيره من الشعراء المعاصرين الذين اتخذوا من شخصية " أبي ذر " رمزا لمقاومة الثراء . . . حيث كان يحب الفقراء ويدافع عنهم – كما يقولون – ويزعمون أنه أول اشتراكي في الإسلام – وهذا وهم وزعم باطل – لأنه تصور قاصر لشخصية أبي ذر المسلمة ، فهو مسلم ، والمسلم الملتزم بمنهج الإسلام ينطلق في كل تصرفاته وسلوكياته من منابع مضيئة بالتوحيد والربوبية والشمولية والاتزان والواقعية والإيجابية ، فالثراء ليس مرفوضاً في التصور الإسلامي ، وكذلك الفقر ليس هدفاً يركض وراءه المسلم : قال تعالى

﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ (١٣) وقال سبحانه : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى ﴾ (١٤) ويقول سبحانه : ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ (١٥) .

* ثانيهما : أنه صاغ رؤيته لشخصية أبي ذر في إطار الشعر المسرحي ، وحالفه التوفيق في هذه الصياغة المسرحية .

* والحوار بين أبي ذر وبين أخيه أنيس من أقوى مشاهد المسرحية ، فهو بين أنصار الحق ومنهم " أبو ذر " وبين أهل الشرك متمثلين في " أنيس " .

* يقول أنيس لأبي ذر حين شعر بميله للإسلام " هل أنت صبأت .

يقول أبوذر : لم أصبأ . . لكني أتلمس ضوء الحق . . . أبحث عنه .

* أنيس - قلقاً - ومناه . . . ؟ ! !

* أبوذر :

لا تكفيني . . لا تشبعني
أثق يقينا أن هناك إلها
أقوى من كل الأصنام
أقوى من معبودتك مناة
فهو الخالق . . وهو القادر (١٦)

* ولكاتب هذه السطور رؤيته الفنية في توظيف الشخصية التراثية ؛ من خلال الرؤية الكلية الشمولية ، فالشخصيات الإسلامية تعد محوراً تدور في فلكه كثير من التجارب الشعرية ، وتوظيف الشخصية في حالتيها " الوجه والقناع " هو إطار التجربة ، فالوجه هو الواقع التاريخي للشخصية ، والقناع هو الواقع المعاصر الذي تبعث فيه الشخصية لتنفخ فيه من روحها الإيمانية النقاء والعزيمة والعزة الإسلامية ومن هذه التجارب القصائد التالية :

« مشاهد من ملحمة العشق والبطولة لمحمد بن القاسم الثقفي " و " أسماء : الثورة والعطاء والتحدى » و « إشراقات من سفر التكوين والنبوءة (١٧) و« إيقاع الزمن القادم " أو « يوسف والجب " و « قافلة الغرباء »، و « لن يموت في عيوننا النهار " (١٨) .

* وقصيدة « أمير الفقراء " عمر بن عبد العزيز " (١٩)، وقصيدة « القبو الزجاجي » " أو رسالة إلى محمد الفاتح " (٢٠) .

* وفي مطلع قصيدة القبو الزجاجي " يقول كاتب هذه السطور :

* أيها الفاتح . . . ضيَّعْنا مفاتيح المدائن ! ! !
ونسينا البحر . . والموج وتهليل السفائنْ ! ! !
ونسينا الخيل . . والرمح . . وأسرار الكمائن
* سورة الفتح هجرناها . . وبددنا صداها . . .
وتراءَت في حنايانا . . أنيناً وحنينا
كل أشجار الفتوحات أراها
عاريات من رؤاها . . .
. . . من ثمارِ المجد . . .
. . . في أوراقها جفَّتْ دماءٌ كنتَ تسقيها شذاها
أيها الفاتح أقبل . . . أنت مازلت فتاها
انزع السيف من " القبو الزجاجي " . . .
فقد تِهْنَا . . . وتاها . . . ! ! !

* *

* ويقدم الشاعر د / حسن الأمراني اعتذاراً إلى أبي أيوب الأنصاري ، حين زار مدينة استامبول ورحلت ذاكرته الإيمانية في مرايا المجد الإسلامي ، والفتوحات الكبرى في بلاد البلقان . . ، ولم يجد مخرجاً إلا أن يخاطب أبا أيوب خالد بن زيد الأنصاري ، الرجل الذي اختار الله عز وجل أن تبرك بأرضه ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل المدينة مهاجراً ، وهو أحد السبعين من أهل العقبة الثانية ، شهد المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعند ما تحرك جيش المسلمين إلى فتح القسطنطينية على عهد يزيد بن معاوية كان أبو أيوب ضمن ذلك الجيش ، وحين أصيب في المعركة طلب أن يدفن في أقصى نقطة من أرض العدو فدفن على مشارف القسطنطينية « إسلامبول » [أي دار الإسلام] .

* وقصيدتا " رسالة إلى محمد الفاتح واعتذار إلى أبي أيوب الأنصاري " منبع التجربة فيهما واحد فهما من وحي زيارة الشاعرين لمدينة استامبول . وتصوير محنة المسلمين في العصر الحاضر مع استدعاء الرموز الماجدة التي صنعت الوجود الإسلامي في هذه الديار العامرة . يقول الشاعر / حسن الأمراني مستدعيا الشخوص والأزمنة والأمكنة في امتزاج فني شعوري صادق :

أقدم اعتذاري
إليك يا ناشرة السلام
يا قلعة الفاتح يا بشارة الرسول
يا مدينة القباب والمآذن الصواري
أهكذا يموت في أعماقنا الضياءْ ؟
أهكذا ينهدم البناءْ ؟
هل يغسل الحزن خطايانا
كما تغتسل الحقول بالأنهار ؟
وهل تذيب دَرَنَ الأنفس دمعة بجوف الليل أو . .
. . أو شهقة لها أزيز النار ؟
أكلما نهضتُ أو خرجت أو جردت من أشعاري
سيفا يحزّ عنق الظلام
أو كفا تعيد الخصب للتراب
يفجعني الأصحاب ! !
لأن هذا الناس في زماننا
ثيابهم عوار
وجوههم عوار
أقدم اعتذاري
إليك يا سيف أبي أيوب الأنصاري (٢١)

* والتجربة نفسها يخوضها الشاعر د / جابر قميحة فيكتب من وحي زيارته لمدينة استامبول قصيدته " رسالة إلى أبي أيوب الأنصاري " مصوراً مشاهد الانتصار ،

ومشاهد الانكسار في مفارقة غاضبة حزينة لا ترفع الراية البيضاء، ولكن يظل الصمود وقوة الإيمان يمثلان التحدي الإسلامي المناهض لكل التيارات المضادة .
وقد ألقى الشاعر قصيدته في غابة بلجراد على القمة التي كانت مجلسا لمحمد الفاتح يوماً ما ! ! ! (٢٢) .

ثانياً : الرؤية السياسية :

. . واستدعاء الشخصية في هذا المنحى يظل في بعض التجارب متكئاً على التصور الإسلامي والالتزام بمعالم الرؤية الإسلامية مضموناً وأداء ، لغة وأسلوبا ، وبعضها يحصر الشخصية في قالب محدد متأثراً ببعض التوجهات والأفكار ، أو ينظر للشخصية من خلال منظور جزئي تمثل السياسة بعده الأكبر ، وكذلك البعد الاجتماعي، فالشاعر " محمد أبو دومه " يحمل هويته " في صورة نقش على ذراعه باسم أبي ذر ، وهو يقتصر على البعد السياسي والبعد الاجتماعي ، ويظل في استدعائه لشخصية أبي ذر الغفاري بمنأى عن الرؤية الشمولية للشخصية بصفتها شخصية مسلمة شاركت في صنع الوجود المسلم بكل أبعاده ، لأن هذه الهوية لا تضيف إلى رمز " أبي ذر " شيئاً جديداً ، ولكنها تتعامل معه من منظور التمرد على بني أمية وعلى المترفين ـ وفي مفارقات تصويرية ساخرة يوضح الشاعر ملامح هويته التي يحاول فك طلاسمها من خلال موحيات ومعطيات شخصية " أبي ذر " التي يحاول الشاعر تطويعها لتجربته .

يقول " أبو دومه " :

تتمطى قدّامي صحراء المنفى موجات صدى
تتكوم في صدري الأحزان
أذكر لحظة أن قابلت " أباذر " يسحبه الحراس إلى " الربذهْ "
حملق في وجهي برهه
أعطاني معتذراً ظهره
ومضى يحكي للحصباء عن النار المنتظره
عنا حين تجرعنا الموت قعوداً
حين تجرعناه وقوفاً
لكني ما فارقت خطاك
فمعاوية يلاحقني مذ شاهد فوق ذراعي نقشاً باسمك " (٢٣) .

* ومن التجارب التي تستدعي الشخصية الإسلامية عبر رؤية سياسية مفسرة لما يدور من أحداث معاصرة قصيدة " بنت الأزور في بيروت " للشاعر جميل عبد الرحمن.

* وهو يجسد من خلال هذه الشخصية الصابرة المناضلة مأساة " لبنان " المعاصرة، والمفارقة واضحة بين التاريخ الجليل والحاضر الذليل . . ، وتزدحم قصيدة الشاعر بكثير من الشخصيات الدائرة في فلك رؤيته المصورة لأحداث الاعتداء الغاشم على لبنان، يقول جميل عبد الرحمن :

* سيدتي يبست يدها . . . ماعادت تقدر أن تحمل سيفا
أو تقفز فوق جواد نافر
وحصان المجد الساطع في " اليرموك " و " أجنادين "
شاخت خطوته من زمن غابر
" خولة " سيدتي العربية
تبكي مجداً قَوَّضَه الإغفاء طويلا فوق جوار الشمس
تبكي آخر ما كانت ترجو سيدة في عمر اليأس (٢٤)

ثالثاً : الرؤية المذهبية :

* وفي هذا المنحي يحصر الشاعر الشخصية المستدعاة في قالب مذهبي يمثل اتجاه إحدى الفرق في تاريخ الفكر العربي والإسلامي، ويصوغ الشاعر رؤيته لملامح هذه الشخصية انطلاقا من التصور المذهبي، ومثل هذا الاتجاه نجده عند علي أحمد سعيد " أدونيس "، وهو تصور بعيد عن الصورة السوية لمعالم الرؤية الإسلامية، ولا يوحي بأبعاد الشخصية الماثلة في الوجدان العام، ولكنه يصبغ موحيات الشخصية بمعتقد الشاعر ومذهبه .

و" أدونيس " يصور لحظة اغتيال زيد بن علي إمام الزيدية، ولحظة مصرع "الحسين"، وهذا التصوير يخرج الشخصية عن صورتها المعتدلة في مسيرة التاريخ الإسلامي فللحسين بن علي مكانته بين صحابة رسول الله، وله مكانته في وجدان المسلمين، ولكن هذه المكانة لا ترفعه إلى مقام التقديس كما يحاول ذلك بعض الكتاب والأدباء، وأدونيس في تصويره لمصرع الحسين، ومصرع زيد بن علي

يحاول إثارة القلاقل والفتن ، ويرمي كل المذاهب الأخرى والاتجاهات المعتدلة بالعداوة والبغضاء ،

* والرؤية نفسها تتكرر في رصد الشاعر لمصرع " زيد بن علي " حيث يسيطر الأداء " الدرامي " على التجربة ، وتتعدد الأصوات ، والصياغة القصصية تحتل العنصر البارز من عناصر التجربة الشعرية ، ولكن يسيطر عليها التعصب المذهبي ، وعدم تمثل خصائص التصور الإسلامي الصحيح (٢٥) .

رابعاً : الرؤية الذاتية :

* وتوظيف الشخصية التراثية في هذا الإطار لا ينطلق من منظور تاريخي ، ولا يحصر الشخصية في دائرة البعد السياسي أو المذهبي ، ولا يتجاوز هذه الدائرة الضيقة إلى آفاق الرؤية الشمولية ، وإنما نجد بعض الشعراء يتخذ من الشخصية معادلا موضوعياً لذاته ، ومن خلال استدعائه لملامح هذه الشخصية يطرح همومه الحياتية ، ويكشف عن قلقه الذاتي ، ويبوح بما تنطوي عليه نفسه من مكابدات ، وما تموج به من أشواق وطموحات وانفعالات ، والتجربة لا تخلو في هذا الإطار التوظيفي التراثي من إشارات عصرية تومض في المفردة الشعرية ، وفي التكوينات الأسلوبية ، وبعض التشكيلات البيانية المعاصرة .

وهذه الرؤية الذاتية تبرز بجلاء في قصيدة " الخروج من الجنة " للشاعر حسين علي محمد ؛ إذ يصور من خلال استدعائه لشخصية " أبي حيان التوحيدي " شعوره بالقلق والهزيمة والإحباط ، وعنوان القصيدة يجسد هذا الإحساس الذي رمز إليه بالخروج من الجنة .

* وفي ختام القصيدة يرسم الشاعر هذا المشهد التعبيري المؤثر :

أرجع مكسوراً وجريحاً
قد يكفي أن أمتص جراحي
لكني أخرج من جنتك . . .
فأعرف أني خنتك في أولى لحظات الكشف . . .
فسالت قنوات دمائي
ترسم غيمات زرقاء
على وجه القمر الشاحب .

* والتصوير الشعري هنا يجسّد الواقع النفسي ، فدماء الشاعر تسيل ، والعالم كله يصبغ بلون نفسيته وآثار دمائه . . فإذا به يرى دماءه غيوما زرقاء تحجب عنه ضوء الحقيقة الهارب منه في صورة القمر الشاحب ، وليست قنوات الدماء ، ولا الغيوم الزرقاء ، ولا القمر الشاحب إلا تصويراً لنفسية الشاعر وإحساسه بالقلق ، وشعوره بالتصادم مع إيقاع الحياة المعاصرة .

* وفي قصيدة " من إشراقات عمرو بن العاص " يفرغ الشاعر نفسه كل مواجيده وهمومه وآلامه الخاصة والعامة " (٢٦)

خامساً : الرؤيا المعارضة من خلال التناص :

* وفي هذا المنحى يقدم الشاعر تجربته من خلال نص تراثي ارتبط بشخصية لها مكانتها في الوجدان الجمعي ، ولها تأثيرها في نفوس الأجيال المتعاقبة ، وفي هذا الإطار تقدم تجربة الشاعر " جميل عبد الرحمن " حيث يقيم علاقة تناصّ " متصادمة " مع نص الشاعر المحارب " قطري بن الفجاءة " حيث يعارض " جميل " أبيات ابن الفجاءة ضمن قصيدة تجسّد روح المعارضة وعنوانها " انكسارات " يتفق مع مناخ " التناص " والتجربة القائمة على المفارقة الساخرة . يقول في المشهد السابع من " إنكساراته " معارضاً قصيدة " قطري بن الفجاءة " التي مطلعها
أقول لها وقد طارت شعاعا   من الأبطال ويحك لن تراعى " (٢٧)

** أقول لها وقد طارت شعاعا   من الأهوال نامي في ضياعي ! !
فإنك لو سألت الحزن يوماً   لسدّ الأذن عن عمر مضاع ! !
وغض الطرف عن صرخات أهلي   وعن شيب الوليد على ذراعي ! !
أقول لها ـ وقد أخذوا صغيري   إلى قعر السجون بلا دفاع ! !
إذا اتهموه غالوا في الرزايا   ويُفتَن في العذاب بلا انقطاع ! !
لقد أخذوه في داج الليالي   وخلوا أمه نهب التياع ! !
فصبرا في عراك الظلم صبراً   فما رفع الرؤوس بمستطاع ! !(٢٨)

* والشاعر الرائد " علي أحمد باكثير " يتخذ من استدعائه لشخصية أبي تمام وسيلة فنية لتجسيد تجربته وإحساسه بالفجيعة ، وكذلك إثارة نزعة المقاومة والتصدي لمؤامرات الصهاينة ومحاولاتهم السيطرة على المقدسات الإسلامية في فلسطين ، وكأنه يقول : إن التاريخ يكرر نفسه فالروم قديما يتآمرون على المسلمين ، والصهاينة حديثاً يشردون شعبا بأكمله ، والمفارقة تبدو في موقف العزة العربية والإسلامية الذي

وقفه المعتصم حيث قام بفتح عمورية وتأديب الروم ، وسجّل هذه الموقعة وملابساتها شعراً أبو تمام . . فقال في حزم وقوة وإصرار

« السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب » .

* والبون شاسع بين موقف " المعتصم " وهزيمة الروم وبين واقع الصراع اليهودي وغدر الصهانية ، ومحاولاتهم نسف الجهود الداعية إلى إعطاء كل ذي حق حقه .

* يقول علي أحمد باكثير " مناديا أبا تمام " حبيب بن أوس الطائي ، ومتكئا على علاقة " التناص " بين قصيدة " أبي تمام " في فتح عمورية وبين خطابه لأبي تمام في العصر الحديث ، ورؤيته توحى بالبون الشاسع بين الموقفين من العدو الذي يتربص بنا الدوائر ، إنه ينادي في أسى واستنهاض للعزائم :

أحبيبُ في ذاكرك تذكرة لبنى أبيك اليوم إذ وثبوا
أعداؤنا هم كعهدك لا تغيير إلاّ الاسم واللقب
صهيون صار اسماً لبابكم والغرب فيه الروم ما غربوا
من ألف عام ما تزال لنا معهم ملاحمُ ليس تنقضب
يبغون أن يمحوا رسالتنا محوا ويأبى الله والحسب

وباكثير - كما يقول د / عبده بدوي " كان أقوى صوت غنى للعرب وآمن بقدرتهم حتى حين سقط الظلام على الظهيرة ، وحين تشكك الذين لم يسبق أن خطر الشك على صحيفة أنفسهم ، وتختلط في شعر باكثير العروبة بالإسلامية ، فإذا كان الإسلام هو النظرية فالعروبة هي السلاح ، وهو في قصيدة أخرى يقول :

وصُنْ رحم الإسلام فهي وشيجة تشابك أقوام عليها وأقطار
هي العروة الوثقى هي القوة التي يتم بها للسلم في الأرض إقرار (٢٩)

* وبعد

فإن ديوان الشعر العربي المعاصر يحفل بكثير من التجارب الثرة في هذا المجال الإبداعي ، وذلك ملمح بارز من ملامح تطور الشعر العربي الحديث رؤية وأداء ، وإن التراث الإسلامي بكل معطياته شخوصا وأماكن ومواقف وأزمانا يضيء زوايا الرؤى الشعرية والتجارب الرائدة في مسيرة شعرنا المعاصر .

* والأديب المسلم في غمرة تجاربه الإيمانية والتأملية لا يكون بمعزل عن واقع الحياة ومشاغل الإنسان وآماله وأحلامه ، فهو في إيمانه يتأمل ما خفى من أسرار الكون ، وهو في تأملاته يستجلي أسرار الحياة ، ويبحث عن منافذ الخلاص عبر رؤية إسلامية متميزة متفردة تصاغ معالمها في قالب فني مؤثر .

* الهوامش والإحالات :

(١ ، ٥) الرمز والرمزية في الشعر المعاصر د/ محمد فتوح أحمد دار المعارف بالقاهرة

(٢) إنتاج الدلالة الأدبية [قراءات في الشعر والقص والمسرح] د/ صلاح فضل الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة .

(٣) انظر تاريخ النقد عند العرب أ / طه إبراهيم .

(٤) انظر خصائص التصور الإسلامي أ . سيد قطب ،

و " الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق " لكاتب الدراسة

(٥) لمزيد من الإيضاح والنماذج انظر الكتاب المشار إليه في متن الدراسة للدكتور حلمي القاعود .

(٦) قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، وموسيقى الشعر العربي لكاتب الدراسة .

(٧) ديوان نهر الحقيقة للشاعر محمود حسن إسماعيل ص (١٩٠ - ١٩٢) القاهرة ١٩٧١ م وانظر كتاب " محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة : لكاتب الدراسة ص (١٠٠ - ١٠٤) .

(٨) ديوان " الأمس الضائع " للشاعر حسن عبد الله القرشي دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٨ م

(٩) انظر دراسات في النص الشعري د / عبده بدوي ، ومن القيم الإسلامية في الأدب العربي / لكاتب الدراسة .

(١٠) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني .

(١٢) ديوان " لا مكان للقمر د/ عبده بدوي : الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م

(١٣) سورة الملك آية (١٥) سورة النجم آية ٤٠ ، ٣٩ .

(١٥) سورة الذاريات آية ٢٢ .

(١٦) ديوان الرحيل على جواد النار د/ حسين علي محمد : الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٨٥ م

(١٧) ديوان " الحلم والسفر والتحول " د/ صابر عبد الدايم : الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٨٣ م

(١٨) ديوان " المسافر في سنبلات الزمن "د . صابر عبد الدايم " القاهرة ١٩٨٢م .

(١٩) النص الكامل للقصيدة بديوان " العاشق والنهر " لكاتب الدراسة .

الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة ١٩٩٤م .

(٢٠) النص الكامل للقصيدة بمجلة «الأدب الإسلامي» العدد السابع محرم ١٤١٦هـ

(٢١) ديوان ثلاثية الغيب والشهادة : نص القصيدة الكامل والهامش ص ٦٩ - ٧٦ د/ حسن الأمراني / المغرب .

(٢٢) نشرت قصيدة " رسالة إلى أبي أيوب الأنصاري " بجريدة الشعب " بالقاهرة .

(٢٣) ديوان " السفر في أنهار الظمأ " د/ محمد أبو دومة - القاهرة ١٩٨٩ / الهيئة العامة للكتاب .

(٢٤) انظر القصيدة بديوان " وأمام تشققنا نعترف "لجميل عبد الرحمن " الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٩٢م .

* والتيار السائد في "استدعاء الشخصيات التراثية " لدى الشعراء المعاصرين هو تيار الرؤية السياسية ، ويقع الشعراء في كثير من المغالطات التاريخية والفنية التي تنحرف بالشخصية عن مسارها الحقيقي .

(٢٤) انظر متن هاتين التجربتين في ديوان " الآثار الكاملة لعلي أحمد سعيد [أودونيس] .

(٢٦) انظر متن القصيدتين أو التجربتين في ديواني الشاعر " الرحيل على جواد النار "

و « حدائق الصوت » ، وانظر " مجلة " البلد الأمين : العدد الرابع - رجب - رمضان ١٤١٧ هـ

(٢٧) انظر حماسة أبي تمام ، والفرق الإسلامية في الشعر الأموي د / النعمان القاضي .

(٢٨) ديوان وأمام تشققنا نعترف / جميل عبد الرحمن .

(٢٩) انظر كتاب قضايا حول الشعر د / عبده بدوي / الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م .

تطوّر الخطط الدراسية في المملكة

مع التركيز على اللغة العربية

(دراسة تاريخية مقارنة)

د. محمـــــود إسماعيل عمّـــــار.

الخطــة الدراسيــة

الخطّة هي الإعداد للمستقبل ، أو هي الوسيلة لتحقيق الأفضل، بمعنى رسم الحاضر و تَنظيمه، ليؤدي نتائجه في ضوء المقدمات . . والاشتقاق اللغوي دالّ على أن هذا الإعداد يتوخى الطريقة المستقيمة والمنهج الصحيح ، ويكون واضحا لا اشتباه فيه مرتبطا بالتغيير، والسعي للحصول على نتائج أفضل ، في وقت يطول أو يقصر . قال ابن منظور : (١)

الخطّ : الطريقة المستقيمة في الشيء ، والخطّ : الطريق ، يقال : الزم ذلك الخط ولا تظلم عنه شيئاً ، وفي الحديث : إنه عرض عليكم خُطّةَ رشد فاقبلوها ، أي أمراً واضحاً في الهدى والاستقامة . وقال ﷺ : «لايسألوني خُطّة يعظمون فيهاحرمات الله إلا أعطيتهم إياها» أما الخِطّة (بالكسر) فلما يتصل بالأرض من تخطيط المدن والأحياء ، وإقامة الأبنية .

والخُطّة الدراسية هي الطريقة التي يعدّ في ضوئها أبناء المجتمع، للوصول إلى الأهداف العامة . . هي الواجهة أو المرآة التي ترينا المستقبل، وتعبر عن أهداف التعليم ولذلك تعكس في كل بلد الواقع والطموح في وقت واحد . ويترتب على ذلك .

* أن تختلف الخطط الدراسية من بلد إلى بلد في ضوء الواقع والطموحات والقيم السائدة .

* أن تتغير الخطة الدراسية في البلد الواحد من وقت لآخر ، لتجاري أسباب التطور وتلاحق ما يتم إنجازه ، وما يراد تحقيقه .

ولذلك وجدنا الخطط الدراسية منذ قيام المملكة العربية السعودية على يد مؤسسها وبانيها المغفور له : الملك عبد العزيز، تتطور وتتغير بعد كل فترة من الزمن في ضوء ما تفرزه الخطة السابقة ، والاحتياجات التي تدعو إليها المرحلة التالية . ولا يهمنا أن نستعرض تفصيلات ما تضمه كلُّ خطة من هذه الخطط ، ولكن نلقى الضوء على هذا التطور وما تحظى به اللغة العربية في كل مرة .

(١) لسان العرب : مادة خطط

الخطط الدراسية في المرحلة الثانوية

ظهرت لهذه المرحلة عدة خطط دراسية . نكتفي بالحديث عن الخطط التي صدرت في السنوات الهجرية ١٣٩٠ ، ١٣٩٤ ، ١٤٠٠ ، ١٤١٢ ، (١) . وسنعرض الحصص الأسبوعية ، وحصص اللغة العربية ، والنسبة المئوية لهذه الحصص بالنظر إلى الحصص الأسبوعية في كل صف دراسي ، في القسمين الأدبي والعلمي ، في كل خطة من الخطط الأربع السابقة (٢) . كما تظهره الجداول التالية (٣) .

أولا : القسم الأدبي :

الصفوف / الخطط	الصف الأول			الصف الثاني			الصف الثالث			المجمـوع		
	ح س	ح ل	٪	ح س	ح ل	٪	ح س	ح ل	٪	ح س	ح ل	٪
١٣٩٠	٣٦	٧	١٩	٣٦	١١	٣٠,٥	٣٦	١٢	٢٣	١٠٨	٣٠	٢٧,٨
١٣٩٤	٣٤	٩	٢٦,٤	٣٠	١١	٣٦,٦	٢٩	١١	٣٧,٩	٩٣	٣١	٣٣,٣
١٤٠٠	٣٣	٩	٢٧	٢٨	١١	٣٩,٢	٢٧	١١	٤٠,٧	٨٨	٣١	٣٥,٢
١٤١٢	٣٢	٦	١٨,٨	٣٢	٩	٢٨	٣٢	٩	٢٨	٩٦	٢٤	٢٥

(شكل (١) : يبين الخطط الدراسية في القسم الأدبي)

ويتضح من هذا الجدول ما يلي :

١ - أن اللغة العربية تنال نصيبا كبيرا من مجموع الحصص الأسبوعية في جميع الخطط الدراسية التي تم حصرها ، فهي لا تقل عن الربع (٢٥٪) ، وتزيد أحيانا على الثلث (٣٥٪) ، وهذه نسبة كبيرة إذا قورنت بخطط دراسية في كثير من البلاد .

٢ - أن الاهتمام بتدريس اللغة العربية يتزايد في الخطط ١٣٩٠ - ١٤٠٠ ، في كل خطة عن سابقتها على النحو التالي :

١٣٩٠ : ٢٧,٨٪   ١٣٩٤ : ٣٣,٣٪   ١٤٠٠ : ٣٥,٢٪

---

(١) انظر في هذه الخطط على التوالى ، تاريخ التعليم في مكة ص ٢١٩ . عبد الرحمن صالح عبد الله ، دارالفكر ١ / ١٣٩٢ . منهج المرحلة الثانوية ١٣٩٤ ص٣ . وزارة المعارف . منهج المرحلة الثانوية ١٤٠٨ ص٣ . وزارة المعارف ،ومجلة التوثيق التربوي . العدد (٢٩) ١٤٠٨ ص ٨٩-٩٩ وتعميم الوزارة المتضمن خطة المرحلة الثانوية الجديدة بتاريخ ١٤١٢/٣/٨ .

(٢) تتقسم المرحلة الثانوية في خطة ١٤١٢ ابتداءً من الصف الثاني إلى أربعة أقسام : قسم العلوم الشرعية والعربية أدرجناه في جدول القسم الأدبي ، قسم العلوم الطبيعية وقسم العلوم التطبيقية وقد أدرجناهما في جدول القسم العلمي تسهيلاً للموازنة . والقسم الرابع وهو قسم العلوم الإدارية والاجتماعية ونصيب اللغة العربية في هذا القسم أربع حصص من ٣٢ حصة أسبوعية بنسبة ١٢,٥٪ في الثاني ومثلها في الثالث و قد أعد هذا البحث قبل اعتماد حصة التربية الوطنية في التعليم العام من الصف الربع الابتدائي حتى الثالث الثانوي.

(٣) الرموز المستخدمة هي : ح س : الحصص الأسبوعية الإجمالية ح ل : حصص اللغة العربية في الأسبوع ح ط : حصص اللغة الوطنية ٪ : النسبة المئوية .

٣ - أن عدد حصص اللغة العربية في هذه الخطط يكاد يكون ثابتا ، وأن زيادة النسبة التي طرأت كانت بسبب نقص الخطة الإجمالية ، بمعنى أن هذا النقص لم يمس نصاب اللغة العربية .

٤ - اعترى نصاب اللغة العربية نقص في خطة ١٤١٢ بنسبة ٧٪ عن الخطة السابقة ، وذلك راجع إلى ازدحام الجدول وانقسام المرحلة الثانوية إلى أربعة أقسام . وكان النقص في الصفوف الثلاثة في هذه المرحلة بالمعدلات التالية .

الأول : ٣,٣٣٪ الثاني : ١,١٨٪ الثالث : ١,١٨٪

ثانياً : القسم العلمي :

الصفوف / الخطط	الصف الأول			الصف الثاني			الصف الثالث			المجموع		
	ح س	ح ل	٪	ح س	ح ل	٪	ح س	ح ل	٪	ح س	ح ل	٪
١٣٩٠	٣٦	٧	١٩	٣٦	٦	١٦,٧	٣٦	٦	١٦,٧	١٠٨	١٩	١٧,٦
١٣٩٤	٣٤	٩	٢٦,٤	٣٤	٤	١١,٨	٣٢	٣	٩,٤	١٠٠	١٦	١٦
١٤٠٠	٣٣	٩	٢٧	٣٢	٤	١٢,٥	٣٠	٣	١٠	٩٥	١٦	١٦,٨
١٤١٢	٣٢	٦	١٨,٨	٣٤	٣	٨,٨	٣٤	٣	٨,٨	١٠٠	١٢	١٢

شكل (٢) : يبين الخطط الدراسية في القسم العلمي

ويتضح من هذا الجدول ما يلي :

١ - تحتل خطة ١٣٩٠ المركز الأول من حيث نسبة الاهتمام باللغة العربية إذ تشغل ٦,١٧ ٪ من مجموع الحصص ، بينما لا تحتل حصص اللغة العربية في خطة ١٤١٢ إلا نسبة ١٢٪ ، بفارق قدره ٦,٥٪ بينهما ،

٢ - يأتي الاهتمام متقاربا بالمادة بين خطط ١٣٩٠ ، ١٣٩٤ ، ١٤٠٠ ، بفارق لا يزيد على ٦,١٪ في صالح الخطة الأولى .

٣ - تحتل حصص اللغة العربية في الصف الأول الثانوي أعلى نسبة بين صفوف القسم العلمي لأنه مرحلة إعداد عام ومشترك بين العلمي والأدبي ، ويبلغ أقصى ما يبلغه في خطة ١٤٠٠ ، حيث تشكل حصص اللغة العربية ٢٧٪ من الحصص

الأسبوعية ، وقريب منها خطة ١٣٩٤ ،

٤ – اطراد الزيادة التي لقيتنا في القسم الأدبي في الخطط السابقة ، يلقانا في مقابلها في القسم العلمي اطراد النقص ، ولكن بنسبة أقل ، اللهم إلا في الصف الثاني بين خطتي ١٣٩٤ / ١٤٠٨ . حيث شهدت زيادة بمقدار ٠,٧٪ ويتضح النقص على النحو التالي :

الصف الثاني : ١٣٩٠ : ، ١٦,٧٪ ١٣٩٤ : ، ١١,٨٪
١٤٠٠ : ، ١٢,٥ ١٤١٢ : ، ٨,٨٪

الصف الثالث : ١٣٩٠ : ، ١٦,٧٪ ١٣٩٤ : ، ٩,٤٪
١٤٠٠ : ، ١٠٪ ١٤١٢ : ، ٨,٨٪

ويتضح من ذلك أن مادة اللغة العربية في الصفين الثاني والثالث لا تنال إلا نصابا محدودا ، ولا سيما في الخطط ١٣٩٤ . ١٤٠٠ ، ١٤١٢ ، إذ كان نصيبها بمتوسط عام ١٠,٢٪ من مجموع الحصص . ولعل ذلك راجع إلى أنها مرحلة تخصصية .

وإذا ما قارنا نصيب اللغة العربية في صفوف المرحلة الثانوية في هذه الخطط بنصيب اللغة الوطنية في خطة التعليم الثانوي في بلد متقدم كاليابان ، وجدنا اللغة الوطنية في اليابان تحتل نسبة ١٦ر١ ٪ ، علما أن النظام التعليمي لديهم لا يقتضي وجود تخصص في هذه المرحلة . ويتضح ذلك في الجدول التالي : (١) .

الصف الأول			الصف الثاني			الصف الثالث			المجموع		
ح س	ح ط	٪	ح س	ح ط	٪	ح س	ح ط	٪	ح س	ح ط	٪
٣٢	٥	١٥,٦	٣١	٥	١٦,١	٣٠	٥	١٦,٧	٩٣	١٥	١٦,١

شكل (٣) : الخطة الدراسية للمرحلة الثانوية في اليابان

ويستحسن في ضوء ماسبق :

١ – رفع نسبة اللغة العربية في الخطة الأخيرة في القسم الأدبي ، لتكون مقاربة لنظيراتها في الخطط السابقة ، ولا سيما مع هذا الضعف الذي يعاني منه طلاب المرحلة الثانوية .

٢ – رفع حصص اللغة العربية في القسم العلمي إلى نحو الضعف بحيث لا تقل عن ٢٠٪ من الخطة الإجمالية ، قياسا إلى بلد كاليابان ، نظرا إلى طبيعة اللغة العربية

(١) التربية في اليابان المعاصرة ص٤٨ . ادوارد . ر بوشامب . ترجمة د. محمد عبد العليم مرسي مكتب التربية ١٤٠٦ . وانظر تفسير هذه الرموز في ص (٢٩) هـ (٣) من هذا البحث .

ومكانتها وكثرة قضاياها الفكرية والتطبيقية، وما يتصل بذلك من مشكلات وعقبات.

٣ - رفع نسبة اللغة العربية في قسم العلوم الإدارية والاجتماعية لتكون وسطا بين القسمين الأدبي والعلمي ، نظرا لحاجة هذا القسم إلى اللغة وكثرة استخدامه لها .

٤ - إدخال مادتي المطالعة والإنشاء في جميع تخصصات المرحلة الثانوية .

٥ - زيادة نصاب مادتي المطالعة والإنشاء في التخصص الأدبي .

٦ - إدخال مادة العروض والقافية " مادة مستقلة " في هذا القسم .

٧ - دعم مادة النحو والصرف في جميع التخصصات .

الخطط الدراسية في المرحلة المتوسطة

تطورت الخطة الدراسية في المرحلة المتوسطة كذلك ، في ضوء مقتضيات النمو واحتياجات التعليم ، فقد كانت الخطة الدراسية عند إنشاء هذه المرحلة (٣٦) حصة أسبوعية ، ثم أصبحت عام ١٣٨١ (٣٨) حصة أسبوعية ، وأصبحت عام ١٣٨٥ (٣٩) حصة أسبوعية ، احتلت فيها اللغة العربية مكانا بارزا (١). وقد صدرت بعد ذلك خطتان إحداهما عام ١٣٨٩ (٢)، والأخرى عام ١٤٠٠ (٣)، كما يوضحهما الشكل (٤) .

الصفوف / الخطط	الصف الأول			الصف الثاني			الصف الثالث			المجموع		
	ح س	ح ل	٪	ح س	ح ل	٪	ح س	ح ل	٪	ح س	ح ل	٪
١٣٨٩	٣٦	٦	١٦,٦	٣٦	٦	١٦,٦	٣٦	٦	١٦,٦	١٠٨	١٨	١٦,٦
١٤٠٠	٣٣	٦	١٨,٢	٣٣	٦	١٨,٢	٣٣	٦	١٨,٢	٩٩	١٨	١٨,٢

شكل (٤) : خطة ١٣٨٩ و الخطة الحالية ١٤٠٠ في المرحلة المتوسطة

(١) انظر : تاريخ التعليم في مكة ص ٢٥ .

(٢) السابق ومنهج المرحلة المتوسطة للبنين ١٣٩١ ص ٣ وزارة المعارف

(٣) منهج المرحلة المتوسطة للبنين ٢ / ١٤٠٨ . ص ٥ . وزارة المعارف . ومجلة التوثيق التربوي عدد ٢٩ ص ٩٦ . انظر في الرموز ص (٢٩) هـ (٣) من البحث .

ويتضح من هذا الجدول :

١ - أعادت خطة ١٣٨٩ الحصص الأسبوعية إلى (٣٦) حصة أسبوعية (٣٦ × ٣ = ١٠٨) و خصصت للغة العربية (٦) حصص في كل صف (٦ × ٣= ١٨) ، أي بنسبة ١٦,٦ ٪ .

٢ - أما خطة ١٤٠٠ المعمول بها ، فقد جعلت الحصص الأسبوعية (٣٣) حصة في الصف (٣٣×٣=٩٩) ، وأبقت حصص اللغة العربية على ما هي (٦×٣=١٨) ، أي بنسبة ١٨,٢ ٪ .

٣ - أدّى انخفاض الحصص الكلية في خطة ١٤٠٠ مع ثبات نصيب اللغة العربية في الخطتين إلى ارتفاع نسبة اللغة العربية في الخطة الحالية ١٤٠٠ (١٨,٢ - ١٦,٦ = ١,٦٪) . حيث أدى الانخفاض الإجمالي إلى زيادة النسبة .

٤ - ما تتمتع به اللغة العربية في الخطة الحالية ١٨,٢٪ أعلى مما خصص للغة الوطنية في اليابان في هذه المرحلة ، إذ أعطيت اللغة الوطنية (٥) حصص من مجموع الحصص الأسبوعية البالغة (٣٤) حصة ، أي بنسبة ١٤,٧٪ . (١) .

أما الخطة التفصيلية في هذه المرحلة فتظهر بالمقارنة مع الخطة التفصيلية في بلد عربي كمصر (٢) ، على النحو التالي :

الصفوف / الخطط	الصف الأول		الصف الثاني		الصف الثالث		المجموع	
	س	م	س	م	س	م	س	م
القواعد	٢	١	٢	٢	٢	٢	٦	٥
النصوص	١	١	٢	١	٢	١,٥	٥	٣,٥
المطالعة	١	٢	١	٢	١	١,٥	٣	٥,٥
التعبير	١	١	١	١	١	١	٣	٣
إملاء وخط	١	٢	–	١	–	–	١	٣
المجموع	٦	٧	٦	٧	٦	٦	١٨	٢٠

شكل (٥) : يبين الخطة التفصيلية للمرحلة المتوسطة (مقارنة)

(١) انظر : التربية في اليابان المعاصرة ص ٤٥ .

(٢) انظر : تدريس فنون اللغة العربية ص ٢٩ . د . علي أحمد مدكور . مكتبة الفلاح . ١٤٠٤/١ . الكويت . وقد رمزنا للخطة السعودية بحرف (س) والخطة المصرية بحرف (م)

ويتضح من ذلك ما يلي :

١ - أن الخطة الإجمالية العامة للمرحلة المتوسطة في مصر تزيد حصتين عن نظيرتها في المملكة .

٢ - يتساوى الاهتمام بالتعبير في الخطتين ، وإن كانت نسبته في الخطة السعودية أعلى منها في الخطة المصرية ، في الأولى ٦, ١٦٪ وفي الثانية ١٥٪ من الخطة العامة في كل منهما .

٣ - اهتمت الخطة السعودية بالقواعد ، إذ بلغت حصصها (٦) حصص ، أي بنسبة ٣, ٣٣٪ ، بينما لم تبلغ في الخطة المصرية إلا ٢٥٪ .

٤ - اهتمت الخطة السعودية كذلك بالنصوص ، إذ بلغت حصصها (٥) حصص ، أي بنسبة ٧, ٢٧٪ ، بينما هي في الخطة المصرية ٥, ١٧٪ .

٥ - اهتمت الخطة المصرية بالمطالعة بشكل جيد ، إذ تبلغ حصصها (٥, ٥) حصة ، أي بنسبة ٥, ٢٧٪ ، بينما هي في الخطة السعودية (٣) حصص ، أي بنسبة ٦, ١٦٪ .

٦ - اهتمت الخطة المصرية كذلك بالإملاء والخط ، إذ تبلغ (٣) حصص أي بنسبة ١٥٪ ، واشتملت على الصف الأول والثاني ، بينما هي في الخطة السعودية حصة واحدة بنسبة ٥, ٥٪ ، واقتصرت على الصف الأول . وهي نسبة ضئيلة ومحدودة .

ويستحسن في ضوء هذه المقارنة ما يلي :

١ - الاهتمام أكثر بحصص المطالعة لقلة نصيبها في الخطة .

٢ - الاهتمام أكثر بالإملاء والخط ، من حيث :

* فصل كل منهما عن الأخرى في الصف الأول .
* امتداد تدريس الإملاء إلى الصف الثاني والصف الثالث من المرحلة (١)

٣ - تغليب المطالعة على النصوص في هذه المرحلة ، لأنها الشكل الخارجي لإتقان اللغة ، وأكثر انتشاراً . وهي موصلة إلى اتقان النصوص . أما النصوص في حد ذاتها فيغلب عليها الجانب التخصصي ، وتأتي تبعا للمطالعة .

---

(١) طبق هذا الرأي منذ العام الماضي في الصف الثاني ، وفي هذا العام في الصف الثالث بناء على التعميم رقم ٢٠٢ / ٤٩ في ١٤١٦/٤/١ فأخذت حصة من حصتي النصوص في هذين الصفين ، وأعطيت للإملاء ، ولعل في ذلك ما يساعد على تحسين المستوى في الإملاء ، الذي تكررت الشكوى منه .

٤ - أتمنى ألا تقل حصص أي مادة من مواد اللغة العربية عن حصتين في هذه المرحلة لو سمحت الخطة بذلك

الخطط الدراسية في المرحلة الابتدائية

جاء في النظام الداخلي للمدرسة الابتدائية المصدق من قبل وزير المعارف في ٩/ ١٠/ ١٣٨٤ ، أن المدرسة الابتدائية (هي مجموعة من التلاميذ تتلقى التعليم في المرحلة الأولى حسب المنهج الموزع على ست سنوات ، على يد مدرس أو أكثر ، تحت الإشراف المباشر لمدير المدرسة أو من ينوب عنه إدارة هذه المدرسة) (١).

وقد تطورت الخطط الدراسية في هذه المرحلة تطورا كبيرا وتطورت معها دراسة اللغة العربية ، ونسبة وجودها بين المواد (٢) .

فالخطة الدراسية لعام ١٣٤٨ ، التي كانت المرحلة الابتدائية فيها أربع سنوات ، كانت اللغة العربية تمثل ٢٫٢٨٪ من الحصص الأسبوعية . وظهرت خطة جديدة سنة ١٣٥٢ كان نصيب اللغة العربية فيها ٢٫٣٢٪ ، وحدثت تعديلات في المنهج سنة ١٣٥٥ كان من أبرزها تخصيص الأشهر الثلاثة الأولى من الصف الأول للهجاء فقط ، وتخصيص حصص للقواعد و التطبيقات من مجموعة حصص اللغة العربية . ودمجت المرحلتان التحضيرية والابتدائية عام ١٣٦١ ، لتصبح المرحلة الابتدائية ست سنوات ويكون نصيب اللغة العربية فيها ٣٣٪ .

وفي سنة ١٣٦٤ صدر نظام المدارس القروية الذي طبق في القرى التي لا يزيد عدد تلاميذها على ستين طالبا . وجعلت مدة الدراسة فيها أربع سنوات واستمر هذا النظام حتى سنة ١٣٧٣ ، وكان نصيب اللغة العربية فيه ١٫٢٩٪ تدعمه حصص القرآن الكريم - نظرا وتلاوة - حيث تحظى هذه الحصص بنسبة ٧٫٤٣٪ .

وفيما يلي جدول يضم الخطط المختلفة التي ظهرت منذ سنة ١٣٦١ حتى الخطة

(١) النظام الداخلي ، وزارة المعارف ص ١ .

(٢) انظر : تاريخ التعليم في مكة ص ١٠٢ - ١٠٣ . عبد الرحمن صالح عبد الله . دار الفكر . ١٣٩٢/١ . ومعالم التطور في نظام التعليم الابتدائي ص ٢٥ - ٢٦ ربيع الأول ١٤٠٠ . وزارة المعارف . مركز المعلومات والتوثيق التربوي .

الحـــاليـــة ، المعـــمـــول بهـــا منذ عـــام ١٣٩٧ . (١)

الصفوف / عدد الحصص / الخطط	الصف الأول			الصف الثاني			الصف الثالث			الصف الرابع			الصف الخامس			الصف السادس			المجموع		
	ح س	ح ل	٪	ح س	ح ل	٪	ح س	ح ل	٪	ح س	ح ل	٪	ح س	ح ل	٪	ح س	ح ل	٪	ح س	ح ل	٪
خطة ١٣٦١	٢٨	٢٢	٧٨,٥	٣٤	١٢	٣٥,٣	٣٤	١٠	٢٩,٤	٣٤	١٣	٣٨,٢	٣٤	١٣	٣٨,٢	٣٣	١٣	٣٩,٤	١٩٧	٨٣	٤٢,١
خطة ١٣٦٥	٢٤	٢٢	٦٤,٧	٣٤	١٢	٣٥,٣	٣٤	٩	٢٦,٤	٣٤	١٣	٣٨,٢	٣٤	١٣	٣٨,٢	٣٤	١٣	٣٨,٢	٢٠٤	٨٢	٤٠,٦
خطة ١٣٦٥م	٢٨	٢٢	٧٨,٥	٣٤	١٢	٣٥,٣	٣٤	٩	٢٦,٤	٣٤	١٣	٣٨,٢	٣٤	١٤	٤١,١	٣٤	١٤	٤١,١	١٩٨	٨٤	٤٢,٤
خطة ١٣٧٥	٢٨	٢١	٧٥	٣٤	١٢	٣٥,٣	٣٤	١٢	٣٥,٣	٣٤	١٤	٤١,١	٣٤	١٣	٣٨,٢	٣٤	١٣	٣٨,٢	١٩٨	٨٥	٤٣
خطة ١٣٧٧	٣٠	١٥	٥٠	٣٤	٧	٢٠,٥	٣٤	١٠	٢٩,٤	٣٤	١٠	٢٩,٤	٣٤	١٠	٢٩,٤	٣٤	١٠	٢٩,٤	٢٠٠	٥٢	٢٦
خطة ١٣٨٨	٣٢	٩	٢٨,١	٣٢	٩	٢١,١	٣٥	١١	٣١,٤	٣٥	٩	٢٥,٧	٣٥	٩	٢٥,٧	٣٥	٩	٢٥,٧	٢٠٤	٥٧	٢٧,٩
خطة ١٣٩٧	٢٨	٩	٣٢	٢٨	٩	٣٢	٢٨	٩	٣٢	٣٠	٩	٣٠	٣٠	٨	٢٦,٧	٣٠	٨	١٦,٧	١٧٤	٥٢	٢٩,٨

شكل (٦) : تطور الخطط الدراسية في المرحلة الابتدائية

ويستنبط من الجدول ما يلي :

١ - يتـمـثل في هـذه الخطط تيـاران ، الأول تمثله خطط ١٣٦١ - ١٣٧٥ ، حـيث احتلت اللغة العربية في هذه الخطط ٤٢٪ من الخطط العامة . والثاني تمثله الخطط ١٣٧٧ - ١٣٩٧ ، حيث انخفض نصيب اللغة العربية فيها الى ٩ , ٢٧٪ .

٢ - لعل الفارق بين المجموعتين بسبب أن الخطط الأولى وضعت في فترة مبكرة ، ولم تكن المناهج والمقررات قد ازدحمت بالمطالب العصرية . أما الخطط الثانية فقد واكبت إنشاء وزارة المعارف سنة ١٣٧٣ ، حيث تعددت العلوم وتطلبت الخطة كثيرا من المواد المساعدة كالرياضيات والعلوم والتربية الفنية والرياضية وغيرها ، فكان لا بد من إحداث تعادل .

٣ - ارتفاع نسبة اللغة العربية في المجموعة الأولى جعلتها كخطط متخصصة في اللغة العربية ، لا تسبقها إلا مواد التربية الإسلامية . بل يحتل الهجاء نسبة عالية هي ١ , ٧٤٪ من حصص الصف الأول ، وخصصت خطة ١٣٦١ الأشهر الستة الأولى من الصف الأول لهذه المادة .

(١) اعتمدنا في هذه الخطط على : معالم التطور في نظام التعليم الابتدائي ص ٣٠- ٣٥ ومنهج التعليم الابتدائي لمدارس البنين ص ٤ ط / ١٤٠٨ وتاريخ التعليم في مكة ص ٨٥ وتعميم الخطة الدراسية برقم ٢١/٥٣٥ في ١٣٩٧/٧/١٢ وأربعون عاما من عمر التعليم ص٨٨ التطوير التربوي ، الرياض ١٤١٤ ، انظر دلالة الرموز المستخدمة ص(٢٩) هـ(٣) من هذا البحث .

٤ – تميزت خطة ١٣٧٥ باهتمامها الشديد بنصيب اللغة العربية ، الذي احتل في الخطة العامة ٤٣٪ من مجموع الحصص ، موزعة بنسب عالية على الصفوف الستة واستأثر الصف الأول فيها بنصيب الأسد ٧٥٪ ، ثم الصف الرابع الذي كان نصيب اللغة العربية فيه ٤١٪ ، ثم الصف الخامس والسادس ٣٨٪ لكل منهما ، ثم الثاني والثالث ٣٥,٥٪ تقريبا لكل منهما .

لكن هذه الخطة لم تعمر طويلاً ، وأتت بعدها مباشرة خطة ١٣٧٧ ، التي تجانست إلى حد ما مع الخطط التي تليها ، بحيث شكلت اتجاها جديداً يختلف عن خطة ١٣٧٥ .

٥ – يلفت النظر ثبات حصص اللغة العربية تقريبا ، في الخطط الثلاث الأخيرة ١٣٧٧ / ٥٢ حصة ، ١٣٨٨ / ٥٧ حصة ، ١٣٩٧ / ٥٢ حصة ، على الرغم من تغير عدد الحصص الإجمالية في كل خطة ، حتى يبلغ الفرق بين أدناها وأعلاها نحو ثلاثين حصة . إذ كانت الخطط على النحو التالي :

١٣٧٧ / ٢٠٠ حصة   ١٣٨٨ / ٢٠٤ حصة   ١٣٩٧ / ١٧٤ حصة

٦ – يطرد ارتفاع نسبة حصص اللغة العربية في الخطط الثلاث ، حتى ارتسمت أمامنا على النحو التالي ، على التوالي :

٢٦٪   ٢٧,٩٪   ٢٩,٨٪

٧ – ارتفاع نسبة المادة في كل صف من الأول إلى الرابع ، في كل خطة من الخطط الثلاث الأخيرة ، ماعدا الخامس والسادس اللذين أدركهما انخفاض طفيف بين خطتي ١٣٧٧ – ١٣٨٨ ، كما يلي :

١٣٧٧ : ٢٩,٤٪   ١٣٨٨ : ٢٥,٧٪   ١٣٩٧ : ٢٦,٧٪

٨ – ارتفاع نسبة المادة لا يعني زيادة عدد الحصص في هذه الصفوف دائما ، ولكنه يجيء أحيانا بسبب ثباتها مع انخفاض المجموع الكلي للحصص .

٩ – تدل هذه الإحصاءة على الاهتمام باللغة العربية في المرحلة الابتدائية بشكل عام ، وهو اهتمام مشابه لحد كبير الاهتمام باللغة الوطنية في اليابان كما تظهره الإحصاءةالتالية :

الصف الأول			الصف الثاني			الصف الثالث			الصف الرابع			الصف الخامس			الصف السادس			المجموع		
ح س	ح ط	٪	ح س	ح ط	٪	ح س	ح ط	٪	ح س	ح ط	٪	ح س	ح ط	٪	ح س	ح ط	٪	ح س	ح ط	٪
٢٤	٧	٢٩	٢٥	٩	٣٦	٢٧	٨	٢٩,٦	٢٩	٨	٢٧,٥	٣١	٧	٢٢,٦	٣١	٧	٢٢,٦	١٦٧	٤٦	٢٧,٥

شكل (٧) : موقع اللغة الوطنية من خطة الدراسة الابتدائية في اليابان

ومع هذا فنحن محتاجون إلى أن ننظر إلى فروع المادة (الخطة التفصيلية) ، لنتبين ما ينال كلا منها في الخطط ١٣٦١ - ١٣٩٧ ، حيث ظهرت في هذه الفترة سبع خطط دراسية كما تظهر في الشكل التالي :

الصفوف / الخطط / المواد	الصف الأول							الصف الثاني							الصف الثالث						
	٦١	٦٥	٦٥م	٧٥	٧٧	٨٨	٩٧	٦١	٦٥	٦٥م	٧٥	٧٧	٨٨	٩٧	٦١	٦٥	٦٥م	٧٥	٧٧	٨٨	٩٧
القراءة والهجاء	١٨	١٨	١٨	١٨	١٣	٧	٧	٦	٣	٣	٣	٥	٧	٧	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣
الأناشيد					٢	٢	٢					٢	٢	٢					٢	٢	٢
الإملاء								٦	٦	٦	٦				٤	٣	٣	٤	٢	٣	٢
الخط	٤	٤	٤	٣				٣	٣	٣	٣				٣	٣	٣	٣	١	١	١
التعبير																		٢	٢	٢	١
النحو																					

الصفوف / الخطط / المواد	الصف الرابع							الصف الخامس							الصف السادس						
	٦١	٦٥	٦٥م	٧٥	٧٧	٨٨	٩٧	٦١	٦٥	٦٥م	٧٥	٧٧	٨٨	٩٧	٦١	٦٥	٦٥م	٧٥	٧٧	٨٨	٩٧
القراءة والهجاء	٢	٢	٢	٢	٢	١	٣	٢	٢	١	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢
الأناشيد	١	١	١	٢	٢	٢	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
الإملاء	٣	٣	٣	٣	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	١	٢	٢	٢	٢	٢	٢	١
الخط	٢	٢	٢	٢	١	١	١	٢	٢	٢	٢	١	١	١	٢	٢	٢	٢	١	١	١
التعبير	٢	٢	٢	٢	٢	٢	١	٢	٢	٢	٢	٢	١	١	٢	٢	٢	٢	٢	١	١
النحو	٣	٣	٣	٣	١	١	١	٤	٤	٦	٤	٢	٢	٢	٤	٤	٥	٤	٢	٢	٢

شكل (٨) الخطط التفصيلية في المرحلة الابتدائية

ويتضح من هذا الجدول عدة نقاط :

١ - في خطط ١٣٦١ - ١٣٧٥ (١) ، ظهر اهتمام شديد في مادة الهجاء في الصف الأول ، إذ حظيت بـ (١٨) حصة أسبوعية .

٢ - ظهر الاهتمام بالإملاء بشكل واضح في الثاني والثالث ثم الرابع في هذه الخطط (٦) حصص في الثاني ، (٣ - ٤) حصص في الثالث ، (٣) في الرابع .

٣ - الاهتمام بالخط منذ الصف الأول في هذه الخطط ، حيث أعطي لكل من الأول والثاني والثالث (٣ - ٤) حصص لمادة الخط في الأسبوع .

٤ - حظى الصف الثاني بأكبر نصيب من حصص الإملاء والخط مجتمعة (٩) حصص بالإضافة إلى حصص القراءة وهي (٦) أو (٣) فيكون نصيب اللغة العربية في هذا الصف (١٥) أو (١٢) حصة يختلف من خطة لأخرى .

٥ -يلي ذلك حصص الإملاء والخط في الثالث فهي (٧) أو (٦) حصص بالإضافة إلى (٣) حصص للقراءة فيكون نصاب اللغة العربية في الصف الثالث (١٠) أو (٩) حصص .

٦ - يفتت نصيب المادة في الصفوف العليا ، ويقل نصاب الفروع السابقة وتظهر فروع جديدة مثل الأناشيد والتعبير والنحو بناء على التقدم في سنوات المرحلة الابتدائية .

٧ - ارتفاع نصيب القواعد في الصفوف العليا في هذه الخطط . حيث كانت في الصف الرابع (٣) حصص ، وفي الخامس (٤-٦) حصص ، وفي السادس (٤-٥) ، ويلفت النظر إعطاء حصة صرف للصف الخامس من خطة ١٣٦٥ المعدلة .

٨ - يسترعي الانتباه اختفاء الأناشيد في الصفوف الأول والثاني والثالث في هذه الخطط حيث لم يخصص لها حصص مستقلة .

٩ - أما خطتا ١٣٨٨ و ١٣٩٧ ، على أساس أنهما أقرب زمنا وأدخل في النواحي التنظيمية ، فقد ظهر فيهما :

* ثبات أوضاع الصف الأول في عدد الحصص ونوع المواد (٧ هجاء + ٢ نشيد) .

* تسجل خطة ١٣٩٧ انخفاضا عن خطة ١٣٨٨ في مادة الإملاء بمعدل حصة في كل من الثالث والخامس والسادس ، فنزلت من تسع حصص إلى ست حصص في الخطة الجديدة ، وبذلك تكون أكثر المواد التي مستها يد التغيير ، في الوقت الذي

(١) ظهرت سنة ١٣٦٥ خطتان رمزنا للثانية بـ (٦٥م) أي المعدّلة .

كانت فيه في خطة ١٣٧٥ (١٧) حصة في الأسبوع .

* تسجل خطة ١٣٩٧ كذلك، انخفاضا في مادة التعبير عن خطة ١٣٨٨ بمعدل حصة في كل من الثالث والرابع، فقد نزلت من (٦) حصص إلى (٤) حصص في الخطة الجديدة . بينما كانت في خطة ١٣٧٥ و ما قبلها ضعف هذا العدد (٨) حصص .

ولعل ذلك يشير إلى بعض الأسباب لضعف التلاميذ في مادتي الإملاء والتعبير . وربما كان ذلك بسبب اشتمال الخطة على مواد جديدة من متطلبات العصر .

* توافقت الخطتان ١٣٨٨ و ١٣٩٧ على عدم إعطاء القواعد في مجموع الصفوف الرابع والخامس والسادس ، أكثر من خمس حصص من جملة برنامج المرحلة الابتدائية أي بنسبة ٨, ٢ ٪ من الخطة العامة ، بينما كانت هذه المادة تنال من خطط : ٦١ و ٦٥ و٧٥ و ٧٧ (١١) حصة ، أي بنسبة ٥, ٥ تقريباً ، وكان نصيبها في خطة (٦٥)المعدلة (١٤) حصة ، أي بنسبة ٧٪ من الخطة العامة . ولعل ذلك يفسر جودة مستوى النحو لدى الأجيال السابقة ، وتردي هذا المستوى في الأجيال الحديثة .

* تسجل خطة ١٣٩٧ تعديلا حديثا بارتفاع حصة في مادة المطالعة للصف الرابع بدلا من حصة أناشيد حيث أصبحت القراءة منذ بضع سنين (٣) حصص .

* من التطورات المهمة التي طرأت على خطة ١٣٩٧ ما أقدمت عليه وزارة المعارف بتعميمها ١٥١/ ٤٩ في ٤/ ٣/ ١٤١٦ وفي ضوء التجارب والمتابعة الميدانية ، حين جعلت منذ العام الدراسي ١٤١٦/ ١٤١٧ هـ نصيب الهجاء والنشيد في الصف الأول (١٢) حصة في الفصل الدراسي الأول و (١١) حصة في الفصل الثاني ، منها حصة واحدة للنشيد في كل فصل ، فيصبح نصيب المادة من خطة الصف الأول (٢٨حصة) ٨, ٤٢٪ أو ٣, ٣٩٪ بدلاً من ٣٢٪ ويرتفع نصيب اللغة العربية في خطة المرحلة إلى نحو ٥, ٣١٪ بدلاً من ٨, ٢٩٪ ، كما في شكل (٦)

وهذا أعطي دفعة قوية لمادة الهجاء ، وتحسين المستوى فيها ، على أساس أنها مفتاح التعلم ، ومنطلق التعليم ، والتمكن منها يرفع مستوى الأطفال في اللغة العربية وفي غيرها من المواد .

ولتوضيح طبيعة الخطة التفصيلية ، نتصفح الشكل التالي في المقارنة بين الخطة الحالية والخطة المصرية (١) المعمول بها في المرحلة الابتدائية :

الصفوف / الفروع	الصف الأول		الصف الثاني		الصف الثالث		الصف الرابع		الصف الخامس		الصف السادس		المجمـــوع	
	س	م	س	م	س	م	س	م	س	م	س	م	س	م
الهجاء والقراءة	١١	٦	٧	٦	٣	٣	٣	٣	٢	٣	٢	٣٠	٢٨	٢٤
الأنـاشيد	١	٢	٢	٢	٢	٢	١	٢	١	١	١	١	٩	١٠
الإمـلاء					٢	٢	٢	١	١	١	١	١	٦	٥
الخـــط					١		١	١	١	١	١	١	٤	٣
التعبيـر		٢		٢	١	٢	١	٢	١	١	١	١	٤	١٠
النحـــو							١	١	٢	٢	٢	٢	٥	٥
المجموع	١٢	١٠	٩	١٠	٩	٩	٩	١٠	٨	٩	٨	٩	٥٥	٥٧

شكل (٩) : الخطة التفصيلية للمرحلة الابتدائية في المملكة ومصر

ويتضح من الشكل ما يلي :

١ - يزيد مجموع حصص الخطة المصرية حصتين أو ثلاثة عن مجموع الخطة الحالية في المملكة ، في ضوء التعديل الأخير لعدد حصص الهجاء وكانت من قبل تزيد (٥)حصص .

٢- الهجاء والقراءة في الأول والثاني في المملكة أكثر في عدد الحصص منها في مصر ، ومتساوية في الثالث والرابع ، وأقل في الخامس والسادس .

٣ - تتشابه الخطتان في عدد حصص الأناشيد والإملاء والخط في أكثر الصفوف ، إلا أنها تسجل زيادة حصة في الأناشيد في الصف الأول وحصة في الصف الرابع في الخطة المصرية ، وزيادة حصة في الإملاء في الصف الرابع في خطة المملكة ، وحصة خط في الصف الثالث في خطة المملكة ، حيث لا تضم الخطة المصرية حصصا لتدريس الخط في هذا الصف

٤ - يتفاوت الاهتمام في حصص التعبير ، إذ تبلغ في الخطة المصرية (١٠) حصص ، في مقابل (٤) حصص في خطة المملكة . وذلك راجع لسببين :

* أن الخطة المصرية تبدأ بتدريس التعبير منذ الصفين الأول والثاني بمعدل حصتين لكل منهما .

* أعطت الخطة المصرية حصتين لكل من الثالث والرابع في هذه المادة ، بينما هي في خطة

(١)انظر :تدريس فنون اللغة العربية ص(٢٩)،وقد رمزنا للخطة السعودية بحرف (س) و للخطة المصرية بحرف (م)

المملكة حصة واحدة لكل صف منهما .

فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن التعبير في الصف الأول والثاني محدود المجال ، وأنه يقتصر على الجانب الشفهي والمحادثة ، مما يمكن معه استثمار المواد الأخرى لأداء هذا الغرض ، فإن هذه الزيادة (٤) حصص ، لا جدوى لها على الإطلاق .

غير أنه من المستحسن أن نلاحظ :

١ - الحاجة إلى زيادة حصص التعبير لتكون حصتين في كل من الرابع والخامس والسادس .

٢ - زيادة حصص الإملاء لتكون حصتين على الأقل في جميع الصفوف ، من الثالث حتى السادس مع الأخذ بعين الاعتبار ما جاء في تعميم الوزارة رقم ٥٠٣/ ٤٩ في ٢٥/ ١١/ ١٤١١ حول الإملاء في الصفين الأول والثاني .

٣ - ألا تقل حصص المطالعة في الخامس والسادس عن ثلاث حصص في الأسبوع .

٤ - لا ضير من دمج المطالعة والأناشيد ، على أن يضم المنهج ما يسد الحاجة في كل منهما ، والأخذ بعين الاعتبار عدد الحصص الكافية لهذا الغرض ، وأن يلحظ المدرسون الأهداف المختلفة لذلك .

٥ - زيادة حصص القواعد في الصفوف العليا ولاسيما الرابع أسوة بالخطط السابقة

٦ - يمكن الاستغناء عن حصة الخط في الثالث ، لعدم اكتمال نضجهم العضلي ، ولأنهم في مرحلة اكتساب المهارة الكتابية قبل تخصيصها ، ولأن المحاولات الأولى في خطوطهم تأتي خداجا .

٧ - فصل الكتابة عن الهجاء في الصفين الأول والثاني ، وتخصيص حصتين للكتابة وإبرازها في الجدول مستقلة ، ويتم الاختبار كذلك على هذا الأساس ، مع تحقيق الربط بين الهجاء والكتابة ، والتدرب على كتابة الحروف والكلمات في دروس الهجاء أيضاً .

خطة المرحلة الابتدائية ومكتب التربية لدول الخليج

أوصى المركز العربي للبحوث التربوية لدول الخليج ، رغبة في تطوير الواقع التعليمي في هذه الدول بما يلي : (١)

«يخصص للتربية الإسلامية واللغة العربية واللغة الإنجليزية والاجتماعات حوالي ٥٠٪ من الخطة الدراسية بالمرحلة الابتدائية ويراعى ما يلي :

١ - تخصص نسبة ملائمة للتربية الإسلامية .

(١) الموضح التعليمي للطفل في دول الخليج ص٩٩ . أحمد محمد النكلاوي . مكتب التربية ١٤٠٧ .

٢ - تخصص نسبة كبيرة لتعليم مهارات اللغة العربية ، ويفضل أن تبدأ بتركيز أكبر في الصفوف الأولى ، وتتناقص تدريجياً في نهاية المرحلة .
٣ - تأخير تدريس الاجتماعات مستقلة إلى قرب نهاية المرحلة .

والمتأمل في خطط الدراسة في المملكة يجدها حققت هذه التوصيات ، وزادت في تطبيقها ، إذ حظيت التربية الإسلامية واللغة العربية بنسبة أعلى بكثير مما جاء في هذه التوصية ، إذ احتلت في خطة ١٣٨٨ (٦٤,٢٪) ، وفي خطة ١٣٩٧ (٦٤,٤٪) ، وهو ما يمثل تلثي الخطة الدراسية تقريبا ، ويوضحها الشكل التالي :

الصفوف / الخطط	الصف الأول	الصف الثاني	الصف الثالث	الصف الرابع	الصف الخامس	الصف السادس	المجموع
١٣٨٨	٦٥,٦	٦٥,٦	٦٥,٧	٦٨,٦	٦٠	٦٠	٦٤,٢
١٣٩٧	٦٤,٢	٦٤,٢	٦٤,٢	٦٦,٦	٦٣,٣	٦٣,٣	٦٤,٤

شكل (١٠) : نسبة التربية الإسلامية واللغة العربية في المرحلة الابتدائية في المملكة

طبيعة الصفوف الثلاثة الأولى
" الأول والثاني والثالث "

وما أريد الوقوف عليه ، هو طبيعة الخطة الدراسية في الصفوف الثلاثة الأولى من هذه المرحلة ، التي تضم المواد موزعة على النحو التالي في ضوء خطة ١٣٩٧ ، والتعميمات المعدلة لها . بالمقارنة بعدد الحصص في هذه الصفوف (٨٤ حصة)

المادة	الدين		اللغة		الرياضيات		العلوم		الرسم		البدنية		السلوك		المجموع	
الفصل	ف١	ف٢	ف١	ف٢	ف١	ف٢	ف١	ف٢	ف١	ف٢	ف١	ف٢	ف١	ف٢	ف١	ف٢
عدد الحصص	٢٥	٢٧	٣٠	٢٩	١٠	١٢	٤	٥	٦	٥	٧	٦	٢	-	٨٤	٨٤
٪	٢٩,٨	٣٢	٣٥,٧	٣٤,٥	١١,٩	١٤,٣	٤,٨	٦	٧,٢	٦	٨,٣	٧,٢	٢,٣	-	١٠٠	١٠٠

شكل (١١) : المواد الدراسية ونسبة وجودها في الصفوف الأولية

وينبغي أن نأخذ بعين الآعتبار ما يلي :

١ - أن هؤلاء الأطفال قريبو عهد بحياة المنزل ، كثيرو الالتصاق بالأسرة ، شديدو التعلق بالأم والأخوة ، ومعاهد الطفولة ، وأننا نعاملهم من خلال هذه الخطة كالطلاب الكبار .

* زمن الحصة الموحد في كل المراحل .
* عدد الحصص ست حصص يومياً ، مع ما يلحق ذلك من حصص النشاط والفسحة وطابور الصباح .
* فيكون دخولهم وانصرافهم ونظامهم اليومي في المدرسة كغيرهم من الطلاب في مختلف المراحل ، من غير أن يؤخذ في الاعتبار حاجاتهم النفسية والجسمية .

٢ - أن الهدف في هذه الصفوف هو التركيز على الأساسيات ، والمناهج الرئيسة ، وجعلها المحور الأساسي لنشاطات التعليم التي ينطلق منها إلى غيرها ، وهذه الأساسيات تدور حول العقيدة واللغة والرياضيات .

٣ - ميل الطفل إلى التعلم عن طريق الممارسة واللعب والعمل الجماعي ، ولاشك في أن فرض التعليم على التلاميذ ، واتباع الطريقة الإلقائية ، والاهتمام بالنظريات والتجريد تؤدي إلى فقدان الدافعية ، وانخفاض التحصيل ، وقلة الإقبال على المدرسة والدراسة والمدرسين .

<u>وعليه يجب</u> :

١ - المرونة في زمن الحصة ، بحيث تراعى فيها قدرة الأطفال على التركيز والمتابعة . وليس من الضروري أن تكون " ٤٥ دقيقة " سواء تحققت الفائدة أم لم تتحقق .

٢ - تطبيق أساليب تتيح للتلميذ أن ينهي دراسة مادة من المواد في وقت أقل حسب تحصيله واستعداده ، وعدم ربطه بغيره ، أو بخطة معينة ، وهذا يقتضي تيسير انتقال الطفل إلى صف أعلى إذا كان مستواه يسمح بذلك دون التقيد بمواعيد الاختبار (١)

٣ - تخفيض الخطة الدراسية في هذه الصفوف ، حتى لا يكلف الأطفال البقاء في المدرسة هذا الوقت الطويل (نحو ست ساعات يومياً) ، كغيرهم من الكبار ، مما يستنفد قواهم ، ويرهق طاقتهم ، فيعود أكثرهم إلَى المنزل في حالة من الإجهاد والإرهاق .

---

(١) قضايا ومشكلات في المناهج والتدريس ص٢٢ . د. حسن مختار . مكتبة الطالب الجامعي . مكة ١٤٠٦/١ .

وليس ثمة ما يمنع من انصرافهم في فترة مبكرة لمن كانت ظروفهم تسمح بذلك ، كما في القرى والمنازل القريبة ، أو عند توفر وسائل النقل . ففي اليابان ، يسمح للأطفال الأصغر سنا بالحضور في الفترة الصباحية فقط (١) .

ويجب أن توفر المدرسة من المناشط ما يملأ فراغ التلاميذ الذين يوثرون البقاء في المدرسة أو تدعو ظروفهم إلى البقاء وقتاً أطول .

٤ - زيادة حصص التربية الفنية والرياضية والألعاب ، واستثمارها لخدمة المواد الدراسية لأنها من المناشط المحببة للتلاميذ ، ولا يلزم أصلاً أن تدخل في خطة الدراسة أو تحتسب ضمن عدد الحصص

٥ - دمج المواد المتجانسة التي تشترك في الطريقة والهدف ، كالقراءة والأناشيد ، إذ تعد الأناشيد في وسط موضوعات القراءة وسائل تنويع وتنشيط .

٦ - اتخاذ اللغة العربية بما فيها من فروع محوراً لتعليم موضوعات الفقه والتوحيد (وكذا العلوم والصحة) ، فقد لوحظ قلة مضمون هاتين المادتين ، ومعظم ما يعرض فيهما مكرر من سنة إلى أخرى ، فضلا عن أن الممارسة والقدوة هما الجديرتان بالاهتمام ، وهذا يقتضي توفير المرونة في المنهج مما يساعد على التطبيق العملي .

٧ - أن تصبح حصص القرآن الكريم أربع حصص ، دون أن يمس ذلك حجم المقرر الدراسي ، فالطفل في هذه المرحلة يميل بطبعه إلى الحفظ ، ولديه قدرة على الاستظهار ، ويمكن الاستفادة من ذلك في تغليب الحفظ على التلاوة - علما أن كثيرا من المدرسين في الخطة القائمة يلجأ إلى التكرار والإعادة بلا مسوغ لفائض الزمن .

٨ - يمكن أن تضاف مادة باسم التهذيب والأخلاق بدل العلوم والصحة ، وتضم المادة الجديدة التوجيه إلى القيم والفضيلة ومظاهر السلوك الحميد ، وأصول العلاقات الأسرية والاجتماعية ، وطرق السلامة من الماء والنار ، والكهرباء ، وعبور الطريق ، وغير ذلك . وتكون بمعدل حصة في الأسبوع ، وهو ما يعرف في النظام الأمريكي بمقرر (تربية القيم - Valueseducation) . وتقدم اليابان ساعة

(١) التربية في اليابان المعاصرة ص٤١ .

في كل صف من صفوف المرحلة الابتدائية الستة تحت مصطلح (التربية الأخلاقية) ، فلا يصل الأطفال إلى نهاية المرحلة الابتدائية حتى يكون معظمهم قد اكتسب صفات خاصة بتعلم النظام ، وضبط النفس والتعاون ، في الوقت الذي يكونون فيه قد حصلوا قدرا عظيما من المعلومات والمعرفة (١) .

٩ - تكون الخطة المقترحة في الصفوف الثلاثة الأولى من المرحلة الابتدائية على هذا الأساس في حدود (٢٤) حصة أسبوعية ، موزعه على محاور : القرآن الكريم و اللغة العربية و الرياضيات والتهذيب ثم الرسم و الرياضة .

الدراسة الفصلية

يضم العام الميلادي ، الذي تسير عليه مواعيد الدراسة عادة (٥٢) أسبوعا ، ونظام الفصلين الدراسيين المعمول به في أكثر البلاد لا يستغرق من هذه الأسابيع إلا نحو (٣٠) أسبوعا ، ويبقى (٢٢) أسبوعا تستغل في عطلة الربيع الانتصافية، وينفق منها على عطل أخرى ، ويبقى فائض طويل من الوقت ، يقدر بنحو (١٥) أسبوعا للعطلة الصيفية . . يبقى الطلاب في أثنائها في فراغ كامل يقتل فيه الوقت ، ويهدر عمر الشباب ، ولايجدون شاغلا يشغل أذهانهم وأجسامهم ، فتكثر المشكلات ويشيع الضجر ، ويشكلون للأسرة وللمجتمع عبئا ثقيلا ، ولهذا تلجأ الجهات المسئولة إلى امتصاص طاقاتهم المتفجرة بتنظيم الرحلات ، وإقامة المعسكرات ، وإنشاء المراكز الصيفية، انطلاقا من الإحساس الفعلي بوجود فراغ يحتاج إلى شغل ، ووقت يحتاج إلى عمل ، ولماذا كل هذا ؟

والدول تتنافس في استغلال الوقت واستثمار كل ثانية لبناء الشباب ، وتنمية قدراتهم ، ففي التقرير المقدم من اللجنة المكلفة لدراسة أوضاع التعليم في أمريكا تحت عنوان «أمة معرضة للخطر» ، اتضح (٢) :

" أن الطلاب الأمريكيين يقضون وقتا أقل من غيرهم في الدراسة، بالمقارنة مع الأمم الأخرى ، ففي انجلترا ، وفي بلاد صناعية أخرى ، يعتبر عاديا أن يقضي

(١) السابق ص٤٢ - ٤٣ وقد اتجهت الوزارة هذا الاتجاه فيما أجرته من تعديل في خطة الصف الأول ، فأدخلت حصتين في الصف الأول تحت اسم (السلوك والتهذيب) ولكنها قصرتها علي الفصل الأول منه ، ولم تصل بها إلى الفصل الثاني أو إلى الصفوف الأخرى.

(٢) أمة معرضة للخطر ص٣٤ د. يوسف عبد المعطي . مكتبة التربية سنة ١٤٠٤ .

طالب الصفوف العليا في المدرسة الثانوية ثماني ساعات يوميا في الدراسة بالمدرسة ، ولمدة (٢٢٠) يوما كل عام دراسي ، بينما نجد العكس في الولايات المتحدة الأمريكية فإن المعتاد أن يكون اليوم المدرسي لمدة ست ساعات ولمدة (١٨٠) يوما فقط كل عام دراسي "وفي اليابان تعمل المدارس في التدريس مابين (٢٤٠) إلى (٢٥٠) يوما كل عام ، وهذا بوضوح معناه أن اليابانيين يحضرون إلى المدرسة فترة أطول من الأمريكيين بنسبة مقدارها ٢٥٪ .(١)

والدول النامية، ومنها العالم العربي والإسلامي، وهو بصدد بناء قوته، وتوطيد شخصيته، واسترجاع حضارته، وإثبات وجوده أحوج ما يكون إلى استثمار الوقت ، وبعث طاقات الشباب، والتعجيل بإعداد الأيدي العاملة، وامتصاص المعرفة العالمية المتدفقة، مع التقليل من الإنفاق والحد من تبديد الزمن . وكل ذلك يقتضي أن تتم الدراسة في ثلاثة فصول ، تستغل فيها كل أيام العام الدراسي ، وتوزع بين الدراسة والراحة والاختبار ، ويمكن أن نتصور ذلك على إحدى الصورتين التاليتين :

الصورة الأولى :

الفصل الأول = ١٥ أسبوعا + ٢ عطلة = ١٧
الفصل الثاني = ١٥ أسبوعا + ٢ عطلة = ١٧
الفصل الثالث = ١٥ أسبوعا + ٢ عطلة = ١٧
المجموع = ٥١ أسبوعاً

ويبقى أسبوع يضاف إلى الفصل الأخير ، أو يجعل للمناسبات الطارئة .

الصورة الثانية :

الفصل الأول = ١٤ أسبوعا + ٢ عطلة = ١٦
الفصل الثاني = ١٤ أسبوعا + ٢ عطلة = ١٦
الفصل الثالث = ١٤ أسبوعا + ٢ عطلة = ١٦
المجموع = ٤٨أسبوعاً

ويبقى أربعة أسابيع إضافية لاحتمال الطوارىء ، واستيعاب عطل الأعياد والحج وغير ذلك .

وسيضمن ذلك :

١ - التعجيل بإعداد الشباب للمشاركة في البناء والإعمار، وتقديم الأيدي العاملة ،

(١) التربية في اليابان المعاصرة ص٣٨ .

وتلبية احتياج الوطن في مختلف المجالات .

٢ - اختصار سنوات الدراسة إلى الثلثين .

٣ - امتصاص المزيد من المعارف ، وتوسيع المناهج بها ، ومواجهة الانفجار المعرفي المتدفق و تقديمه للطلاب ، بينما تضيق المناهج الحالية بما فيها لأن المدة محدودة .

٤ - مواكبة التقدم العلمي في مختلف المجالات العلمية والتكنولوجية ، لتحقيق النمو الحضاري .

٣ - امتصاص المزيد من المعارف ، وتوسيع المناهج بها ، ومواجهة الانفجار المعرفي المتدفق و تقديمه للطلاب ، بينما تضيق المناهج الحالية بما فيها لأن المدة محدودة .

٤ - مواكبة التقدم العلمي في مختلف المجالات العلمية والتكنولوجية ، لتحقيق النمو الحضاري . والتوسع في المعاهد المهنية ، والتطبيقية .

٥ - استغلال الوقت استغلالا بناء ، في خدمة المجتمع خصوصاً أن الموضوعات التي نقدمها حاليا للتلاميذ تتسم بالتكرار ، ولا تمت بصلة وطيدة إلى حياة التلميذ وبيئته (١) .

٦ - التقليل من مشكلات الشباب ، ومصادر الانحراف والفراغ .

٧ - يعتبر التعليم المصدر الأساسي لتوفير قوى بشرية متدربة فنيا ، وعلى مستويات مختلفة ولتنفيذ الخطط المرسومة ، التي تسعى الدول النامية بكل جهد لأن يكون تحقيقها مطابقا لأهدافها ، وطموحات شعبها " . وفي هذا التنظيم الدراسي ما يساعد على ذلك .

ولنا قدوة حسنة بالنظام التعليمي في اليابان - وهي ما هي من التقدم والانتاج . إذ يشغل العام الدراسي العام كله . فيبدأ العام الدراسي في اليوم الأول من إبريل من كل عام ، وينتهي يوم (٣١) من مارس من العام التالي ، وتعمل المدارس الابتدائية والمدارس المتوسطة (وبعض المدارس الثانوية) عادة على أساس النظام الفصلي ذي الفصول الثلاثة (Trimester System) حيث يبدأ الفصل الدراسي :

الأول : من بداية شهر إبريل حتى منتصف شهر يوليو .

الثاني : من شهر سبتمبر حتى أواخر شهر ديسمبر .

الثالث : من شهر يناير حتى نهاية شهر مارس (٢) .

ويلاحظ أن بداية العام متصلة بآخره ولا يفصل بينهما بعطلة .

والله ولي التوفيق .

---

(١) انظر قضايا ومشكلات في المناهج والتدريس ص ٢٢

(٢) التربية في اليابان المعاصرة ٣٧ -٣٨

الغربة والشوق والحنين إلى الوطن في شعر ابن حجر العسقلاني

محمد يوسف أيوب

تعريف موجز بابن حجر :

سطع في القرن التاسع الهجري نجم في سماء الثقافة الإسلامية ، فملأ الدنيا وشغل الناس ، إنه الإمام أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني ، لقبه شهاب الدين ، وكنيته أبو الفضل وشهرت ابن حجر العسقلاني .

ولد في القاهرة سنة (٧٧٣هـ) وكان أبوه عالما ، ولكنه توفي وابنه أحمد مازال صغيرا ، فعاش في وصاية (الزكي الخروبي) و (ابن القطان) وظهرت عليه مخايل الذكاء والفطنة منذ نعومة أظفاره ، فحفظ القرآن الكريم وعمره تسع سنوات كما حفظ مختصرات العلوم المشهورة في عصره ، وصلى التراويح إماما في الحرم وعمره ثنتا عشرة سنة ، كما سافر إلى جميع مراكز العلم المشهورة في ذلك الزمن ، فقد سافر إلى الحجاز واليمن والشام أكثر من مرة طلبا للعلم ومقابلة العلماء ، وفي مصر تبوأ أرقى المناصب العلمية حيث كان قاضي القضاة ، ونال أرقى الألقاب العلمية : أمير المؤمنين في الحديث ، والإمام ، والثبت ، وشيخ الإسلام ، حتى أصبح لقب (الحافظ) عندما يطلق دون تقييد فالمقصود به هو ابن حجر العسقلاني في عرف المحدِّثين حتى عصرنا الحاضر .

ابن حجر شاعراً :

اشتهر ابن حجر بين الناس محدّثا ومفسرا ومؤرخا ، ونسي شاعراً كان في عصره يشار إليه بالبنان ، ويتخذه الشعراء حكما بينهم ، وقد نظم ابن حجر ديوان شعر كبيراً اختصره في ديوان قسمه سبعة أقسام : (النبويات - الملوكيات - الأميريات - الغزليات - الموشحات - الأغراض المختلفة - المقاطيع) . وقد طبع المختصر في الهند وأخطأ محققه حيث نشره على أنه ديوان ابن حجر ، وكذلك فعل محققه في مصر ، وقد حصل الخطأ لأن المحققين لم يطلعا على مخطوط الديوان الكبير ، فنشرا المختصر على أنه ديوان ابن حجر الذي يجمع كل شعره ، وقد قمت بتوفيق من الله تعالى بتحقيق المختصر تحقيقا علميا اعتمدت فيه على تسع نسخ منها اثنتان من الديوان الكبير ونشرته باسمه الحقيقي : (السبع السيارة النيرات) أما الديوان الكبير فلم يطبع حتى الآن وهو بحاجة إلى تحقيق . وسوف أتناول في هذه المقالة جزءا من شعر ابن حجر وهو شعر الشوق والحنين إلى الوطن وذلك لأنه أجمل ما قال ابن حجر من شعر .

الشوق والحنين إلى الوطن والأهل

إن حب الوطن لا يعادله حب ، فقد نشأ الإنسان على ترابه ، واستنشق عطر هوائه ، وشرب لذيذ مائه ، وتغذى بالطيب من غذائه ، فأصبح حبه يجري مجرى الدم في العروق . ولكن قد تفرض الظروف في بعض الأحيان على الإنسان أن يغادر وطنه إلى غيره من الأوطان . فيبدأ الحنين إلى الوطن الأم يأخذ بشغاف القلوب .

لقد حن الشاعر العربي لوطنه منذ كان الشعر والشعراء ، فسفح الدمع غزيراً لفراق الأحبة والديار ، وما الوقوف على الأطلال إلا نوع من أنواع الحنين ، واستمر ذلك الشوق إلى الوطن استمرار الشعر والغربة والبعد عن الأحبة ؛ وذلك لأن الشعر لغة القلب والعواطف والانفعالات والقلوب لا تعترف بكل ما في هذا العالم من مصطلحات جغرافية وحدود مصطنعة ، فهي تحلق بأجنحة من نور فتقطع آلاف الأميال بطرفة عين ، فكل السهول والأنهار والصحاري والجبال بلغة القلب لا تعني إلا لحظة واحدة ، يندفع القلب في شوق لهيف إلى الأحبة يناجيهم ويناغيهم ويأخذهم بالأحضان .

وابن حجر العسقلاني مر بتجربة الغربة عن الأهل والوطن فظهر صدى ذلك الحنين في شعره في صورة واضحة جلية ، وكان هذا النوع من الشعر من أجمل وأصدق ماقاله ابن حجر من شعره ، وقد قال أكثره في بلاد اليمن ، حيث كان يسافر إلى هناك ليمدح ملوكها وينال عطاياهم ، وكان كثيرا ما يضمن قصائد المديح حنينه إلى أهله ووطنه ، وقد أفصح ابن حجر أكثر من مرة عن سبب غربته وفراقه الأهل والوطن ، فذكر أن السبب هو السعي من أجل الرزق ، فضيق العيش لقلة ما في اليد جعله يغادر الوطن ليوسع على أهله سعيا في الأرض بعيدا عن الأحبة :

فوالله مافارقتهم عن ملالة	وهل مل ظام موردا فيه يشرع؟
ولكنّ ضيق العيش أوجب غربتي	وسعيي لهم في الأرض كي يتوسعوا
فإن يسر الله الكريم بلطفه	رجعت ومثلي بالمسرة يرجع
فيا عاذلي رفقا بقلبي فإنه	على دون من فارقت يبكي ويجزع
أغب مزاري أحمل الثقل عنهم	وأخضع والأيام ليست لي تخضع

وبذلك نجد شاعرنا لم يكن راضيا عن فراق الأهل والأحبة بمصر ، حيث استعاض بهم في اليمن همّا وحزنا ونصبا ولوعة ، وإنها لصفقة خاسرة لمن ترك مصر وماء النيل العذب ليضرب في متاهات الصحراء ويواجه الصعاب والأهوال ، ويتبدّل بالنعيم الذي كان يعيش فيه هناك أشد أنواع الأذى والأهوال في الغربة : -

تركت شــراب النيل حلوا وباردا ... بعــدهــافكم خـدعـة لي بعـده

وفـــارقت مالا طــاقة بفــراقه وكم ... بـــــشـــــــــراب

قطعت عـيسي وواصلت السـرى ... فــمـا طرق السلوان سـاحـة بابي

مجـاهل سمـاها الجهـول معـالما ... مـهامـه في البيـداء جـد صعـاب

وكم عــقـبــات قــد تبـدل ... نعم لســقــامي بالنوى وعــذابي

وقل أن تخلو قصيدة من قصائده في الغربة من ذكر مصر ونيلها ذي الماء العذب . وتجره الذكرى إلى بلده مسقط رأسه ، وموطن صباه ومسكن أهله وجيرته وخلانه ، فيرقص طربا ، ويهتز كالنشوان بين ضلوعه ، ويبدأ بتعداد محاسن تلك البلاد :-

متى يتجلى أفق مصـر بأقمـاري ... وأروى عن اللقـيـا أحـاديث بشـار

وأقرأ آي الوصل من صحف أوجه ... مـواضع ختم اللثم فيـهـا كـأعشار

وأهتــز كـالنشـوان من فـرح اللقـا ... بلامنة عندي لكاســات خـمـار

إلى مصر واشـواقاً المصـر وأهلهـا ... تشـوق صب للنوى غـيـر مـخـتـار

ويا وحـشتي يا مصـر منك لبلــدة ... لداخلهـا بالأمـن بشـرى من البـاري

مـراتع لــذاتي ومهــد شبيبتـي ... ومــبـدأ أوطـانـي وغــايـة أوطاري

ومنــزل أحـبـابي ومنــزه مقــلتي ... ومطـلع أقـماري ومـغـرب أفكـاري

إن كل شيء في بلاد الغربة يذكره بوطنه ، فهو الغريب تتعاوره الأحزان والمصاعب والمتاعب ، ولا يحط الرحال في بلد إلا ويذكر البلد الذي هو الأمل والمرجع ، وفي سفره إلى المدينة المنورة حيث يرقد الرسول صلى الله عليه وسلم هناك ، يمر بطريق سلع ورامة فتثور كوامن الشوق في قلبه ، ويغص بأشجانه ، ويتجرع مر العذاب :

يذكـرني سلعُ ورامـة عــهـد كم ... ولكن بأشــجــاني أغص أجــرع

وقد أشبـه الدمع العقيق بفسحه ... فها هو أضحى من عيوني ينبع فها

والرياح على مر الزمان من مثيرات الشوق لدى الشاعر العربي فهي مثل قلب الغريب تطوف أرجاء العالم كله دون حواجز فلا تعرف الحدود أو القيود ، لذلك فإن الشاعر يحملها كل ما في قلبه من شوق وحب ووجد ، ويستنجد بها لتبلغ ذلك كله أهله وأحبته الغائبين عن عينه ، الساكنين في قلبه :

فيا نسمات الريح بالله بلغي　　　سلامي على روحي المقيمة في داري

حتى إن تلك الرياح عندما تهب من صوب الأحباب فإن طعمها ورائحتها تختلف عن غيرها من الرياح ،فهي قادمة من عند الأهل والأحبة ، تحمل معها عطر أنفاسهم ، فتصبح مضمخة بالطيب والعطر ، فواحة بالمسك :

تهب نسيمات الشمال بأرضها　　　فينشق منها الأنف جونة عطار

وعندما تهب تلك الرياح القادمة من عند الأهل نحو الشاعر يهتز من نشوة العطر الفواح ،ويغلو في عشقه ، ويتذكر أيام صباه :

يستنشق الريح من تلقائهم فإذا　　　هبت شمالا غلا في عشقه وصبا

ويشتد به الشوق والحنين عندما يتذكر زوجه (زين خاتون) تلك الزوجة الصابرة المصابرة مع طفلتها الصغيرة الرضيعة ، حيث تركهما هناك وحيدتين تقاسيان مر العذاب ؛ فتنطلق الصرخة مدوية من أعماقه في ساعة حسرة ويأس وندم : أأعود إلى تلك الديار لألتقى بزين خاتون وطفلتي الرضيعة ، تلك الوردة الجميلة المتألقة ؟!

ترى هل ألاقي (زين خاتون) بعدما　　　بنا السكنى وعـــاد المودع؟
وهل ألتقي تلك الطفيـلة فرحة　　　قريبا كما فارقتها وهي ترضع
صغيرة سنٍّ نابها أمر فرقتي تناءت　　　فمن أجلها سن الندامة يقرع

لقد عاش الشاعر في صراع مرير بين الماضي والحاضر والمستقبل ، فالماضي مملوء بالسعادة والمسرة والهناء بين الأحبة في الوطن ، والحاضر عابس يائس حزين يحمل بين طياته الغربة والتشرد والشقاء ، أما المستقبل فهو مجهول ولا يعلم الغيب إلا الله ولكن الإنسان يعيش على الأمل ولولا الأمل لبطل العمل . لذلك فإن ابن حجر يعلل النفس بحياة سعيدة بين الأهل مرة ثانية ، فهل يتحقق له ذلك قريبا ، فيعيش

ذلك المستقبل السعيد المرتقب ؟ :

عـاد المتـيم شـوق كـان قـد ذهبـا ... وزاد في قلبـه طول النوى لهـبـا
صب قـريب الأمـاني في البـعـاد إذا ... تذكـر الهـاجـرين الجيـرة الغـيـبـا
أيامـه وليـــاليـه مـقـسـمـة ... أن يلتقي السـهـد فيها أويرى الحربا
هل عـائد والأمـاني لم تزل عـرضـا ... للقلب من جوهر الأفـراح مـا

ويقف الشـاعـر لحظة الفـراق والوداع وهي من أصـعب اللحظات عندمـا يتـذكـرها الإنسـان في الغربة . أو مـا تراه يتذكر دموع الأحبة حرّى كـاوية ، وخفقات القلوب المحبة على مغادرة مساكنها ؟! فمن القلب مسكنه وملاذه ومأواه ، فمن الصعب أن يغـادره بسهـولة ويسـر . ولذلك فإن الشـاعـر يقرع سن الندامة على فـراق من سكنوا القلب والعين ، لقد نفد صبره ، ومن تلك الحياة المرة :

تطابق عندي الحـــزن لما بعـــدتم ... بقـرب لأعـداء وبعـد لأحـبـاب
ومما شــجــاني أنني يوم بينهم ... وهبت رقـادي والصـبـاح لنهـاب
ولما تولـوا ســـرت أتبـع إثرهـم ... وأدمع عـيني عنهم كن حـجـابي
أسـارقـهـم باللحظ من حـذر العـدا ... ومـا كنت فـيـهم قـبل هذا بمرتاب
وأقـــرع سني إذ تولوا ندامـــةذهبـا ... وسـيف اصـطـبـاري بعـدأن رحلوا

وفي لحظات الضعف الإنساني تضيق الدنيـا في عيني الشـاعـر ويظن أن لا مخرج له من هذه الحـال ، فدون المرام مسـافات طويلة ومصاعب جمة . ولم يكن ابن حجر يعلم ما يخبيء لـه القـدر بمصـر من سعـادة ومسرة ، وعـز ومقام كـريم ، ولكن هكذا الإنسـان دائمـا (إذا مسه الشـر جزوعـا)، فهـو كـتلة من المشـاعـر والانفعـالات يتأثر بالساعة التي هو فيهـا ، لذلك فهو لا يعدّ أيام الغربة من حياته لأنها تحمل بين طياتها كل الحزن والمرارة والألم :

نابيمـحب لكم من هجـركم يتـوجع ... نديماه مـــذغـبــتـم أسى وتفـــجع
سـرى نفسـا عنكم فـأضـحى ونفسـه ... تذوب جـوى من طرفـه فـهـي أدمع
أأحــبـابنا حـتى الخـيـال قطعـتم ؟ ... عـــذرتكم بل مــقلتي ليس تهـجع
عسى أن يعود الوصـل قالت عـواذلي ... وكم ذا أمـاريهم وهـيـهـات أن يعـوا
نـعم إن أعـش عــاد الوصـــال مـهنأً ... ومن ذا الذي في البين في العـيش يطمع

لقد كانت حياة ابن حجر سفرا مستمرا ، فهو في تنقل دائم بين مصر والحجاز واليمن والشام ، وعندما سافر جيش السلطان إلى بلاد الشام لردع المغول اصطحب معه ابن حجر . وعندما ابتعد الركب عن مصر وسار إلى بلاد الشام ، حن الشاعر إلى أهله وأحبابه فقال :

كل يوم يمضي أقول تقضى البين فأزداد بالرحيل البعادا
فمتى تنقضي بنا مدة التر حال حتى ألقى بسعدي

إنه يعيش دائما في غربة يمشي في اتجاه معاكس ، وكلما مشى وسافر يزداد بعداً، وكلما ازداد بعدا ازداد شوقا وحنينا إلى الأحبة ، فكلما أسفر صبح وأظلم ليل وجد نفسه وحيدا رفيقا للحزن والهم :

كلما أسفر النهار وجن الليـ ل أزداد لوعة واشتياقا
كيف لا والديار تبعد كلما سرت أو بعدت فراقاً

وفي سفره إلى بلاد الشام يتزوج بامرأة أخرى اسمها (ليلى) ، وبعد انتهاء مدة إقامته تلك يعود إلى مصر ويخير زوجته تلك بين البقاء في بلادها أو اللحاق به إلى مصر ، فتختار اللحاق به . . . وتتأخر فترة قصيرة من الزمن فيحن إليها قائلاً :

رحلت وخلفت الحبيب بداره برغمي ولم أجنح إلى غيره ميلا
أسائل نفسي بالحديث تعللا نهاري وفي ليلي أحن إلى ليلى

وقال فيها كذلك :

قف واستمع طربا فليلى في الدجا باتت معانقتي ولكن في الكرى
وجرى لدمعي رقصة بخيالها أترى درى ذاك الرقيب بما جرى

وبذلك نرى أن ابن حجر كان شديد الحب لوطنه شديد الشوق للقاء أهله وأحبته ، وأن شعره في الشوق والحنين كان صادق العاطفة ، يعبر عما يعانيه الشاعر من العذاب والآلام والمرارة ؛ لذلك جاء قطعة من قلبه الذي اكتوى بنار الغربة عن الأهل والوطن مصبوغا بالدمع بدليل هذا الالتياع والحزن الذي كان يعانيه وهو غريب معذب ، فكان قريبا من قلوبنا ومشاعرنا ، وجعلنا نعيش مأساة الغربة بكل أبعادها ونختم هذه المقالة بهذين البيتين دون تعليق :

اشتاقكم شوق العليل إلى الشفا ودياركم في كل يوم تبعد
أود طيف خيالكم لو زارني لكن عيني بالكرى لاتسعد

مصادر التاريخ الإسلامي ونقد الروايات

د. عبد الرحمن الفريح

يقوم موضوع التاريخ على الإنسان والزمان بمسائل قوامها أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان ، وبمعنى آخر هو دراسة العناصر الحركية في المجتمع ، ومن هذه التعريفات في المراجع التاريخية الحديثة وهي مستقاة مما أشار إليه القدماء فإن كتب السيرة والمغازي والأنساب تدخل في عداد الكتب التاريخية .

وفكرة الوقت وتحديده هي المعنى الأولى للتاريخ وقد أرخ أو ورخ المسلمون على اختلاف في اللغة المضرية في خلافة عمر رضي الله عنه . . وورد أن أصل التاريخ الإسلامي مأخوذ من العربية الجنوبية ، وإن يعلى بن أمية الحنظلي عامل عمر على اليمن كتب إليه كتابا مؤرخا . . ومع وجود آراء أخرى بخلاف هذا فقد أيد هذا القول بكون أولئك القوم ذوي اهتمام بأمر التوقيت لعامل الاشتهار بالزراعة ، وعامل الشعائر الدينية ، وأيضاً عامل التجارة في البر والبحر (١) .

وإذا كان تدوين الدواوين ، ووضع الأخرجه ، وسن القوانين احتاج إلى تأريخ في الإسلام فإن كلمة تاريخ تطورت من التقويم والتوقيت إلى تسجيل الحوادث على أساس الزمن ثم حلت محل الخبر بعد أن كان يقوم مقامها بمعنى العملية التاريخية . . وصارت تطلق على عملية التدوين التاريخي ، وحفظ الأخبار فالعلم بحوادث التاريخ وأخبار الرجال والكتب التي تبحث في ذلك . . وورد في النقوش الجنوبية ورخ وجمعها أورخم بمعنى الشهر القمري ، وبظهور الكتب التاريخية وأقدمها تلك الكتب التي تتعرض لسنوات الميلاد والوفاة لبعض الشخصيات أصبح التاريخ فناً يُبحث فيه عن وقائع الزمن من حيثية التعيين والتوقيت .

وكانت حمير وكهلان تؤرخ بالتبابعة وسيل العرم وظهور الحبشة وإزالتها وغلبة الفرس . . وتؤرخ العدنانية بهلاك جرهم بالحرم وبتفرق ولد نزار ، وبمأقط ، وبحجة الغدر بين يربوع بن حنظلة واليمن قبل الإسلام بـ ١٥٠ عاما ، و أيام البسوس ، وجبلة ، والكلاب .

(١) السيدعبدالعزيزسالم :التأريخ والمؤرخين العرب

وباستعمال كتب الحوليات لكلمة " تاريخ " تطور معناه إلى ما سلف الإبانة عنه ومن هذه الكتب : تاريخ الأمم والملوك للطبري ، وتاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصبهاني . . أما البداية التدوينية فقد اهتمت بالسيرة النبوية في موضوعاتها وبالمغازي ، ونسب قريش وتراجم رجال الفقه والحديث . . فارتباط التاريخ الوثيق بالعلوم الدينية تفصح عنه تلك الاهتمامات الأولى . . . وكان من رأي كثير من علماء المسلمين أن العناية بالتاريخ ضرورة لخدمة العلوم الدينية . . . وعرفت الدراسات المتقدمة لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمغازي وتعني لغوياً دراسة أعماله الحربية .

وبهذا الإلماح الموجز مما ورد في البحوث العلمية عن التاريخ وأنه تحقيق عبرة تختزل لنا التجربة ، وميدان تطبيق القيم على الواقع ، وما يتطلبه من قدرة على الفهم والتحليل والتعليل والموازنة والمقارنة فإن هذا الوعاء للفعل الحضاري أحد موارد التكوين الثقافي قد نظر فيه أهل الاختصاص قديما على أنه موطن الاستقراء والاستنتاج ومعرفة سنن السقوط والنهوض والتعرف على القوانين التي تنظم الحركة التاريخية للإفادة من التجارب ، فعند السخاوي في كتابه الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ أنه غزير النفع كثير الفائدة بحيث يكون من عرفه كمن عاش الدهر كله وجرب الأمور بأسرها وباشر تلك الأحوال بنفسه ، وإن حوادث التاريخ عبرة وموعظة ودرس وتجربة تقف الدراس على عثرات الماضين وأسباب انقراض الدول والحضارات وتدفع أصحاب المثل إلى الإقتداء بالشخصيات . . . والتاريخ لسان يخبر به الزمان عن عجائب الوقائع بل أستاذ يقرر الحوادث ليعيها السامع .

واقترن حديث ابن خلدون عن علم التاريخ برؤية نقدية لمغالط وأخطاء المؤرخين بعد أن ذكر فن التاريخ ، وفضائله ، وتحقيق مذاهبه وانه عزيز المذاهب ، جم الفوائد ، وشريف الغاية على أن تعميمه في اقتصار المؤرخين على سرد أسماء الملوك ، ووصف المعارك ، وإهمال الأحوال الاجتماعية الفاعلة في سير التاريخ ليس على إطلاقه إذ إن جمهرة من المؤرخين كتبوا في جوانب الحياة الدينية والثقافية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، مما يعد توجها حضاريا لم يقف عند حد السياسة

والحروب ، ومعرفة تاريخية في ممارسة التدوين .

وفي منهج ابن خلدون أن من الأخطاء والمآخذ أن أئمة النقل لم يعرضوا الحكايات والوقائع على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم البصر والبصيرة ، وضرب مثلا في البعد عن الواقعية في سرد الحقائق التاريخية والإعراب في الخيال إلى حد تزييف الخبر وتشويهه بما يذكر في أخبار التبابعة وخروجهم من قراهم باليمن إلى بلاد المغرب وأن افريقيش من أعاظم ملوكهم الأول في عهد موسى على حد قول المؤرخين وأنه غزا أفريقية وبه سميت وأنه أثخن في البربر وأنه هو الذي سماهم بهذا الاسم وأبقى جماعة من حمير تنتمي إليها صنهاجة .

وعرض ابن خلدون للطبري وسيف بن عمر والواقدي والمسعودي وانتقد الواقدي والمسعودي ، وساق شواهد تاريخية من أخبار المسعودي ظهر فيها الاعتماد على النقل دون تحكيم العقل كبناء الإسكندرية ، وكخبر تمثال الزرازير في روما ، وردّ ما ذكره المسعودي عن عدد جيش بني إسرائيل وكثرته مستشهداً بما ذكره سيف عن جيش الفرس في القادسية وأن بني إسرائيل لم يصلوا في يوم من الأيام إلى حجم دولة فارس التي حشدت أكبر قوة لها في تلك المعركة ولم يصل عدد جيشها إلى نصف ما ذكره المسعودي عن جيش بني إسرائيل . . . والتاريخ عند ابن خلدون علم من علوم الفلسفة موضوعه الاجتماع الإنساني فهو يقتضي تعليل الحوادث وربط بعضها ببعض مع تمييز الخبر الصادق من الخبر الكاذب مع الترجيح بين الأسباب . . . وهو يصف التطور في البيئة الاجتماعية بكل ما فيها من سياسة وحرب وصناعة وتجارة وعلم وفن وحركات اجتماعية عامة أو دينية أو اقتصادية أو فكرية . . ويتساوى في فهمه العلماء والجهال من حيث ظاهره لكنه في باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ؛ فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق ، وجدير بأن يعد في علومها وخليق .

والكذب متطرق للخبر بطبيعته بسبب التشيعات للآراء والمذاهب وإذا كانت النفس على حالة من الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى

تتبين صدقه من كذبه وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة . . وكثير من الناس يقبلون الأخبار المستحيلة ولم ينقدوها بمعرفة طبائع العمران وهو أحسن الوجوه في تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع فإذا كان الخبر في نفسه مستحيلا فلا فائدة للنظر في الجرح والتعديل . . وكثيرون من سامعي أخبار الماضين لا يفطنون لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها وأنها لا تدوم على وتيرة واحدة فيجرونها على أول وهلة على ما عرفوا ويقيسونها بما شهدوا وهذا من الجهل بالقوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية كما سلف وعدم مراعاة البيئة الزمنية والتطور في الأشخاص والأوقات والأمصار (٢) .

والمصادر التاريخية هي المصنفات القديمة في هذا المجال ، أما الكتب الحديثة فهي مراجع ، وهناك من يرى أن كلا النوعين مراجع وأن المصادر هي الوثائق الرسمية والأوراق البردية والوقفية والنقوش والآثار المعمارية ، ويرى الدكتور السيد عبد العزيز سالم أن المصادر إما مصادر أثرية كالمتقدم الإشارة إليها وإما مصادر مكتوبة كالقرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وكتب الطبقات ، والأنساب ، وكتب الجغرافية ، وكتب الرحلات ، وكتب الخراج ، والحسبة ، والخطط ، والكتب الأدبية والشعر العربي .

ومن أهم المآخذ على الكتابة العربية المبكرة للتاريخ الإسلامي هو أن بعض الروايات نحت منحى التأكيد على الحط من شأن العرب إما مبالغة في محاولة إبراز محاسن الحياة الإسلامية المغايرة لما قبلها في كثير من مناحيها ، وإما للوقوع تحت تأثير العصبية الجنسية فامتلأت كتب التاريخ بقبائح العصر الجاهلي . . وظهر في جانب آخر في الروايات الأولى منذ عبيد بن شرية الجرهمي ولع بتقسيم العرب في جاهليتهم إلى عاربة ومستعربة ونسبة المحامد إلى الأولى لغة ، وتاريخاً ، وأدبا ، وحضارة فيما يشبه الردة في عصر بني أمية إلى الحياة القديمة كأثر من آثار التمايز العربي الذي عرفه ذلك العصر لدواعٍ سياسية ، إجتماعية أو نفرة من استمرارية الخلافة بعد النبوة في قريش أو في المضرية بوجه عام .

---

(٢) عمر فروخ . تاريخ العلوم عند العرب .

ويأتي في سياق ابن شرية وهو أول القصاصين الكتبة كعب الأحبار المتقدم عليه ومن بعده وهب بن منبه وإلى الهمداني ثم نشوان الحميري .

وأمر ثالث اعترى عملية التدوين التاريخي المتقدم وهو احتضان كثير من الرواة وأهل التصنيف للقصص الإسرائيلي مما ألقى ظلالاً كثيفة من الأساطير على التاريخ الإسلامي بصفة عامة والسيرة النبوية بصفة خاصة . . وأغلب الروايات التي يتصل سندها بكعب الأحبار أو محمد بن كعب أو النعمان السبائي تحمل طابع القصص الإسرائيلي وفي أغلبه دس على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى الإسلام .

وفي المأخذ الأول اشتدت القسوة على أمة العرب حتى ليكاد الرواة يخرجون بالعرب في جاهليتهم عن الآدمية ولا يعدونهم في بني الإنسان وظهرت الأمة بلا وزن في الأخلاق حقيرة منذ بدايتها جاهلة في نشأتها ملطخ ماضيها بالسيئات وللدكتور إبراهيم شعوط معالجة جيدة لدفع هذا الافتراء . . . وفي المأخذ الأخير اعتمدت أخبار السيرة على الخوارق غير الاعتيادية وضُخِّمت صورتُها قبل البعثة بحشد عدد من الإسرائيليات مع أن كثيراً من وقائع السيرة وأخبارها ليست بحاجة إلى أن تُتكلف فيها الشروح والتفاسير والتعليقات إذ هي أوضح من ذلك . . وقد تناول هذا الموضوع الدكتور عماد الدين خليل في دراسة عن السيرة مشيراً إلى أن حاجة بعض المؤرخين إلى التكلف تناقض ما في آيات القرآن مما يكفي لرسم صورة صادقة لشخصية النبي صلى الله عليه وسلم وفيها قرائن وإشارات ودلالات عديدة تساعد على التعرف على نشأته وسيرته .

وإذا كانت النظرة المادية تقتل في السيرة روحها وتطمس شخصيتها فإن الواقعة التاريخية تتطلب دراستها بذاتها بعيدا عن الانسياق وراء الخيال القصصي الإسرائيلي والتهويل الأسطوري . . . على أن قطع الصلة بالغيب يجب توقيه عند رفض الإسرائيليات وأكثر الخوارق وحتى لا ينزلق الباحث إلى التفسير المادي للتاريخ . . وفي السيرة تطبيق لمباديء الحرب في الغزوات ومراعاة لأسباب الحيطة والحذر والاستعداد مما ينأي بها عن أن تكون بمجملها من الخوارق غير الاعتيادية .

هذا وفي مقابل تهاويل القصص الإسرائيلي قديما اشتطت الكتابات الاستشراقية حديثا بالشاذ والغريب من الروايات لإثارة الشك قال دوزي : إن محمداً كان يشاطر بني جلدته نظرتهم القائمة على احتقار اليمنيين والزراعيين وأنه سمع رجلاً ينشد بيتا يشير فيه إلى أنه حمْيري وليس أسلافه من ربيعة ولا مضر فقال : إن هذا نسب يبعدك عن الله ورسَوله ، فلما يئس من حمل أهل جنسه من التجار والبدو على اعتناق مبادئه ورأى أنه مهدد في حياته منذ مات عمه اضطر لتناسي هذه النظرة فرحب بوفد عرب المدينة الذين عطفوا عليه وأكرموه بعد اضطهاد المكيين بمعنى أنه تناسى نظرته وقبل المساعدة ، من أي طريق وهكذا بني دوزي حكماً على خبر شاذ غريب .

ومستشرق آخر يشكك في اسم النبي ويقول : إن اسمه ورد في أربع سور من القرآن هي : آل عمران ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح وكلها سور مدنية ؛ ومن ثم فإن لفظة محمد لم تكن اسم علم للرسول قبل الهجرة وإنما اتخذه بتأثير قراءاته للإنجيل واتصاله بالنصارى بمعنى أنه التقط هذا الاسم واصطفاه لنفسه ! (٣)

وإذا أنكر أحد أخبار ردة العرب بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وقال : إنها مصنوعة الحوادث ، موضوعة الوقائع ، أختُلفتْ لغرض سياسي وإنها من صنع مؤرخ الهيئة السياسية الحاكمة سيف بن عمر فَإنَه لا يمكن مناقشته في أمر الروايات التاريخية ونقدها ؛ لأن من قال بهذا مدفوع بهوى عقدي يدعوك إلى أن تقر بردة حقيقية يراها هو وهي ردة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم واغتصابهم الحق الشرعي والاستيلاء على كرسي الحكم أما ردة الأعراب فهي من افتراءات سيف على حد زعمه .

وبمثل هذا المثال تبدو فرصة دراسة الروايات التاريخية غير متاحة لأن الحكم المسبق أو نزعة الهوى تقضي عليها تماماً . . ومهما بلغ الناقد من قوة البحث والتمحيص فإنه سيدور في فلك البحوث التاريخية المحكوم عليها بالعقم . . وحتى المنهج العلمي لا يشفع لمن يدعيه إذا اتخذه وسيلة للانتقاء والاختيار لتأكيد أحكام مسبقة ، وفي دراسة في السيرة كان كيتاني ذا رأي وفكرة استعان بكل خبر ضعيف

لتأكيد حجته قال الدكتور عماد الدين خليل إنه يذكرنا بكثير من المختصين الجدد في حقل التاريخ الإسلامي الذين يعملون وفق منهج خاطيء من أساسه إذ هم يتبنون فكرة مسبقة ثم يجيئون إلى وقائع التاريخ فيستلون منها ما يؤيد فكرتهم ويستبعدون ما دون ذلك .

وقد اعتمد التدوين التاريخي في بدايته على أخبار الجاهلية إضافة إلى الأحاديث التي رواها الصحابة والتابعون عن حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبدأ تأثر أخبار سيرته قبل الإسلام بما يروى عن أيام العرب ، أما الأخبار الإسلامية عنه فتأثرت بنمط الحديث . . وفي مرحلة تالية تم ترتيب الأحاديث في أبواب فانفصل عنها ما يتعلق بالتاريخ تحت اسم المغازي والسيرة في أبواب ثم كتب . . مع إفراد المحدثين أو استمرارهم في إفراد أبواب خاصة بها في مصنفاتهم ، البخاري ومسلم وأحمد (٤)

أما ملامح النشأة التاريخية المنتظمة فتبدو فيما يمكن أن يطلق عليه اسم المدرسة المدنية وطبقتها الأولى أبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥هـ) وعروة بن الزبير (ت ٩٢هـ) وشرحبيل بن سعد (١٢٣ هـ) ووهب بن منبه (ت ١١٠هـ) . . وهؤلاء الأربعة دعامة أولى في كتابة المغازي ، وما كتبه أبان صحف تضمنت أحاديث أفاد منها من أتى بعده ،كما نقل ابن هشام وابن سعد مما جمع عروة من أحاديث وأخذ ابن إسحاق والواقدي ثم الطبري من أخباره التي ضمت المغازي وأخبار الردة في روايات قصيرة موجزة ، ولشرحبيل أخبار عن أسماء من هاجر إلى المدينة ومن اشترك في غزوة أحد . . . وجمع وهب تصانيف عروة في المغازي .

ويتبع هؤلاء طبقة ثانية يمثلها عبد الله بن أبي بكر بن حزم (ت ١٣٥ هـ) وعاصم بن عمرو بن قتادة (ت ١٢٠ هـ) ومحمد بن شهاب الزهري (١٢٤ هـ) وللأول تسجيل لبدء حياة الرسول وأخبار الوفود ، ووقائع الردة ، وأحاديث متصلة بالمغازي . . وتميز الزهري بإيضاح ملامح مدرسة التاريخ بالمدينة معتمدا على روايات عروة وبأن كتابته تطرقت لموضوعات تتصل بظهور الأحزاب السياسية والجدل بينها حول الفتنة والخلافة .

وتختم مدرسة المدينة التاريخية بطبقة ثالثة فيها موسى بن عقبة ومعمر بن راشد ومحمد بن إسحاق وهؤلاء الثلاثة تلاميذ للزهري وعن محمد بن اسحاق (ت١٥٢هـ)

نقل زياد البكائي (١٨٣هـ) أخبار السيرة ، وعن زياد هذا نقل السيرة ابن هشام (١٨٢هـ) بعد أن نقحها واختصرها ودفع منها ما شك فيه من الأخبار ، ومنحول الشعر .

لم يتقيد ابن إسحاق بما تقيد به ثقات المحدثين في التدوين ونحى في تاريخه منحى وهب بن منبه في تقسيمه إلى ثلاثة أقسام :

المبتدأ منذ بدء الخليقة ، والمبعث يختص بحياة الرسول حتى السنة الأولى من الهجرة ، والمغازي ، وانفرد عن سابقيه بجمع الحوادث وترتيبها ، وتبويبها في مصنفه ، وأخذ عليه أنه شحن تاريخه بشعر منحول انتقده عليه ابن سلام الجمحي صاحب طبقات فحول الشعراء وأن له أخطاء في الأنساب إضافة إلى كثرة النقل عن أهل الكتاب الذين يسميهم أهل العلم الأول وأنه مالأ الخليفة المنصور في أخبار تتعلق بالعباس .

على أن كتابه يعد مع ذلك مادة أساسية لسيرة ابن هشام وعنده وعند الواقدي من بعده بدأت مرحلة جديدة متميزة في التدوين التاريخي العربي . . . والواقدي واسع العلم بالمغازي والسير والتاريخ ولعله يتفوق على ابن إسحاق بدقة في المادة والأسلوب وبالربط بين المادة التاريخية وإطارها البلداني غير أن ابن إسحاق يبذه في الموضوعات الجاهلية .

وإذا كان القرآن الكريم هو المصدر الأول لدراسة التاريخ يليه الحديث وكانت بداية التأليف وثيقة الصلة بهذين المصدرين ، فإن الحركة التاريخية التي نشأت في المدينة قد اعتمدت على الرواية الشفوية كرواة الحديث ، والخبر التاريخي عمدته السماع من الموثوق بهم من الحفاظ وهذه هي طريقة الإسناد وكل جيل يستمد من الذي قبله . . والأسانيد مبالغة عند الباحثين تاريخيا ، ومنهم من يراها مبالغة محمودة ، ورواة الخبر على التتابع أو السند عنصر الخبر الأول وعنصره الثاني النص أو المتن الذي يرى ابن خلدون أن ينصب عليه النقد .

ومع أن وهب بن منبه يدرج في طبقة من طبقات مدرسة المدينة التاريخية عند الباحثين واعتمد عليه كثير من القدماء أشهرهم ابن إسحاق فإن هناك من يدرجه في سلسلة عبيد بن شرية كتصنيف موضوعي لاهتمامات إخبارية بعينها ، وكتابه التيجان يعالج موضوعات ابن شرية الثلاثة : بداية عمران العالم ، والعربية البائدة ،

وملوك اليمن من لدن يعرب بن قحطان مع زيادة في الإسرائيليات وأخبار الجزيرة .

والإسرائيليات روايات شعبية في أغلبها وكان ابن شرية يحدث بها في عهد معاوية بمثل حديث كعب الأحبار عنها وعن العربية الجنوبية بقصص أسطوري وشعر منحول على لسان عاد وثمود أصبح من المصادر الأولية للباحثين في التاريخ اليمني قال الزركلي : إن كرنكو المستشرق الألماني كتب له إنه لم يكن في يوم من الأيام هناك شخص اسمه عبيد بن شريه بمعنى أنه هو وأقاصيصه المتأثرة بالإسرائيليات من اختراع القصاصين على حد رأيه .

على أن ما نسب إليه بداية لا تنكر ذات اتجاه نحو الحياة الجاهلية القديمة وتمجيدها مع اختراعات كثيرة نمت بمرور الزمن وبجهد من أتى بعده ، أما التيجان فقد نقله الهمداني صاحب الإكليل ، والهمداني (ت ٣٣٤هـ) عالم في اللغة ، والرياضيات ولاالشعر ، والأنساب أفاد البلدانيون كالبكري وياقوت من كتابه صفة جزيرة العرب . . . وتضمن الجزء الثاني من إكليله أحاديث عن آثار اليمن ، وكنوزها ، وملوكها مع إشارة إلى بعض ملاحيات عرب الجنوب ومضر في عهد بني أمية ، أما الجزء الأول فقد احتوى على قصيدة لنشوان الحميري قدم فيها الإكليل بعد أن نقحه .

لم يسلم الإكليل من حشد من الأخبار الأسطورية وتميزت روح صاحبه بالمباهاة والمفاخرة في نسب اليمن وسلطانها قبل الإسلام ألمح بعض الباحثين إلى أن يكون ذلك من رد الفعل على مجد النزارية في الإسلام وقريش على وجه الخصوص (٥) .

ويعد ابن الكلبي من مصادر الهمداني في هذه السلسلة التي تحسب في تصنيف التاريخ المحلي أو ذلك الذي ينزع إلى إبراز الهيمنة القديمة للأذواء والأقيال والتبابعة ودعم ذلك بالمبالغات الإخبارية في مجالات الحياة السياسية ، والاجتماعية ، وظواهر اللغة بالرغم من أن التكتل الكبير للعربية الجنوبية ربما لم يعرف إلا في الإسلام (٦) ولابن الكلبي اهتمام بالأحلاف الجاهلية والمآثر ، والبيوتات ، والألقاب ، والأصنام ، والأيام ، والمثالب ، والبلدانيات . . ومع إيغاله في القصص الخيالي وما اتهم به من الكذب والوضع فإن استفادة المصادر منه على اختلاف مشاربها كبيرة جدا إلا أن الاحتراس من رواياته ينصب على أخباره عن صدر الإسلام وبخاصة عن الفتنة لما اشتهر به وأبوه من قبله من نزعة ملية متطرفة

(٥) سالم محل . المنظور التاريخي . (٦) إحسان النص . العصبية القبلية .

ولذا قال ابن تيمية : إن ابن الكلبي وأبا مخنف من أهل الوضع ، والإلحاد ، وعنهما نقل الطعن في الصحابة .

وإذا كانت قد برزت مرحلة جديدة عند ابن إسحاق والواقدي في التدوين التاريخي فإن مدرسة العراق التاريخية قد تلت المدرسة الأولى في المدينة ، وعرف الإخباريون الأوائل في الكوفة والبصرة كأبي مخنف لوط بن يحيى (ت١٤٧هـ) وهو إخباري من أهل الكوفة واضح النزعة العقدية وله تآليف عن مقتل الحسين ، وآخذ الثأر ويقصد به المختار صاحب الكيسانية الخشبية ، وتآليف في الردة والفتوح والجمل وصفين ومقتل حجر بن عدي ، وكعوانة بن الحكم وهو إخباري كوفي (ت ١٤٧هـ) كان على دراية بأخبار الفتوح مع علم بالشعر والأنساب وقيل إن موقفه كان حياديا بين الأمويين والعلويين ، وتتلمذ على يديه الهيثم بن عدي وهو إخباري مثله لم تهمله المصادر مع ما قيل من ولعه بالمعايب ، والتأليف بالمثالب . . . وتتلمذ على يدي عوانة المدائني (ت٢٢٥هـ) وهو إخباري أيضاً اقترب من أسلوب المحدثين في نقد الروايات .

ومن إخباريي الكوفة محمد بن السائب الكلبي (ت١٤٦هـ) اختص بدراسه الأنساب وورث عنه ابنه هشام ابن الكلبي (٢٠٤هـ) المتقدم ذكره هذا الاهتمام . . وظهر من أهل هذا العلم الزبير بن بكار وأبو اليقظان النسابة .

وعرف من بين الإخباريين في الكوفة سيف بن عمر (١٨٠هـ) وهو عراقي معتدل كما يقول محب الدين الخطيب ، وقد أخذ عن شيوخ الكوفة كما أفاد من الروايات المدنية ، وله كتاب عن الفتوح والردة ومسير علي وعائشة حققه الدكتور قاسم السمرائي وظهر بطبعته الثانية حديثا .

ويأتي بعد الإخباريين الأوائل المؤرخون وقد اهتم الطبري منهم بالإسناد وتسلسل الرواة شأن الإخباريين ثم تحررت الكتابة التاريخية من هذه الطريقة إلى الكتابة المرسلة ،وظهر هذا واضحا جليا عند اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) والمسعودي (٣٤٦هـ) اللذين اكتفيا بالإشارة إلى المصادر مع دراسة نقدية في بعض الأحيان كما فعل المسعودي في مروج الذهب .

على أن التحرر من الإسناد قد رافقه وأتى بعده تطور في الطريقة والأسلوب في فن الكتابة التاريخية . . . وحتى منهج الكتابة الذي كان يعتمد على ذكر الأخبار

حسب السنين وهو ما يعرف بالحوليات اتجه إلى التأكيد على أهمية القيمة الخبرية للحادثة ، ومراعاة تتابع عناصرها لاستيعاب الموضوع بعدم تجزئة الواقعة ، وكان الطبري في مقدمة أصحاب الحوليات أما ابن الأثير وهو ممن أفاد منه فقد حاول التخلص من ربط الحوادث بالسنين وإن كان قد سار عليه بأن عنون للموضوعات وتخلص من الإسناد محافظة على وحدة الحادثة الواحدة .

وفي هذا المنهج أيضاً طريقة أخرى وهي التأليف حسب الموضوعات وعلى هذا النويري (٧٣٢هـ) والتاريخ حسب الموضوعات إما تاريخ للأسر الحاكمة والدول والعهود كما فعل الدينوري في الأخبار الطوال أو تاريخ حسب الطبقات مثل تصنيف ابن سعد وأبي يعلى .

والمادة التاريخية تتنوع صورها بين تاريخ عالمي عام كالطبري واليعقوبي وآخرين كمسكويه وابن العبري والثعالبي وبين تاريخ محلي وطني كتاريخ السلامي عن ولاة خراسان وتاريخ طيفور عن بغداد، وابن حيان عن الأندلس ، وابن العديم عن حلب .

وفي علاقة الحديث بالتاريخ يلاحظ أن على رواية الحديث تبنى الأحكام وتقام الحدود فهي تتصل مباشرة بأصل من أصول التشريع وهو السنة النبوية ؛ ولذلك فإن ثقات المحدثين وضعوا رواة الحديث في موازين دقيقة بقدر الإمكان وعرفوا كل راو : تاريخه ، وسيرته ووضعوا من أجل هذا قواعد للجرح والتعديل .

وبحث المحدثون كيحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدي وابن أبي حاتم الحنظلي في الرواة وهل تلاقى الراوي والمروي عنه وبينوا مقدار درجة كل راو من الثقة ، وليس الأمر في التاريخ كشأن الحديث وموضوعاتهما مختلفة ، و كما نظر ابن خلدون في النقد التاريخي وأن التمحيص أن ينصبّ على نص الحادثة فإن المتكلمين بالغوا في محاولة إخضاع الحديث لحكم العقل وعرضه بالعلل الكلامية .

والإخباريون ضعفاء في مجملهم عند المحدثين منذ محمد بن إسحاق وللمحدثين شروطهم في المجال المشار إليه وقواعدهم في مجال النقد الحديثي لازمة لدقته ، ومع قرب الإمام الشافعي منهم فقد انتقده بعضهم كابن معين وابن عبد الحكم في طريقة الرواية .

على أن المحدثين أنفسهم زكوا كثيرا من الإخباريين في مجال التاريخ ونقلوا من أخبارهم . . . وما يظهر من اتباع منهج المحدثين في النقل عن الإخباريين لم يلتزم به

من يدعي اتباعه وإنما أراده للتأكيد على جزئية خاصة وليس منهجا عاما . . وإذا خدم غرضه بهذا المنهج أعرض عما سواه ومن يشنع على سيف بن عمر على سبيل المثال لا يطلب في أبي مخنف وابن الكلبي جرحاولا تعديلا ولا يسأل عن رواة ولا إسناد .

تحدث باحث عن شبث بن ربعي فحمل عليه بشدة ولم يكلف نفسه عناء النظر في طرق الرواية وصاحبها ، وشبث معدّل عند المحدثين وخبر هذا الباحث عن شبث عن طريق ابن الكلبي وبهذا تفضح الازدواجية في التطبيق كثيرا من أساليب من يطلبون الجرح والتعديل في سيف وحسب .

وسيف اعتمد عليه كما يقول محقق كتابه الدكتور السامرائي كثير من المؤلفين سواء كانوا من المؤرخين أو أصحاب المعاجم بل حتى أصحاب كتب الحديث كالذهبي وابن حجر وابن عساكر والطبري ، وهو عند الذهبي وابن حجر عمدة في التاريخ وإخباري عارف ، واعتمد الطبري على روايته في الفتنة مستشنعا رواية الواقدي ، وكذا فضلها ابن كثير وهو من أصحاب الأثر وترحم على سيف صاحبها .

وسيف من رجال الترمذي وفضلا عن رواية الترمذي عنه ورواية ابن حزم عنه أيضاً فإن كثيرا من المحدثين رووا أحاديث تتشابه مع أحاديث سيف في النص وتختلف معها في الإسناد ، وردت هذه عند البخاري ومسلم والدارمي وأحمد بن حنبل وابن ماجه والنسائي وضرب الدكتور السامرائي لهذا أمثلة كثيرة . . . وصحح الدار قطني اسم زهرة بن حوية السعدي قاتل الجالينوس في القادسية نقلا عن سيف وقال : إن قول سيف أصح . . وقد ورد في بعض المصادر جوية بالجيم المعجمة .

وقال السامرائي بعد أن أشار إلى عدد من المصادر والمراجع عن سيف منها بحث لأحمد عادل كمال بعنوان ((سيف بن عمر الراوية الأشهر للفتوحات الإسلامية)) : إن ابن قانع وابن هشام وابن ماكولا وابن عبد البر وابن حجر صححوا مرارا وتكرارا أسماء أصحاب الفتوح اعتمادا على مرويات سيف وإن جل الأحاديث النبوية التي وردت عند سيف موجودة بأسانيد مختلفة وطرق متشعبة في كتب الحديث المختلفة . . وإن على الباحث الجاد أن يستقصي دون هوى يعمي أو رأي مذهبي يغوي .

ومما تشير إليه بعض الدراسات أن سبب الحملة على سيف من بعض المتأخرين هو حديث سيف عن السبيئة وقد يكون هذا حقا لو كان سيف لم يُسْبَق إلى الإعلان عنها

والذي سبقه أبو مخنف الذي أفصح فيما نقل عنه البلاذري عن أن ابن سبأ هو عبد الله بن وهب الهمداني الذي كان يناقش عليا في أصعب أيام حياته عن رأيه في أبي بكر وعمر وأن عليا كتب كتابا بقيت منه نسخة عند هذا الهمداني فحرّفها .

وإلى هذه الرواية أشار طه حسين ، ونايف معروف ، وسليمان العودة ، وجميل المصري دون ذكر مصدرها الأول الذي هو أبو مخنف المتقدم على سيف .

وأشار أبو مخنف قبل سيف فيما نقل عنه الطبري إلى السبئية تاريخا ومعتقدا فقال عن الكيسانية إنها السبئية وذكر قول شبث عنها . . . وتشنيع المغيرة بن شعبة عليها في ثورة حجر منسوبة إلى رائدها وعقلها المدبر الذي عرف أبو مخنف باسمه واسم أبيه وكنيته ومعتقده . . وفيما عدا خبر أبي مخنف عن السبئية وسدنة كرسيها أيام المختار فإن المصادر التي أشارت إليها منذ أيام الفتنة على اختلاف مشاربها المذهبية أشهر من أن تذكر .

ومن الدراسات الحديثة قام الدكتور يوسف العش بإعداد بحوث في محاضرات وكتب عن الفتنة ففحص الروايات الواردة عنها فحصا علميا دقيقا خرج منه بأن سيفا أتى بقصة الفتنة من مصدر حيادي مطلع فجاءت قصة منسجمة مع الروايات الموثوقة فدخلت في عدادها مفسرة موضحة مفصلة مقبولة . . وإنها رواية تاريخية بما للكلمة من معنى . . واستبعد العش روايتي أبي مخنف والواقدي بعد بحث ودراسة ونظر في سبع روايات أخرى من الأخبار المقطعة .

وأشار إلى نتيجة العش وأفاد منها وربما أضاف إليها آخرون من الباحثين كنايف معروف الذي قارن بين الهمداني رأس النحلة السبئية وابن وهب الراسبي الزعيم الأول للخوارج وكأحمد عرموش والعودة وخالد الغيث ونشر السامرائي عنه وعن سيف بحثا باللغة الإنجليزية وستصدر دار أمية دراسة متكاملة في ضوء المصادر التاريخية وكتب الفرق والملل والأهواء والنحل خاصة بسيف الذي هو عند المتحاملين عليه خارقة عظيمن الخوارق العجيبة ركبوا عليه مجموعة من الأهواء والميول المتناقضة التي من المحال أن تستقيم في شخص رجل واحد .

وعمد أشد المتحاملين عليه فجعل بني أسيد قومه كلهم مختلقون مع آخرين وصدر بأسمائهم كتابا عن الاختلاق والانتحال . . وصدر بعده كتاب عن الشعراء الإسلاميين للدكتورين القيسي وحاتم الضامن افتتحاه ببني أسيد الذي يزعم المتحامل

وهو الكشميري العسكري أن لا وجود لهم.

وورد في كتاب « الفتنة » لسيف جمع أحمد عرموش : (إنه كان للفتنة ووقعة الجمل أعمق الأثر بدأ الخلاف سياسيا وانتهى مذهبيا فانقسمت الأمة إلى فئات بأسها بينها شديد تتبادل الطعون حتى التكفير . . . وأدى التعصب إلى ندرة الروايات الصحيحة لتاريخ تلك الحقبة . . وهذا الكتاب « كتاب سيف » من أقدم الكتب التي تناولت هذه الموضوعات ومؤلفه أكثر مؤرخي تلك الحوادث
حيادا وموضوعية) .

وحين يشتط الكشميري فيصدر كتابه ببني أسيد من المخترعين في زعمه بما فيهم الحارث بن أبي هالة ربيب النبي صلى الله عليه وسلم وابن زوجته السيدة خديجة رضي الله عنها فإن دليله يأتي في سياق أدلة من يقول : إن المصادر لم تذكر للنبي من البنات إلا فاطمة أما أخواتها فهن بنات لزوج خديجة قبل النبي أبي هالة الأسيدي مع أن مصدرا واحدا لا يسند هذا القول . . بل لعل هذا شبيه بقول الكشميري نفسه إن أبا لؤلؤة قاتل عمر لم يمسسه أحد بسوء رغما عما أورده ابن حجر والمدائني والبلاذري من خنق حطان له حتى أحس بالموت فطعن نفسه . . وإذا كان دفع صلة عثمان بالرسول صلى الله عليه وسلم بإنكار أبوة النبي لزوجتيه مقصودا فإن قدسية أبي لؤلؤة المعتقدة فيه تحول بين من يرى ذلك وبين فحص المتون الإخبارية ونقد النصوص التاريخية .

أهـم المـراجع الحـديثـة

****

د / إبراهيم شعوط : أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ .

د / إحسان النص : العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي .

د / أحمد أمين : ضحى الإسلام .

أحمد عرموش : مقدمة كتاب « الفتنة ووقعة الجمل » لسيف بن عمر .

خالد الغيث : مرويات سيف بن عمر .

د / سالم محل : المنظور الحضاري .

د / سعد زغلول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الإسلام .

د / سليمان العودة : عبد الله بن سبأ .

د / السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية .

: التاريخ والمؤرخون العرب .

د / طه حسين : الفتنة الكبرى .

د / عماد الدين خليل : دراسة في السيرة النبوية .

د / عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب .

د / قاسم السامرائي : مقدمة كتاب الفتوح والردة ومسير على وعائشة لسيف بن عمر

محب الدين الخطيب : تحقيق كتاب العواصم من القواصم للقاضي أبي بكر ابن العربي .

د / نايف معروف : الخوارج .

د / نوري القيسي وحاتم الضامن : شعراء إسلاميون .

د / يوسف العش : الدولة الأموية .

قضيــة

و

ورأي

الاستشــــراق

و

التنصــــير

* * عبد الله هادي القحطاني * *

مقـــدمة

منذ أن بزغ نور الإسـلام وأعداده في ازدياد بازدياد الرقعة التي يحتلها في قلوب المؤمنين قبل ديارهم ، فمن أولئك من أشهر سيف العداوة ، ومنهم من تخفى في ثياب المسلمين ، ومنهم من سن القلم ، ومنهم من امتطى صهوة الموضوعية والبحث العلمي ، وذلك لزرع الشبهات وتتبع السقطات .

ولا جدال أن الدور العظيم الذي يقوم به هذا الدين عقائدياً وثقافياً وحضارياً يثير حفيظة أعدائه ، والذين يسعون إلى تشويه نصوع صورته بسبب غضبهم الأعمى وحقدهم الرخيص ، فلهذا كان ظهور الدراسات الاستشراقية أمراً حتمياً بعد أن شلت قوى العالم الإسلامي المادية واستبيحت ثرواته ، حيث لم يبق مكمن للقوة إلا في تاريخه وأصوله العقائدية والثقافية والحضارية ، وما تصريحات ولي عهد بريطانيا الأمير تشارلز في مجامع علمية متفرقة إلا اعتراف منصف بالدور الذي يقوم به الدين الإسلامي موجها أخلاقياً وحضارياً للعالم .

ولقد عرف تاريخ الاستشراق بعض الكتاب والمفكرين من المستشرقين المنصفين من بينهم مارسيل بواسارد ، وهذري كوربين ، وآن ماري شيميل ، وزيجريد هونكه ، كما في كتابها الصادر عام (١٩٩٠م) " الله ليس كما يصفون " ، والذي حاولت فيه إيقاظ الألمان من عميق سباتهم واعتقادهم الخاطيء بأنهم متفوقون حضاريا وفكريا على العالم الإسلامي ، كما عرف الاستشراق كثيراً من المجحفين المتحاملين من أمثال سير هاميلتون جب الذي عرف بتعامله مع الإسلام من منظار نصراني متطرف ، وماكسيم رودنسون ، الذي تناول الإسلام تناولا ماركسياً قاصراً ، ومن أولئك أيضاً من كاد للإسلام من داخله وغرر بأهله في دور جاسوس ماكر من أمثال ت . لورنس الذي اشتهر بلورنس العرب (١) ، ولم يزد هذا السجال الفكري والتحدي الحضاري الأمة الإسلامية على مدى عصورها إلا مضاءً وزيادة في التعلق بأصولها ، فقد كان للجهات الصليبية خلال القرنين الخامس والسادس الأثر في زرع روح التحدي في الأمة المسلمة ، وتفتق قرائح كثير من علماء الأمة في الذود عن حمى الإسلام وتفنيد ادعاءات أعدائه ، فخرجت فطاحله مثل ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ممن دحضوا افتراءات أولئك الأعداء وكشفوا عوار تلك الملل وضحالة أفكار أولئك المتطاولين ، وقلبوا حجتهم الواهية عليهم ، فقد أضحت تلك الدور الفكرية

معالم شاهقة لنقاء الإسلام وصفاء حضارته ونبراساً مبهراً لكل من يطيع هوج عمى بصيرته وجموح عاطفته للنيل من الإسلام . ثم تلاهم كثير في هذا العصر من أمثال محمد قطب ومصطفى السباعي ، ومحمد حمد حسين ، وعمر شاكر وغيرهم كثير

ومع ما للدراسات الاستشراقية من آثار سيئة على فهم الإسلام من قبل الأمم الأخرى ، وذبذبة أفكار بعض أهله فإن هناك جانباً إيجابياً ، وهو أن من بين أولئك المستشرقين من قلب المجن على أساتذته وأبي إلا أن يناصر الحق ويسهم بدور متميز في تبديد تلك الصورة المظلمة التي رسمها أسلافهم عن الإسلام ، فمنهم من قاده بحثه ودراسته إلى الإسلام فآمن به ، ومن بينهم مراد هوفمان ، وليوبولد فايس (الذي أصبح اسمه محمد أسد) ، وأحمد فون دنفر ، ومارتين لينق ، ومحمد بكثل (٢) (أول مسلم يترجم معاني القرآن الكريم للإنجليزية) . ومنهم من قدم خدمات جليلة وأصيلة في البحث العلمي أنصف الأمة الإسلامية في تراثها ومعطياتها ، فمنهم أول من قام بفهرسة الحديث النبوي الشريف .

وعلى الرغم من أن الدراسات الاستشراقية قد نبتت منذ نشأتها في أروقة الكنيسة وعلى أيدي القساوسة ولأسباب دينية في البداية فإنها تتأثر بالتغيرات التي تطرأ على ساحة مصالح الدول الاستعمارية في العالم الإسلامي ، فمع قيام الصهيونية وغرس الدولة اليهودية في قلب العالم الإسلامي ، كان لزاماً على مؤيدي الفكر الصهيوني من المفكرين والكتاب أن يعملوا أقلامهم وأبحاثهم في تشويه سمعة الإسلام والمسلمين في أروقة اتخاذ القرار بتلك الدول ، ومن أمثلة المستشرقين المعاصرين الذين يصوبون سهام الغدر واللاموضوعية إلى الإسلام من وجهة نظر يهودية حاقدة بردنارد لويس وجودث ميلر (٣) .

هدف الدراسة :

لأقتناعي بعمق الترابط بين الاستشراق والتنصير ، وأن الغالب على المستشرقين كونهم منصرين في آن . فهما وجهان لعلمة واحدة ، فقد آثرت تخصيص هذه المقالة لبيان لعلاقة بين أهداف المستشرقين والمنصرين ، وذلك باتباع المنهج التاريخي التحليلي .

وسوف يكون ذلك من خلال الإجابة على الأسئلة التالية :-

١ - ما مدى أهمية الدراسات الاستشراقية للكنيسة ونفوذها في العالم الإسلامي ؟
٢ - ما هي أطر العلاقة بين المستشرقين والمنصرين ؟
٣ - متى بدأت الدراسات الاستشراقية وعلاقة ذلك بالتنصير ؟

يستشف من الطرح أعلاه أن للمستشرقين أساليب متفاوتة تتفاوت باختلاف أهدافه ، فمنها ما هو لأسباب سياسية استعمارية ، و منها ما هو لأسباب ثقافية وحضارية ، ومنها ما هو لأسباب دينية ، وسوف ينصب هذا المقال على إلقاء الضوء على تلك الممارسات الاستشراقية لأسباب دينية ، وهي في نظري من أشد وأخطر المعالجات الاستشراقية للدين الإسلامي ، وذلك من خلال بيان الترابط الديني بين الاستشراق والتنصير . ولهذا فسوف أتطرق لأهمية الدراسات الاستشراقية للكنيسة على مدى تاريخها .

أهمية الدراسات الاستشراقية للكنيسة :

إن العلم بالشيء خطوة أساسية لمعرفة التعامل معه ، ومن هذا المنطلق صعدت الكنيسة اهتمامها بدراسة الأمم الشرقية ، ليتسنى لها البحث عن أنجح السبل وأفضل الطرق في خوض غمار تنصير تلك الأمم آخذين في الاعتبار التعليمات المدونة في إنجيل متى ، السفر الثامن والعشرون في الجملتين (١٩-٢٠) (٤) .

اذهبوا واجعلوا كل الأمم حواريين ، عمدوهم باسم الاب والابن وروح القدس ، وعلموهم كي يطيعوني في كل ما أمرتكم به

وكما يقول الدكتور موسى فإن المنصرين كثيراً ما يعتمدون على هذه المقولة لمتى نبراساً لنشاطاتهم وإيمانهم بمسؤولية نشر النصرانية في كل صقع من هذا العالم ، بما في ذلك العالم الإسلامي الذي يعيش من وجهة نظرهم في ظلمة دينية لابد أن يقشع حجبها الإيمان بالمسيح كمنقذ وإله (٧) . ولو أن مقولة متى تتعارض تعارضاً صارخاً مع المقولتين التاليتين للمسيح عليه السلام ، كما يرويها متى نفسه في السفر العاشر ، الجملتين (٥-٦) :- (٨) ، وذلك حينما اختار عيسى إثني عشر من أتباعه .

أعطى عيسى الأثنى عشر عندما أرسلهم هذه التعليمات " لاتذهبوا بين الأممين (غير اليهود) ولا تدخلوا مدينة للسامريين ، واذهبوا إلى خراف بني إسرئيل الضالة .

وفي السفر الخامس عشر من متى الجملة الرابعة والعشرين وذلك عندما رفض المسيح حسب زعم الإنجيل المقدس " إنما أرسلت لخراف بني إسرائيل الضالة فقط " (٩) .

وبهذا نستشعر أهمية الدراسات الاستشراقية كمعطيات معلوماتية مهمة للتعامل مع عالم عجزت جيوش أوربا الصليبية عن إخضاعه لقوة الحديد والنار ، وهذا ما سوف نتطرق له خلال بحثنا في تاريخ الاستشراق والتنصير ، حيث كان كثير من المستشرقين من بين القساوسة أو ذوي الميول التنصيرية .

ولهذا - وكما يقول إدوارد سعيد - كان لابد للمستشرقين من رسم صورة ثلاثية الأبعاد للشرق الإسلامي ، كل واحدة منها تتعلق بالقوة التي تعنيها : البعد الأول هو الشرق ذاته ، والثاني المستشرق والثالث يتعلق بالمستهلك الغربي (١٠) ، بما في ذلك الكنيسة بمؤسساتها وأطماعها في الشرق الإسلامي ، فالمستشرق غير المنصف يصور الشرق كما يريد هو بناء على فرضيات وتصورات سابقة ، وبذلك يقوم بدراسة انتقائية لتأصيل ما بناه من نظريات وفرضيات أنتجتها معطيات ومسلمات سابقة ، وبهذا تأخذ الكنيسة ما يحلو لها من هذه المنظومة العلوماتية وما يحقق مأربها كمستهلك لذلك الكم المعلوماتية عن عالم غريب ، بني العالم الغربي مفاهيمه عنه على نسق أسطوري كما في ثقافتة الإغريقية أو الرومانية ، وحجبه عن كنه حقيقة الشرق الإسلامي جهل العصور الوسطى وظلمات الكهنوتية واستبداد الكنيسة ، والحقد الصليبي المتمثل في الحروب الصليبية . ومن أمثلة تلك المعلومات الاستهلاكية التي تحاول الكنيسة إقناع أتباعها بها لتبين أهمية تنصير المسلمين وتخليصهم من ظلامهم هذا المقطع من (Bibliotheque Orientale) البيليوغرافية الشرقية والتي جمعها المستشرق الفرنسي (D'Herbelot) وصنفها حسب (١١) حروف المعجم اللاتيني من A إلى Z

هذا هو الدجال المشهور بمحمد مؤلف ومؤسس البدعة التي أخذت شكل دين اسمه المحمدية (Mohamadan) ، ولقد قام مفسرو القرآن وعلماء المسلمين وعلماء القانون بكيل المديح والثناء لهذا الرسول المزيف . . .

يتضح بجلاء اتساق هذا التصور عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم مع منظومة المستهلك الغربي ، حيث يقول (Galland) غالاند : إن ببليو غرافية (d'Herbelot) تتوافق مع توقعاتنا ، أي أن الببليو غرافية لم تسع لعرض حقائق تتعارض ما قد بني من تصورات في عقلية الأوربيين (١٢) .

ومما يزيد من اهتمام الكنيسة أن الإسلام هر الذي قوض عرش الكنيسة و فضح

خزعبلاتها وحرر أتباعها وبهذا فقد هدد مصالحها فانبرت له بالدسائس والكتابات المغرضة . ورسم صورة مشوهة عنه حتى لا ينبهر به أتباعها فيعتنقوه ، فهذا مؤرخ الدراسات الاستشراقية الشهير نجيب العقيقي يبين لماذا اهتمت الكنيسة بالدراسات الاستشراقية منذ وقت مبكر فيقول :

قد نعثر على العلماني غير الراهب في أعمال الاستشراق الأولى ، وقد لا نعثر عليه ، لأن الراهب وحده لعب الدور الأول في الحقبة الأولى لأسباب منها أن الراهب خليط من جميع الشعوب ، وأن العلم عند النصارى كان مقتصراً على الرهبان ، ولأن العربية انتصرت بالقرآن ، والقرآن أتى بدين جديد على الراهب زحزحته من طريقه ، كما فعل بالوثنية ، وكان بهذا الحال أقرب للاستشراق (١٣) .

وأما بعد أن أصبحت للدول الغربية المسيحية صولتها وجولتها الاستعمارية في العالم ، فقد تحول هدف الكنيسة بالإضافة إلى السابق هو بأن تبعد الشعوب الأخرى عن الإسلام ، بل أن تشوه صورة الإسلام في مخيلة أبنائه الذين لم يعرفوه حق المعرفة .

ويتخذ الغزو الفكري الديني للعالم الإسلامي أشكالاً مختلفة وفقاً للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تمر بها تلك الدول والتي والعلم الإسلامي بعامة ، ومن تلك الوسائل وأشدها تعاضداً الاستشراق والتبشير ، والترابط بين طرفي الاستشراق والتنصير بلغ درجة من التشابك كاد بها يكون اتجاهاً واحداً .

فالمستشرقون يعنون بدراسة الثقافة الإسلامية دراسة دقيقة كي يتصيدوا من خلالها بعض الشبهات وأقوال بعض المنحرفين والغلاة من المسلمين ويقومون على تضخيمها وإبرازها على أنها الإسلام ، وبذلك يسعون لتشكيك المسلمين في عقيدتهم بنفث الشبهات الواهية ، وذلك باسم الدراسات الاستشراقية العلمية ، والموضوعية . والمنصرون في الطرف الآخر يولون شديد عنايتهم بالجانب الروحي في الاستفادة من تلك الشبهات لصرف المسلمين عن دينهم ، وفي كثير من الأحيان - إن لم يكن في الغالب - كما أشرنا سالفاً يكون
المنصر مستشرقاً .

وقد أشار البروفسور إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق (Oriertelism) إلى أن المنصرين قد سلكوا طرقاً عديدة لنشر الديانة المسيحية ، وكان في وسائلهم الاستشراق ، حيث كان معظم المستشرقين أعضاء نشطين في الكنيسة أو من النصارى العاديين ، ولكنهم المتحمسون لدراسة الثقافات الشرقية وذلك بهدف معرفة مواطن

الضعف والقوة فيها وبالتالي توطيد النصرانية والاستعمار بكل اشكاله في بلاد الإسلام (١٣) .

ولقد كان هدف آخر رئيسي جعل الكنيسة تهتم بالثقافات واللغات الشرقية ألا وهو ترجمة الكتاب المقدس عند النصارى بكل لغات العالم ، وكان لهذا الأثر البالغ في الترابط بين المنصرين من جهة وعلماء اللغة المستشرقين في الجانب الآخر ، فهذا معهد اللغويات الصيفي (Summer Institute of Linguistics) والذي يحوي نخبة كبيرة من علماء اللغة الأمريكيين البارزين من أمثال (K. Pike)ك . بايك ولونق إكر (Long acre) وغيرهما ممن كان لهم الأثر الكبير في دفع اللغويات البنيوية في الولايات المتحدة ، معهد اللغويات هذا الصيفي في ظاهره مؤسسة علمية ضخمة متخصصة في الدراسات اللغوية بلغ العاملون به من اللغويين حوالي ٣٧٠٠ لغوي عام ١٦٧٨م ، ومازال ينمو باطراد كما يذكر نيوباير (Newmeyer) في كتابه (السياسية في علم اللغة) . أعضاء هذا المعهد خارج الولايات المتحدة يقدمون أنفسهم على أنهم منظمة علمية ثقافية محضة ، غير أن الاسم الذي يستخدمونه للحصول على مزيد من الدعم من حكومتهم والمتعاطفين من النصارى هو جماعة وايكليف لترجمة الإنجيل (Why Cliffe Bible Translators) (١٤).

ويؤكد نيومابر (E.V. Pike) الترابط بين التنصير والمستشرقين بقوله :

نجد الإرساليات التبشيرية وقد انطلقت منذ القرن السادس عشر تجمع المعلومات عن لغات الشعوب الواقعة تحت الاستعمار الأوروبي ، وازداد تأثيرها يوما حتى صارت بحوثها اللغوية ذات إنجاز عظيم ، ويرجع انخراط الإرساليات التبشيرية في الدراسات اللغوية إلى دوافع عقائدية غايتها تنصير العالم بأسره ولن يتأتى لهم ذلك دون ترجمة الإنجيل لكل لغات العالم (١٥) .

وهذا يفسر تلك الأعداد الكثيرة من نسخ العهد الجديد المترجمة باللغات المحلية العربية ، فلم يعد الأمر مقتصراً على ترجمة الكتاب المقدس عند النصارى للغة العربية الفصحى ، بل إن جيش اللغويين المستشرقين استطاع ترجمة الإنجيل إلى اللهجات العربية المحلية ليتسني للعوام فهمها .

توحد أهداف المستشرقين والمنصرين :

ومما يوضح ضيق المستشرقين المنصرين من أمثال جب (Gibb) بتمسك المسلمين

بمسلمات دينهم وركائزه الأساسية رغم تدهور الحالة العامة لالتزام المسلمين بالإسلام في حياتهم العامة ، اجتماعية ، واقتصادية ، سياسية ، تعليمية . . . إلخ ، وخاصة في بلدان إسلامية كبيرة مثل تركيا ، حيث أعلنت العلمانية دينا للدولةوخاصة في بلدان إسلامية كبيرة مثل تركيا ، حيث أعلنت العلمانية دينا للدولة ونبراساً لتشريعاتها ، مع ذلك كله كما يقول جب :

فالمعاهد الدينية نفسها لاتزال قائمة ، ولايزال حفاظ القرآن ودارسوه كما كانوا لم ينقص عددهم ولم يضعف سحر آيات القرآن وتأثيرها على تفكير المسلمين ، وربما تقديس شخصية محمد (صلى الله عليه وسلم) وما يثير ذكره من حماس في سائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم من أهم ملامح النهضة الإسلامية الحديثة (١٩) .

وهذه الملاحظة من مستشرق مخضرم تبين دقته في تتبع خطوات التغيير في العالم الإسلامي ومعرفة مواطن القوة والضعف والهجوم على المقاتل الموجعة ، ليتسنى للفكر الغربي المسيحي الانتشار ، والحلول مكان الفكر الإسلامي .

ويعلن جب (Gibb) في مقدمة كتابه (Modern Tread, In Islam) الاتجاهات الحديثة في الإسلام بأن هناك فئة من المستشرقين كان اهتماهم منصباً على دراسة الدين الإسلامي ، ولقد كان هدفهم الأول تبشيرياً بحتاً ؛ وذلك لأن الفهم العميق للأديان الأخرى أصبح ضمن المنهجية التبشيرية الجديدة . فلذا أنشئت المجلات العلمية المتخصصة في هذا المجال مثل العالم الإسلامي " Moslem World والتي شرعت في نشر الأبحاث منذ عام ١٩١٠م (٢٠) ، وقد شهدت صفحاتها كتابات كبار المستشرقين المنصرين من أمثال د. ب ماكدونالد (D.B. Mcdonald) وزويمر (Zwimmer) .

ويعلق اللورد هدلي على الدور الذي قام به المستشرقون في تصوير الشرق الإسلامي بلادين حيث ينظر للدين الإسلامي كتحريف للنصرانية مما فتح الطريق أمام البعثات التنصيرية في البلاد الإسلامية المستعرة . وتراه يقول - وهو يبدي استغرابه وتقززه من تلك المحاولات الفاشلة التي تقوم بها البعثات التنصيرية - :

ويؤسفني أن أرى كثيراً من البعثات التبشيرية المسيحية تتبع نفس هذه الأساليب مع إخوانهم المسلمين ، وإني لا أستطيع أن أجد مبرراً لهؤلاء الذين يحاولون التبشير بين قوم هم في الواقع أقرب منهم إلى تعاليم المسيحية الحقيقية ، وأقول أقرب إلى تعاليم

المسيحية الحقيقية وأعنى ما أقول لأن البر رالسماحة وسعة الأفق العقلي في عقيدة الإسلام ، أقرب إلى مادعا إليه المسيح من تلك العقائد المستحدثة المتزمنة في المذاهب المسيحية (٢١).

وبينما نواصل سرد الأدلة حول العلاقة بين أهداف المستشرقين والمنصرين ، وكما أوردنا آنفاً فإن غالبية المنصرين في العالم الإسلامي مستشرقون والعكس صحيح أيضاً ، فهذا لورانس بروان ، أحد كبار المنصرين ، ويقول في كتابه الإسلام والإرساليات :

إذا اتحد المسلمون في امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً ، وأمكن أن يصبحوا نعمة أيضاً ، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولاتأثير (٢٢) .

وهذا قسيس مستشرق آخر - كالهون سيمون - يقول : إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السود ، وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية ، ولذلك كان التبشير عاملاً هاماً في كسر شوكة هذه الحركات ، وذلك لأن التبشير يعمل على إظهار الأوروبيين في ثوب جديد جذاب ، وعلى سلب الحركة الإسلامية عنصر القوة المتمركز فيها (٢٣) .

هدف تفتيت الوحدة الإسلامية وزرع الفرقة بين المسلمين هدف أسمى للاستشراق والتنصير ، اللذين يريان في الإسلام وقوته ، نفوذه في توحيد الشعوب الإنسانية المتفاوتة في اللون واللغة والثراء خطراً عظيماً على انتشار النصرانية ، وحجر عثرة أمام المصالح الأوروبية ، وهذه غاية يسعى إلى تحقيقها كل مستشرق منصر .

وبما أن المنصرين كانوا يتسلحون بالشبه في بث جهودهم التنصيرية لاختراق جدار اليقين في قلوب المسلمين البسطاء ، فقد وجدوا في دراسة الشرق ودينه ضالتهم تحت مظلة البحث العلمي ، فلقد ظهر في عام ١٩١٥ مجلدات تحوي دراسات استشراقية بفكر وأقلام المنصرين تحت عنوان القوى الفاعلة في النصرانية والإسلام The Vital Forces of Christianity and Islam وتلاه عدد من الدراسات التي تسير في الاتجاه ، أي التحلي بالصفات العلمية الاستشراقية بغية تحقيق أهداف تنصيرية بحتة مثل حاضر العالم الإسلامي اليوم The Muslim World Today والتي نشرت في عام ١٩٢٥م . ثم تلا ذلك مجموعة كبيرة من الدراسات جمعها

هـ. أ. ر. جب في مجلدات أسماء الإسلام إلى أين ؟ "Whither Islam".
وعلى عجالة فسوف نتطرق باقتضاب شديد لبعض تلك الموضوعات التي طرحت في الكتاب الأخير الذي أشرف على جمع شتات بحوثه المستشرق الإنجليزي وأحد مستشاري وزارة الخارجية البريطانية التي كانت تسيطر على معظم دول العالم الإسلامي (٢٤) في ذلك الوقت . ومن العجيب كذلك أنه كان عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة . فهذا جب نفسه يبرز في مقدمة كتابه (الإسلام إلى أين ؟) أن المشكلة التي يواجهها الغرب مفكروه وساسته ومنصروه هو أن الإسلام ليس مجرد قوانين دينية تحكم بعض مسارات الحياة ولا قضية أكاديمية يمكن معالجتها في أروقة الجامعات ، ولكنه حضارة متكاملة شاملة لكل مناحي الحياة ، تربط المسلمين في شتى أصقاع الدنيا رغم اختلافاتهم العميقة في بوتقة سياسية حضارية خطيرة (٢٥) .

ويواصل جب الحديث عن الإسلام في مقدمته الطويلة لذلك المجلد الاستشراقي التنصيري وانتقاده للمسلمين المحافظين حسب زعمه وعدم تقبلهم للأفكار التحريرية الجديدة مثل تلك التي يدعو إليها سير أحمد خان في الهند والشيخ محمد عبده في مصر ، ثم يستطرد في مواضع أخرى ، فيذكر أنه على الرغم من ذلك الرفض للمبادىء الغربية النصرانية فإن هناك بعض المؤشرات للتحول في الموازين الدينية والتعاليم الأخلاقية في الإسلام ، وهذا التغيير يسير باتجاه التقارب مع المعايير الغربية في الأخلاق ، والتي كما يزعم تتقارب مع تلك التي تدعو إليها الكنيسة المسيحية في الغرب (٢٦) .

ونجد التطابق جليا بين جب وألفرد قوليوم (Alfred Cuillaume) عضو مجمع اللغة العربية في دمشق ، وعضو الأكاديمية الملكية في بغداد ، وأستاذ الدراسات المسيحية والإسلامية بجامعة اسطنبول في كتابه الإسلام " Islam " والذي يرتكز على أهمية تحديث الشريعة بحيث تتفق مع متطلبات الحياة العصرية بتبني تصور تقدمي للعلاقات الإنسانية ، وهذا كما يذكر ، ما كان يردده أستاذه ج. ن. أندرسون (Anderson) في عدة مقالات في المجلة التنصيرية الآنفة الذكر ويجبذ هذا التوجه المستشرق المنصر الألماني كامغماير في مقاله بكتاب (الإسلام إلى أين ؟) حيث يقول :

إن الأب بانبرث المبشر الألماني يرى أن حركة الإصلاح الإسلامي على النحو الذي

تسير فيه الآن يجب أن تقابل من المسيحية العربية بالتشجيع (٢٨) .

ومازال هذا التفكير مسيطراً على عقلية المستشرق جب بعد فترة طويلة منذ أن حرر مجلده الأول "Whither Islam" حتى كتابه Modern Treads in Islam الذي نشر عام ١٩٤٧م وأعيد نشره عام ١٩٧٥م ، والذي هاجم فيه جامعة الأزهر ووصفها بالتخلف والرجعية ، فكان الأولى بها حسب قوله أ ن تسعى جاهدة لتواكب التفكير الغربي المسيحي وتتخلى عن تمسكها بالمسلمات الإسلامية القديمة (٢٩) .

ودليل آخر إضافة إلى ما سبق سرده إشارة أحد كبار المنصرين العاملين المعاصرين يتانلي مونيهام ، رئيس منظمة التصور العالمي الدولية التنصيرية ، في الخطاب الرئيسي للمؤتمر التنصيري في كلورادو والذي كان بعنوان (التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامي) ، حيث قال مؤكداً أهمية دراسة العالم الإسلامي ودينه ولغته :

أعطنا يارب رجىً آخر مثل تمبل كيردنر (مستشرق معروف) الذي كان عالماً شهيراً في الدراسات الإسلامية ، ومترجماً حاذقا للآداب الإسلامية ، وكاتباً غزير الإنتاج ، لقد قضى كيردنر ١٦ عاماً يدرس اللغة العربية والإسلاميات للمتطوعين ومواطني البلد العاملين في مجال التنصير ؛ لأنه كان يعتقد بضرورة معرفة أفكار أولئك الذين يحاولون الوصول إلى قلوبهم وعقولهم معرفة دقيقة (٣٠) .

" الخـــــاتمة "

ولقد لعب المستشرقون دوراً بارزاً في خدمتهم لدينهم ومصالح بلادهم من خلال دراستهم للغات المسلمين ودينهم وأسلوب حياتهم ، فهذا المستشرق يسخر معلوماته الاستشراقية لخدمة بلاده من خلال عمله كمستشار لرئيس الجمهورية ، بينما يقوم بترجمة معاني القرآن الكريم للغة الفرنسية . ومما لا شك فيه أن الدراسات الاستشراقية تهدف إلى تزويد صانعي القرار في الحكومات الغربية بالمعلومات عن الشعوب المستعمرة أو المراد التعامل معها لاختيار أفضل السبل للسيطرة على مواردها وتوجيه الرأي العام بما يخدم مصالح المستعمر وثقافته ، بيد أن تلك الدراسات غير الموضوعية - رغم ادعائها لاتباع الأسلوب العلمي - لم تتحر الصدق والأمانة العلمية فيما تنقله وتقدمه للعالم الغربي وقد أدى ذلك إلى تخبطها في سياستها مما كلفها الكثير من الخسائر والسياسات المتخبطة ، ويشير إلى ذلك خبير الدراسات الشرقية البروفسور إسبيزيتو في قوله :

لقد كان للدراسات الاستشراقية المغلوطة والصهيونية الأثر الكبير في تبنى الولايات المتحدة لسياسات خاطئة كلفتها الكثير من الخسائر وعلى سبيل المثال مواقفها في لبنان وإيران .

وأضف إلى ذلك موقفها في القضية الفلسطينية والقضايا الإسلامية الأخرى مثل الشيشان والبوسنة .

وفي الواقع أنه منذ عهد قديم والحكومات الغربية الاستعمارية تتحالف مع المستشرقين والمنصرين لتحقيق أهدافها الاستعمارية ، وكما أشرنا في ثنايا البحث فالاستعمار والاستشراق والتنصير تمثل حلقات مترابطة في رسم هيكل من خلاله يمكن السيطرة على تلك الشعوب عقائديا وفكريا وماديا ، فالاستشراق يسبق الاستعمار والتنصير في معرفة خفايا الشعوب الفكرية والنفسية والاجتماعية والعقائدية والوقوف على مواطن الضعف ، ومن ثم تقديم معطيات غاية في الأهمية للمنصرين الذين بدورهم يجهزون الطريق للاستعمار بشتى صوره ، وذلك بعد أن أفادوا من بحوث المستشرقين ودراساتهم في معرفة أنجح السبل لإحلال العقائد النصرانية مكان سابقتها إن استطاعوا ، وبذلك يسهل السيطرة على تلك الشعوب أو الأقليات وتوجيهها لصالح الدول الغربية المستعمرة . فالواقع بشواهده الكثيرة يبين

أن غالب الشعوب المتنصرة تعطي ولاءها للغرب ، كما في جنوب السودان ، وتيمور الشرقية ، وجنوب نيجيريا وإريتريا ولبنان وغيرها ، ولهذا تكون هذه الأقليات أو الشعوب أدوات فعالة في سيطرة الدول الغربية على العالم سياسيا واقتصاديا وفكرياً ، وذلك خلال محاولة إعادة رسم خارطة العالم السياسية ، والإخلال بمواطن القوى . ويعطي د. عكاشة مثالاً على ذلك الترابط بين المستعمرين والمستشرقين المنصرين يتمثل في تاريخ التخطيط لعزل جنوب السودان عن شماله المسلم منذ بدايات هذا القرن ، وهذا يجسد الوضع الراهن في جنوب السودان ووسط القارة السوداء ، حيث يقول :-

ولقد اعترفت الحكومة البريطانية رسمياً بمخطط إرساليات التنصير في جنوب السودان ، وكان هذا الاعتراف من أخطر ما يستوجب التأكيد عليه من الأحداث الهامة التي شهدها عام ١٩٢٦م ، وأعجب ما في الأمر أن الحكومة البريطانية حذرت من التسليم بحدوث تقديم المساعدات عفوياً ، دون أن يكون هناك تنسيق بين السلطتين السياسية واللاهوتية في لندن ، وقد ظهر هذا التنسيق بصورة أكثر وضوحاً في عقد مؤتمر الرجاف اللغوي في أبريل ١٩٢٨م ، وهو مؤتمر استشراقي لإحلال اللغة الإنجليزية في تعليم النشء بصفة دائمة ، ثم زار المنصر سيء السمعة اللا أخلاقي (كاش) السودان عام ١٩٢٩م ليؤكد التحالف بين الحكومة البريطانية يمثلها الاستعمار ممثلاً في كرومر وكتشنر ، وتحديد سياسة تنصيرية تمهيداً لفصله دينياً وثقافياً ولغوياً وإن استطاعوا سياسياً عن شمال السودان المسلم (٣١) ، ولاتزال هذه المحاولات مستمرة إلى اليوم .

الهوامش :

٠١ مراد هوفمان . الإسلام كبديل . مؤسسة بارفاريا ، ١٩٩٣م ، ص ٢١٤ .
٠٢ هوفمان ، ١٩٩٣ ، ص ٢١٣ .
٠٣
٠٤ د . عزت قرني . مراجعة لكتاب المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، تحرير جفري بارنر . مجلة عالم الفكر المجلد (٢٢) ، ٣, ، مارس - أبريل ١٩٩٤م، ص٢٧٨ - ٢٨٢ .
٠٥ John L. Esposito. " Islam and Christianity Face to Face. Commonwell, Jan. 31, 1997, P. 13 .
٠٦ العهد الجديد .
٠٧ Ali A. Musa. " Why Globalization ? " a paperpresented to The 9th World Congress of Comparative Education, 1 - 6 July, 1996, The University of Sydney, (P.2).
٠٨ العهد الجديد .
٠٩ العهد الجديد .
٠١٠ Edward Said. Orentalism. Vintage Books : New York, 1979, P.67 .
٠١١ Said , P. 68
٠١٢ Said , P. 65
٠١٣ نجيب العقيقي ، المستشرقون ، بيروت ، ١٩٣٧م ، صـ صـ٣٧-٣٨ .
٠١٤ Said , P. 50
٠١٥ Fredrick Newmeyer. The Politics of Linguitics. Chicago University Press, Chicago, 1988, p. 67-68.
٠١٦ Newmeyer, 1988, P. 68 .
٠١٧ E. Pike " Historical Sketch. " in The Summer Institute of Linguistics, ed. R. Brend and K. Pike, The Hague : Monton, 1997, P.7.
٠١٨ محمد محمد حسين؛ الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر . مكتبة الآداب : القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٠هـ ، جـ١ ، ص ٣١١ .
٠١٩ H.A.R. Gibb, (ed.) Whither Islam ? A Survey of Modern Movements in the Moslem World, ed. H.A.R. Gibb. London : Victor Gollancz, 1932, P.350.
٠٢٠ H.A.R. Gibb. Modern Trtends is Islam, Librairie du liban : Beirut, 1975.P.75.

٠٢١ مقطع من مقال نشرللورد رولاند جورج هوي بالأويسرفر ، يوم / ١١/ ١٩١٣
٢٣م بعنوان (لماذا أسلمت ؟) صـ صـ ٦٠-٦٢ ، وفي مقال عبد الرحيم الوهابي
٠ الإسلام يدخل مجلس اللوردات " الدفاع ، ١٠٤ ، ص ٦ .
حسين ، ١٤٠٠هـ ، ص ٢٠٣ .

٠٢٤ Gibb. 1932, PP. 12 - 14 .

٠٢٥ Gibb. 1932, P. 69, PP. 371 - 372 .

٠٢٦ Gibb. 1932, p. 69 .

٠٢٧ Alfred Guillaume. Islam.Penguin Bppks, Ltd, England,1956. PP. 169 -170 .

٠٢٨ Gibb 1975, P. 163 .

حسين ، ١٤٠٠هـ ، ص ٢٠٥ .

٠٢٩

٠٣٠ ستاتلي مونيهام " الخطاب الرئيسي " . التنصير ؛ خطة لغزو العالم الإسلامي .
المحرر دونام . ماكوري ، دار مارك MARC للنشر . مانووفيا : كاليفورنيا
١٩٧٨م ص, ٣٢ .

(٣١) انظر أحمد عكاشة – التبشير النصراني ٧٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ .

واحـــــة الشعـــــر

« موكب النور »

د / محمد محمد محمود الغرباوي

ذهب الشاعر لأداء مناسك العمرة لأول مرة في حياته فبهر بالحرم والصفا والمروة ، وبئر زمزم ، فجاشت نفسه بهذه الأبيات .

كالسَّيلِ تندفعُ البشرْ ترجو المليك المقتدرْ
هاهم يُلبُّون النِّدا جَابُوا الفيافيَ والحُفَرَ
تركوا الصغار ومَالَهم والقلبُ شوقَاً ينفطر
هذاك عفَّرَ وجْهَهُ يبغى القبولَ المنتَظَرْ
وأخوه طافَ مُلَبِّياً والصوتُ دغدغَه الحَذَرْ
كُلٌّ يناجى ربَّه بدموعِ عين تنهمر
وتعالت اللهجاتُ في مزْجٍ عجيبٍ مستمرْ
وإذا المؤذِّنُ ماشدا سَكَنَ الحجيجُ المعتمَرْ
وإذا الصلاةُ قد انقضتْ ماجتْ جموعٌ تنتشَرْ
يا بَيْتَ ربِّي مرحباً كم تاق قلبي وانتظرْ ؟!
لَمَّا لَمَسْتُ سَتَائراً هدآ الفؤادُ المنكسَر
وبَحَختُ صوتي بالدُّعا وسكبتُ دمعي أعتَذرْ
ناجيتُ ربّي بالذي أخفيتُه طولَ العُمر
ونثرتُ دمعي طهرةً حول المقام وفي الحجرْ
لَمَا ذهبتُ إلى « الصَفا » وسعيتُ فيها أعتبر
سالتْ دموعي رحمة من أجل طفل في خطرْ
وشكاة أمٍّ للذي فَجَرَ المياهَ مِن الحَجَرْ
أمٌّ تهرولَ في الحصى حَنّتْ لظام يستعرْ
وتعود يحدوها الرضا بالله ما أحْلى القدَرَ !!

وإذا برجْلِ صغيرها
قد خاضتْ الماءَ العطرْ

وتسيلُ « زمزمُ » بالهنا
وتخرُّ « هاجرُ » بالشكرْ

سبحان من جعل « الصفا »
نوراً ، ومروتنا تسرْ

يا ماء زمزم مرحباً
جوفي لريّك ينتظرْ

سأُبلّلَ الجسد الذي
أعيت مساريه الغيرْ

وأغسِّلُ الشَّعْرَ الذي
ضربت ذوائبه النُّذُرْ

علِّي أنالُ من الرضَا
ولربُّ كَسْري ينجبرْ

يا رب فاقبل توبتي
واقبلْ ضعيفاً يعتذر

وامنن عَلَيَّ بحَجَّةٍ
وبألفِ ألفِ أعتمرْ !!

« عـزة وإباء »

فائز أحمد البكري

يَا صَادحَ الغُصْنِ قَدْ أشجَيْتَ لُقْيَانَا ... فـأرسل الصـوت أنغـامـاً وألحـانا
وابْعثْ بها فِيْ رحَاب الأرْض أُغْنيَةً ... يشـدويهـا كل من بالحسن هيـمانا
حَلِّقْ كَمَا شئْتَ فِيْ أرْجَاء مَمْلَكَة ... منهـــا بدا الزهر أشكالا وألوانا
تحـيا بلاد ذُرى الأمـجـاد مَطلبـهـاً ... قـد شيـدت لصـروح المجـد أركـانا
قـامت لتـمـحو ظلامـا طال مـرتعـه ... فــأيقظت عـالما مـــا كــان يقظانا
صَقْـرُ الجزيرة قد أرسى دعـائمـهـا ... وأعلن الوحـدة الشـمـاء إعــلانا
أقـامـهـا دولة تسـمـو بوحـدتهـا ... من بعـــد كـانت دويلات وبلدانا
وكـــان من بعــده أبناؤه خلفـــا ... قـادوا الحـضـارة إعـمـارا وبنيـانا
حـضـارة أخـرست من ظل يسلبنا ... حق الكرامــة إســفــافـا وعـدوانا
فـهـذه أرضنا الخـضـراء مـعـجـزة ... يظل يذكــرهـا التــاريخ أزمـــانا
بحـر من الرمل لـم يرجي له صـدف ... قـد أخـرج اليـوم ياقـوتا ومـرجـانا

* * * * *

يا من يسـائلني عن أمنهـا عـجـبـا ... أكنت تجـهـل أم آثرت نسـيــانا ؟
اذهب شـمـالا وغـرباً ثم مـشـرقـهـا ... واذهب جنوبا وسل شيبا وشبـانا
واسـأل رجـالاً وركـبـاناً لهـا وفـدوا ... من كل أرض زرافــات ووحـــدانا
هل في جـميع الدنى أمن كـمأمنها ... أم هل رأو مــثلهـــا أرضـا وأوطانا
يكفـــيك أن إله الكون يحــفـظهـا ... وكـيـف نخـشى وعين الله ترعـانا

* * * * *

ونهـضـة العلم والتـعليم قـد بلغت ... أوج التــقــدم إحــقــاقـا وتبـيـــانا
وكنت يا خـــادم البــيــتين رائدها ... فنلت من شـعـبكـم حبـا وعـرفـانا
وقلت يا حـاكـمـا قـد جل منهـجـه ... مـقـولة أصـبـحت للمجـد عنوانا
لا يرتقي ببــلاد الناهضين ســوى ... جــيل نعـــدهم للدين فــرســـانا
جيل يرى العلم نورا والعـلا شـرفـا ... بهــا يســود الورى فـرعـا وأركـانا

وهل يسود المعالي فتية فترت قواهم وارتضوا للجهل ميزانا
ما العلم إلا سلاح عز نائله والجهل يرجعنا صما وعميانا
ومن يكن سؤدد العلياء مطلبه يحيى كريم النهى لو عاش أسوانا
عزيمةالنفس والإخلاص إن جمعت للروح تسمو بها عزا وسلطانا
فالعلم يزكي عقولا طاب معدنها به نُرَصِّعُ للهامات تيجانا

* * * * *

يا موطن المجد لن نوفيك مكرمة وكيف بالشعر أن يرقى لكيوانا
عهد علينا بأن تبقى لنا وطنا لا نرتضي غيره ماالله أحيانا
فخرا وعزا وأمجادا نعانقها ونرخص النفس إن قابلت عدوانا
هذا عطاؤك من شعب شرفت به فما رضيت له ذلا وخذلانا
وليس هذا حقيقا أن يرى عجبا من دولة صدعت بالآي قرآنا
شعارها راية التوحيد ترفعها لتنشر الحب إسراراً وإعلانا
أكرم بها دولة سادت بوحدتها وألفت في رحاب الدين إخوانا
إنا اعتصمنا بحبل الله في ثقة لنملأ الأرض إسلاما وإيمانا
فأمة شرفت في ظل شرعتها ولن يدوم لها إلا بما كانا
وعد من الله أن تسمو بعزتها ولن نذل ورب العرش مولانا

* * * * * *

« القمر يحترق »

إبراهيم عبد الله مارشي

هل يصدقون وهل ترى لن يصدقوا … ويحى كلام القوم هل يتحقق

هل يسألون عن الذين مضوا وهل … يتلمسون خطي الذين تفرقوا

هل يغدرون إذا القوافل غادرت … فأعود والدمع الذي يترقرق

كانو جميعا ثم شتت شملهم … وغدوا كما الثوب الذي يتمزق

في ليلة ليلاء أشكو ذا العنا … وهنالك البدر الحزين محرق

هل كان يحمل ما حملت وهل ترى … أضحي كما أهل الصبابة يعشق

تتراقص النيران عند فؤاده … قد كاد من فرط التوهج ينطق

وكأنه نادي علي مصبرا … ومهونا حزني الذي يتشقق

وكأنه قد قال لي سامح وعد … فأجبته قل للجناة ترفقوا

فهوى كما يهوي الغريق وظله … رسمته أمواج هناك تصفقُ

فجلست قرب النهر أرقب لوعتي … وهناك أنوار المدينة ترمقُ

لالوعتي علمت نهاية أمرها … والقلب لم يدرِ لمَ يتَحرق

وكأنما زمني كباب مشرع … حتى إذا ما جئت نحوه يغلق

وكأنما أملي كأزهار نمت … بطريق ريح صرصر تتدفقُ

وتظل أسئلتي تدور مكانها … حيرى علي وهم الخيال تحلقُ

لكنني أرنو إلى أمنيتي … وأظل أسأل هل ترى تتحققُ ؟

القصـــة

القصة الحقيقية

التي تروي لنا

كيف اعتنق قس الإسلام

كتبها بالإنجليزية:

عبد الله محمد الفاروقي

نقلها إلى العربية:

خالد الضو أحمد الفضل

المقدمة

انطلاقا من كوني قسيساً سابقاً وأكبر مسئول في الكنيسة النصرانية أصبح لزاما علي أن أنير بصيرة أولئك الذين ما زالوا يتخبطون في الظلام بحثا عن الحقيقة . وبعد اعتناقي للدين الإسلامي ، شعرت بحاجة ماسة لمساعدة أولئك الذين لم يغشاهم هداية الله بعد ليتذوقوا حلاوة الإسلام إنني أحمد الله العلي القدير الذي أعانني وهداني إلى هذا الدين الإسلامي الذي دعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه الصادقون . إنها فقط رحمة الله هي التي قادتنا إلى الهداية وأمدتنا بالقدرةلاتباع الصراط المستقيم الذي يقودنا إلى النجاح في هذه الحياة الدنيا والحياة الآخرة ولا شيء غير ذلك .

وأشكر الله علي ما لاقيته من شعور طيب وحفاوة من فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن باز عندما اعتنقت الإسلام إنني أبداً لا أنسى ماتعلمته منه في كل لقاء التقيته معه كما أن هناك العديد من الذين قدموا إلى شتى أنواع المساعدات سواء كانت عن طريق تقديم النصح أو التشجيع . وحتى لا أنسى ذكر اسم أحدهم فلن أذكر أسماء . ومن هنا لا أستطيع إلا أن أشكر الله العلي القدير الذي هيأ لي كل أخ و أخت لمساعدتي في الطريق إلى الإسلام .

وأدعو الله أن يكون هذا العمل ذا فائدة للجميع . وأتمنى أن يجد النصارى أملاً في الخروج من تلك الأوضاع المتقلبة التي تهيمن على العالم المسيحي الضخم . وأن حلول مشكلات النصارى لا يمكن ان يصلوا إليها بأنفسهم لأنهم معظم الأحيان منبع مشكلاتهم . وبلاشك أن الإسلام هو الحل الأنجح للمشكلات التي عمت العالم المسيحي وكذلك المشكلات التي تواجه ما يسمي بالعالم الديني ككل .

الفصل الأول

البـــداية

منذ طفـولتي نشأت يغمـرني الخوف من الله . وكـوني تلقيت الرعـاية من جدتي الشديدة التمسك بالدين المسيحي ، فقد كانت الكنيسة تمثل جزء لا يتجزأ من حياتي منذ الصغر . وعندما بلغت السادسة من عمري أدركت تمام الإدراك الوعود الجميلة التي تنتظرني في الجنة عندما أكون إنساناً صالحاً ، وكذا العقاب الأليم الذي ينتظرني في الجحيم عندما أكـون شخصـا طالحا . وقد تعلمت من جدتي أن كل الكاذبين سيكون مصيرهم النار التي ستحرقهم إلى الأبد .

كانت والدتي تعمل في وظيفتين وبالرغم من ذلك كانت تذكرني من وقت لآخر بالتعاليم التي تلقيتها من أمها . وكان أخي الأصغر وأختي الكبرى يبديان عدم اهتمام بما تحذرنا منه جدتنا من الوعيد والعذاب بنفس الجدية التي اتخذت بها الأمور . وأذكر أنني عندما أرى القمر عند الخسوف وقد اكتسى بلون أحمر كنت أبكي لأنني تعلمت أن هذا الخسوف علامة من علامات نهاية العالم وأن القمر سيكون لونه أحمر مثل لون الدم . وعندمـا بلغت الثامنة من عمري تطور هذا الخوف في داخلي ، وكنت أرى في منامي علامات نهاية الدنيا . كان منزلنا يقع بجوار محطة القطارات ، حيث كانت القطارات تمر بانتظام . وأذكر أنني استيقظت فزعا في إحدى الليالي فقط لأنني سمعت صافرة القطار فتخيلت أنني مت وبعثت وأن هذا الصوت ما هو إلا صوت الصور وقد نفخ . كل هذه التعاليم زرعت في داخلي عبر سلسلة من الدروس الشفهية التي كنت أتلقاها ، وكذلك لقراءتي لمجموعة من الأقاصيص التي تسمي بأقاصيص من الإنجيل للأطفال .

في كل يوم أحد كنا نذهب إلى الكنيسة وقد ارتدينا أجمل الملابس . كان جدي هو الذي يصحبنا دائما . وكان ذلك اليوم يستمر لعدة ساعات ، حيث كنا نأتي إلى الكنيسة في تمام الساعة الحادية عشرة صباحا ولا نغادرها إلا عند الثالثة بعد الظهر . وأذكر أنني كنت أحيانا أنام في حجر جدي . وأحيانا كان يسمح لي ولأخي أن نخرج من الكنيسة مبكرا ونجلس مع جدنا في فناء محطة القطارات لنستمتع بمشاهدة القطارات المارة . لم يكن جدي مولعا بالذهاب إلى الكنيسة ولكنه وجد أن من تقاليد عائلتنا الذهاب إلى الكنيسة في كل يوم أحد . وفي وقت لاحق أصيب بدوار جعله غير متزن ونتيجة لذلك لم نتمكن من متابعة ذهابنا إلى الكنيسة بانتظام . هذه الفترة يمكن وصفها بأنها إحدى المراحل المهمة في تطوري .

الفصل الثاني

اعتـــراف

وشعرت بشيء من الراحة لعدم تمكني من الذهاب إلى الكنيسة بعد ذلك . ولكن كنت أشعر بأن على أن أسلك الطريق الخاص بي من الآن فصاعدا . وعندما بلغت السادسة عشرة من عمري بدأت أحضر الدروس في كنيسة لصديق لي كان والده قسيسا . وكانت الكنيسة عبارة عن مبنى صغير تؤمه عائلة صديقي وأنا وبعض زملاء الدراسة كأعضاء . واستمر الحال على هذا المنوال لعدة أشهر قبل أن تغلق الكنيسة أبوابها . وبعد أن تخرجت من المدرسة الثانوية العليا ودخلت الجامعة بدأت أستعيد ميولي الدينية ثانية واكتمل تعميدي في دروس عيد الحصاد ، فقد طهرت روحي وامتلأت نفسي (بروح القدس) كما كان يطلق على مثل هذه التجربة حينئذ . ولأني طالب في الكلية فقد صرت فخراً للكنيسة وكل من عرفني كان يتنبأ لي بالنبوغ . وكنت سعيدا لعودتي مرة أخرى إلى طريق النجاة .

كنت أبادر إلى الكنيسة في كل مرة تفتح فيها أبوابها ، ودرست الإنجيل لأيام وأسابيع . وكنت أواظب على المحاضرات التي كانت تلقي علينا من قبل كبار الأساقفة ورجال الدين . وعندما بلغت العشرين من عمري تم اعتمادي في هيئة كبار الكهنوت وبدأت الوعظ حيث أصبحت معروفا في فترة قياسية . وكنت أصوليا متعصبا أومن بأنه لن ينال الخلاص إلا من كان من زمرة كنيستي وكنت أشجب صراحة كل من لم يأت لمعرفة الرب بالطريقة التي سلكتها أنا .

تعلمت في الماضي أن عيسى المسيح والله شيء واحد . وقد علمت أيضا أن كنيستنا لا تؤمن بعقيدة التثليث ولكن تؤمن بأن عيسى عليه السلام هو الرب والابن وروح القدس . حاولت جاهدا أن أفهم هذه النقطة وحتى اليوم أعترف بأنني لم أفهمها كما ينبغي ولكنها كانت تمثل عقيدة بالنسبة لي .

لقد أعجبت كثيرا بالملابس التي ترتديها النساء والسلوك التقى لرجال الدين ولقد استمتعت بممارسة هذه العقيدة حيث يطلب من النساء أن يرتدين ملابس تغطي كامل أجسامهن ولا يضعن مساحيق التجميل وكن يعتبرن أنفسهن سفيرات للكنيسة . وكنت مقتنعا قناعة يشوبها شيء من الشك أنني قد وجدت طريق الحق وكانت لدي القدرة على أن أحاور أي شخص من أي كنيسة أخرى ذات اعتقاد آخر وكنت

أخر سهم تماما حسب معرفتي العميقة بالإنجيل فلقد حفظت المئات من النصوص الإنجيلية وهذه كانت السمة الأساسية لوعظي وبالرغم من أنني كنت واثقا تمام الثقة من اتباعي الطريق الصحيح . كان داخلي يبحث عن الحقيقة ، وقد شعرت بأن هناك طريقاً آخر يجب أن يتبع للوصول إلى الحقيقة ، وكنت أدعو الله في وحدتي أن يهديني إلى الدين الصحيح وأن يغفر لي ويسامحني إن كان ما أتبعه هو الخطأ . أبداً لم يكن لدي أي إتصال بالمسلمين . وحسب علمي أن الفئة الوحيدة التي كانت تدعي أنها تدين بالإسلام هي جماعة أليجا محمد . وهذه الجماعة كانت تتخذ عدة أسماء منها " المسلمون السود " و " الأمة المبعوثة من جديد " ، وكان في هذه الفترة من نهاية السبعينات رجل دين يسمى لويس فرخان بدأ في إعادة ما يسمى " أمة الإسلام " ذهبت لكي أستمع إلى السيد لويس فراخان وهو يتحدث إلى مجموعة من العمال فتوصلت إلى أن هذه التجربة هي خطوة في طريق تغيير حياتي .

لم يسبق في حياتي أن استمعت إلى رجل أسود يتحدث بطريقة السيد لويس فراخان وشرعت في التخطيط لمقابلته مباشرة بعد ذلك . محاولة مني في إقناعه لاعتناق ديني . وقد استمتعت بتبشير تلك النفوس الضالة وحمايتها من النار مهما كانت . وقد بدأت العمل المكثف بعد تخرجي من الكلية حيث كنت في طريقي إلى ذروة منصبي كقس . وأصبح أتباع أليجا محمد أكثر وضوحا وانتشاراً وفي الحقيقة لقد قدرت جهودهم في محاولة تنظيف المجتمع الأسود من الشرور والآثام التي كانت تنخر فيهم من الداخل فبدأت أساعدهم وأساندهم عن طريق شراء كتبهم ومحاورتهم . لقد حضرت حلقات دروسهم لمعرفة معتقدهم . ومن خلال معرفتي الوثيقة بهم لا أعتقد في أن يكون الرب رجلاً أسود وقد رفضت بشدة استخدامهم للإنجيل كدليل وشاهد ليدعمهم في قضايا معينة ، لأنه كتاب عرفته جيدا . فكنت أتضايق لما أجده من سوء تفسير منهم . لقد درست في العديد من المدارس الإنجيلية وأصبحت ذا دراية ومعرفة بالجدال في آيات الإنجيل . وبعد حوالي ست سنوات انتقلت إلى تكساس والتحقت بكنيستين . كانت الكنيسة الأولى تحت قيادة قس شاب ليست لديه الخبرة والمعرفة الكافية . وفي تلك الأوقات كانت معرفتي بالكتب

المسيحية في تطور وتقدم غير عادي . لقد تشبعت حقاً بالتعاليم الإنجيلية وبدأت أبحث في أعماق هذه الكتب وأدركت تماما أنني أعلم أكثر من هذا القس . واحتراماً له غادرت المنطقة للالتحاق بكنيسة أخرى في مدينة أخرى حيث شعرت أنني في حاجة لأن أتعلم أكثر . كان القس في هذه الكنيسة على وجه الخصوص رجلا متعلما وكان أستاذا ممتازا ولكن كانت لديه أفكار غير مألوفة وغير متبعة في أعراف المنظمة الكنسية . كان يحمل أفكارا متحررة ، كنت أقدر توجهه هذا . وفي حينها تعلمت أفضل درس في حياتي المسيحية وهو "ما كل ما يلمع ذهبا" . وبالرغم من مظهر الكنيسة البراق وجدت أن هناك شرورا لم تخطر على بالي أبدا من قبل . هذه الشرور دعتني للتفكر أكثر وأكثر وبدأت أتساءل في هذه التعاليم التي نشأت عليها .

الفصل الثالث

نظرة إلى حقيقة العالم الكنسي

لقد اكتشفت أن هناك نسبة كبيرة من الغيرة في التسلسل الهرمي للرهبنة المسيحية ، لقد تغيرت الأشياء عما اعتدت عليه . ارتدت النساء ملابس مخزيه ، وبدأ الناس يرتدون الملابس الجذابة من أجل لفت الأنظار وخاصة النساء . وقد اكتشفت أن المال والجشع يلعبان دورا كبيرا في إدارة الأنشطة الكنسية ، حيث تعاني العديد من الكنائس الصغيرة وتقاسي من تردي الأوضاع . وقد حضرت الكثير من الاجتماعات من أجل تخصيص حصص من المال لهم . ولقد أخبرت أنه لو كانت الكنيسة تتميز بوجود عدد محدود من الأعضاء فإنه في هذه الحالة لا ينبغي على أن أضيع زمني للعمل فيها لأني لن أتلقى أي دعم مالي . ولقد أوضحت لهم أنني لا أعمل من أجل الحصول على المال ، بل إنني سأعمل حتى ولو كان الموجود شخصاً واحداً فقط . وسأقدم عملي هذا بلا مقابل . إن هذا الكلام أدى إلى بلبلة واضطراب . بدأت اوجه الأسئلة إلى أولئك الذين كنت أعتقد فيهم الحكمة حتى أعرف وجهات نظرهم وآراءهم ، تعلمت أن المال والقوة والجاه أكثر أهمية من تعليم الدين من الإنجيل . وأنني عندما كنت طالبا أدرس الإنجيل عرفت جيدا أن هناك أخطاء وتزويراً للحق . كنت أعتقد أن الناس يجب أن يعملوا وفق تعاليم الإنجيل ، وأن فكرة إخضاع الناس إلى مثل هذه المفاهيم والأفكار الإنجيلية أعتقد من وحي الشيطان . ولكنني بدأت أسأل أساتذتي خلال دروس الإنجيل أسئلة لم يجب عليها أحد منهم . بل لم يستطع أي منهم أن يوضح لي كيف أن عيسى يمكن أن يكون إلاهاً ورب وروح القدس في وقت واحد . كل هذه الأشياء مجتمعة في آن واحد وهي ليست من التثليث . وأخيرا نجد أن كثيرا من القساوسة يعترفون بأنهم لم يفهموا هذا الأمر . ولكن فقط علينا أن نعتقد في هذا . حالات كثيرة من الزنا والفسوق حدثت ولم يعاقب عليها أحد . بل إن بعض القساوسة كانوا متورطين في تعاطي المخدرات فحطموا حياتهم وأسرهم . ووجد أن بعض رجال الدين وقادة الكنائس مصابون بالشذرذ الجنسي ، بل إن بعض القساوسة ارتكبوا الزنا ببنات زملائهم من أعضاء الكنائس الأخرى . كل هذه الممارسات بالإضافة إلى الأسئلة التي لم أجد لها إجابة بعد جعلتني أبحث عن تغيير لحياتي وأفكاري . وبالفعل حدث هذا التغيير عندما وجدت لي وظيفة بالمملكة العربية السعودية .

الفصل الرابع

البـــداية الجـديـدة

ما إن أتيت إلى المملكة العربية السعودية وقبل أن يطول بي المقام بها حتى اكتشفت الطريقة المختلفة لحياة المسلمين . إنهم يختلفون تماما عن أتباع أليجا محمد ورجل الدين لويس فراخان . إنهم من جنسيات مختلفة وألوان مختلفة ولغات مختلفة . ومباشرة أبديت رغبتي في التعلم ومعرفة الكثير عن هذا الدين الجديد . ولقد دهشت حقا لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأردت أن أعرف أكثر وأكثر . طلبت كتبا من بعض الإخوة النشطين في مجال الدعوة الإسلامية ، ولقد زودت بكل الكتب التي كنت أريدها . قرأتها جميعها واحدا تلو الآخر . أعطيت نسخة من القرآن الكريم وقرأته كاملا عدة مرات في فترة أربعة أشهر . وكنت دائما أوجه الكثير من الأسئلة وكنت أجد أجوبة مقنعة . لقد شعرت أن الإخوة لم ينزعوا إلى التأثير على بأفكارهم بل لو أن أحدهم لم يوفق في الإجابة على أسئلتي فقط يخبرني بأنه لا يعرف الإجابة وفي تلك الحالة يرجع إلى شخص آخر يسأل ويأتيني في اليوم التالي بالإجابة . لقد لاحظت كيف أن التواضع يلعب دورا في حياة هؤلاء الناس في الشرق الأوسط .

لقد دهشت حقا لرؤية النساء يغطين أجسامهن من الوجه إلى القدم . أبداً لم أجد منحنى هرمي لوظائف دينية ولا يسارع أي أحد في المنافسة من أجل الحصول على وظيفة دينية . كل هذه الأشياء رائعة ، ولكن كيف يمكنني أن أتحرر من تلك الأفكار والتعاليم التي لازمتني منذ طفولتي ؟ وماذا عن الإنجيل ؟ إنني أعرف أن فيه بعضا من الحقيقة بالرغم من أنه تعرض للتغيير والتحريف . وحينها لقد أعطيت شريط فيديو لمناظرة بين الشيخ أحمد ديدات والقس جيمي سيوجارت ، ومباشرة بعد مشاهدتي لهذه المناظرة اعتنقت الإسلام . لقد أخذت إلى مكتب الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن باز لأعلن إسلامي رسميا . وهناك استمعت إلى نصيحة عن كيفية إعداد نفسي للرحلة الطويلة . إنها حقا ميلاد حقيقي من الظلام إلى النور . تساءلت كثيرا ماذا يعتقد أقراني بالكنيسة عندما يعرفون أنني قد اعتنقت الإسلام . ولم يطل تساؤلي هذا كثيرا فقد قدر لي أن أعود إلى الولايات المتحدة لقضاء إجازتي . وقد شجبت بقسوة لزيغي عن الحق بل وصفت بالعديد من الأوصاف بدءاً بالخروج عن زمرة الأبرار ، وقد أخبر الناس من قبل ما يسمى بقادة الكنيسة أن تتذكروني في صلواتهم

ويقدر ما يشوب هذا الكلام من غرابة لم أجد أي نوع من الضيق بل كنت سعيداً لأن الله جل جلاله هداني إلى الصراط المستقيم .

أما الآن فأنا أريد أن أكون داعية إلى الإسلام كما كنت في الماضي مبشراً مسيحياً . وهذا بالطبع يتطلب مني الدراسة والاجتهاد ولقد أدركت أن الإنسان يستطيع أن يتعلم وأن ينهل من المعرفة كما يريد في ظل الإسلام . ليس هناك احتكار للعلم في الإسلام . إنه لكل من أراد أن يتعلم . لقد تلقيت نسخة من صحيح مسلم هدية من أستاذي الذي علمني القرآن الكريم . وهنا أدركت الحاجة الماسة لمعرفة حياة وأقوال وممارسات نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم . لقد قرأت ودرست العديد من الأحاديث المترجمة إلى اللغة اللانجليزية . ووجدت أن معرفتي بالإنجيل ذات فائدة عظيمة في تعاملي مع أولئك الذين لديهم خلفيات مسيحية . ولقد بدأت حياتي تتخذ معنيً ، وهذا التغيير لإدراكي بأن هذه الحياة يجب أن تستغل كفترة إعداد للحياة الآخرة إنها أيضا تجربة جديدة لمعرفتي أننا سنكافأ ونجازي حتى على نياتنا فمثلا لو أنك نويت أن تعمل صالحا فإن الله يجزيك على هذه النية خلافا لما في الكنيسة . وإن الطريق إلى جهنم مرصوف بالنوايا الحسنة . ليس هنالك طريق للنجاة فلو حدث أنك ارتكبت إثما فإنه يجب عليك أن تعترف للقس ، وخاصة إن كان هذا الإثم عظيما مثل جريمة الزنا ، لأنه يحكم على تصرفاتك بقسوة .

الخاتمة
الحاضر والمستقبل

بعد انتهاء اللقاء الصحفي بجريدة المدينة سئلت عن نشاطي في الوقت الحاضر وخططي للمستقبل . ففي الحاضر هدفي هو تعليم اللغة العربية والاستمرار في الدراسة من أجل الحصول على معرفة كافية بالإسلام وأنني منذ هذه اللحظة بدأت بالالتحاق بمجال الدعوة وبدأت بإلقاء المحاضرات على غير المسلمين من ذوي الخلفيات المسيحية وإذا أطال الله في عمري سأكتب في مجال مقارنة الأديان لأن مهمة المسلمين في العالم أن يعملوا من أجل التزود بالمعارف الإسلامية . وكوني أحد أولئك الذين قضوا مثل هذه الفترة الطويلة في تدريس الإنجيل فإنني أشعر بشعور خاص بواجبي لكشف كل الأخطاء والمتناقضات الموجودة في هذا الكتاب الذي يؤمن به ملايين الناس . أحد الأشياء الممتعة هي أنني لا أجد مشقة في التعامل مع هؤلاء المسيحيين لأنني أحد الأساتذة الذين درسوا معظم هذه الوسائل الجدلية التي يتبعونها . لقد تعلمت أيضا كيف أجادل باستخدام الإنجيل للدفاع عن المسيحية ، وفي نفس الوقت إنني ملم بالكثير من الجدليات التي كنا قد منعنا كقساوسة من الخوض فيها . إنني أدعو الله أن يسامحنا جميعا على جهلنا وأن يهدينا إلى الصراط المستقيم ، طريق الجنة . وإن الحمد كل الحمد لله ، والصلاة والسلام على نبيه ورسوله الكريم محمد بن عبد الله وآله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين .

الوطـــن

أحمد سعد الدين الأزهري

عندما تشرق الشمس من خدرها تشاهد عم على كما تعودت كل صباح واقفا وسط أرضه منتصب القامة قدماه حافيتان تغوصان في ماء الري جلبابه مرفوع ومربوط في وسطه حاملا فأسه كأنه شجرة تضرب بجذورها في أعماق الأرض كانت أعواد الزرع تهتز فرحة كعادتها عندما يرويها ماء النيل . وكان هو سعيدا بما يرى إذا مد بصره على مدى ما يستطيع أن يرى فاحتوي في نظرة واحدة الأرض والزرع والسماء والأفق البعيد . هنا وعلى تلك الأرض الزراعية على أطراف المدينة تفتحت عيناه على الحياة . . . تحت شجرة الكافور العجوز انزلق من بطن أمه بعد ولادة عسرة لامس جسده الغض أديم الأرض . بل ربما تذوق طعم طينها قبل أن يتذوق شيئاً آخر . عاش فيها أيام طفولته يحبو بين زرعها وتتعثر خطواته بين قنواتها . . . نما مع نمو الأشجار تفجرت فيه طاقات الصبا والشباب بين ربوعها . . . ارتبطت حواسه كلها برائحة الطين . . . والزرع . . . وبصوت صرير السواقي وانسياب الماء في الأرض العطشي وتغريد الكروان في سكون الليل وصياح الديكة مع نسمات الفجر . . . تعود أن يرى أفقا لانهائيا تتناثر خلاله الأشجار والنخيل . . تعود أن يرى قمرا منيرا ونجوما ساطعة . . التحم بالأرض فالتحمت به قامت بينهما صداقة وعشق وحب لا ينضب . . .

رفض أن يكمل تعليمه وآثر أن يبقى في الأرض بجانب أبيه فهو لا يدري له مكانا آخر غير هذا الوطن . حتى عندما تزوج بني له بيتا من الطين على أطرافها وزرع أمامه عريشة عنب ولم يأبه بتذمر زوجته فهو بعيدا عن هنا لا يستطيع أن يعيش ولا يستطيع النوم قبل أن يطمئن على كل مزروع في الأرض .

أصبح بينه وبين النباتات لغة تفاهم وتناغم يشعر بعطشها قبل أن تذبل ويشعر لآلامها قبل أن تمرض ، أولاده تعلموا في المدارس ، وأصبحوا موظفين في المدينة وتركوه يفلح الأرض وحده فلم يكل أو يحزن فهو لا يريد له شريكا في محبوبته

ولا يريد لأي يد أخرى أن تحنو على نباتاته أو ترعاها .

كل صباح يجمع ما نضج من الخضروات والفاكهة يحملها على عربة اشتراها لنفسه يجرها حمار ويذهب إلى المدينة القريبة . . ويقف في مكان تعود عليه منذ زمن بعيد . . فما أن يقف حتى تتجمع حوله ربات البيوت يعرفنه باسمه ويعرفن أنه يحمل الطازج والجيد من الثمار لا يساومنه فهو يبيع لهن بأقل الأسعار . . يرضي بالقليل ويحمد الله . . فيبيع كل ما معه في ساعات قليلة ويعود ملهوفا إلى أرضه . يجلس تحت عريشة العنب يستريح قليلا تعد له زوجته كوبا من الشاي . . . ثم يمر على الأشجار والنباتات يسير على مهل يتفقدها بعناية ويحدثها بصوت مسموع ويؤكد لنفسه أنها تسمعه ويسمعها . .

انتبه على صوت آت من بعيد

. . . يابوي . . . يابوي . . .

. . . أمعن النظر فرأى أكبر الأولاد الموظف في مجلس المدينة قادما إليه بخطوات مهرولة قال قبل أن يلتقط أنفاسه . . يابوي . . الأرض دخلت مخطط المدينة لم يأبه بما قال وتساءل . . . .

- أي أرض ؟

- أرضنا . . هذه .

قال بلامبالاة :

- أي شيء هذا ؟

صاح الابن في فرح :

- يعني الأرض سوف تقسم مباني وتباع بالمتر بأسعار مرتفعة نظر إلى ابنه في دهشة وقال :

- طيب مالنا نحن وهذا الكلام . . إياك أن أسمعك تقول هذا الكلام مرة أخرى عندما أموت اعملوا فيها ما أنتم فاعلون .

. . . . تراخت يده على الفأس . . . جلس متكئا على شجرة الكافور العجوز نظر إلى الأرض في أسى وتمتم . . معقول أبيعها ؟

هل يمكن أن يبيع الإنسان وطنه ومأواه ومستقره ؟ هل يستطيع الإنسان أن يبيع تاريخه وذاكرته وزاده وملاذه ؟

. . . هذه الأرض مات فوقها جده وهو يسير خلف المحراث وفي سبيلها مات جده الأكبر تحت جلد سوط الملتزم التركي عندما ثار ورفض أن يدفع الضريبة لهم بدون حق . هذه الأرض كافح أبوه حتى سدد دينها وانتزعها من بين مخالب المرابي اليهودي قبل أن يستولي عليها . ولن ينسى كيف باع أبوه كل شيء لديهم من أول مصاغ أمه حتى حصيرة البيت كي يجمع ما يسد الدين . . .

هذه الأرض هي ميراث الأجداد عاشوا فيها ودافعوا عنها وسلموها له عزيزة مكرمة فهل يمكن أن يبيعها في ذلك الزمن الغريب ؟

أي عقوق هذا الذي ملأ قلوب الأبناء ؟!! لقد قص عليهم تاريخ الأرض مرات ومرات فلم يأبهوا بما يقول وقابلوا كلامه بلا مبالاة .

حاول مع الأيام أن ينسى ما حدث ولكن الواقع كان كابوسا من حوله .

بدأت المباني تزحف نحو أرضه رويدا . . . رويدا ويتواري الأفق خلف الجدران العالية . . وضاع القمر في السماء فلم يعد يراه حتى حاصرته المباني تماما وأصبحت الأرض محبوسة بين العمارات شرقا وغربا . . . فانحسرت عنها أشعة الشمس واختلطت مياه الري بمخلفات المنازل وبدأت النباتات تذوي وتمرض أمام عينيه وهو لا يستطيع أن يعينها في عثرتها فركبه الحزن والاكتئاب .

فها هي الأرض لم تعد تصلح للزراعة وها هو الوطن يقع بين الحصار .

الحصار الذي يعقبه الابتلاع . . الحصار . . ثم الابتلاع والضياع . . . .

انزوي في عشة الطين . . . عزف تماما عن الحياة .

. . . . اجتمع حوله أبناؤه يحثونه على البيع حضروا كلهم من المدينة والتفوا حول فراشه . .

قال أكبر أولاده :

- توجد شركة استثمار أمريكية سوف تقيم عليها مصنع (لبان) وسوف تشتري الأرض .

رد الرجل في دهشة .

- لبان !!

قال الابن :

- نعم اللبان تعرف كم ستدفع مقابل الفدانين ؟ . . . خمسة ملايين جنيه .

وما أن سمع باقي الأولاد الرقم حتى أصابهم السعار وانطلقوا يعوون في أصوات مختلفة مطالبين ببيع الأرض . . انضمت إليهم أمهم وقالت :

نحن دائما نشقي ونتعب في الأرض من أجل عشرة جنيهات في اليوم ما الذي أخذناه منها أكثر من هذا ؟ دعنا نعيش كباقي الناس في هذه الحياة .

تساءل في حسرة وهل يمكن أن يقيم الوطن بما يعطي وما يأخذ وبحساب المكسب والخسارة ، وجد أن لا جدوى من النقاش وأنه لن يستطيع أن يقف أمام التيار . . . .

دمعت عيناه وقال في صوت مرتعش وقلب كسير لابنه الأكبر :

- إذن بعها والسلام .

. . . وأسرع أكبر أبنائه يتم الإجراءات وقبض مقدم الثمن اشترى شقة فاخرة في المدينة . . وضع فيها أحدث ما أنتجته التكنولوجيا من أجهزة وأثاث .

. . . . كان يوم مغادرة الأرض يوما عصيبا على عم علي ، انتحب كما لم يبك من قبل . . . إنهم ينتزعونه من جذوره وكم كانت جذوره عميقة عمق التاريخ في تلك الأرض .

. . . . لم يجدوا بدا من حمله إلى سيارة الأجرة استسلم للأمر الاستسلام الأخير للموت .

عندما دخل الشقة الجديدة شعر باغتراب . . فليس هنا مكانه صاح الأولاد :

-(شوف يابوي الحاجات الأبهة) أنظر إلى الأثاث الفخم والأجهزة الحديثة . لم يأبه بما سمع ولا بما رأى . . . . جلس متهالكا على أقرب مقعد .

قالت الزوجة :

- قم استرح في غرفتك أنت لك غرفة خاصة .

دخل حجرته وأغلقوا عليه الباب وجد نفسه داخل غرفة مغلقة . . الجدران الأربع

تحيط به من كل مكان . . . أسرع إلى النافذة يفتحها باحثاً عن الفضاء وجد أمامه عمارات شاهقة وجدرانا مرتفعة . . إنه لم يتعود أن يسجن هكذا . . عاش حياته في الخلاء تحت أشعة الشمس . . . وضوء القمر . . . شعر أنه يختنق رويدا . . . رويدا مرة أخرى الحصار ثم الابتلاع . . الحصار ثم الابتلاع . . . لا . . . لا
لن أسمح لهم هذه المرة لقد ابتاعوا الأرض ولكنهم لم يبتلعوني بعد . . لن أسمح لهم أن يبتلعوني .
سأظل صامدا عنيدا . . . خرج من حجرته مهرولا . . . أسرع إلى باب الشقة أسرع خلفة أولاده
يا أبانا إلى أين تذهب . . . عد . . . . عد
سوف ألحق بالوطن قبل أن يضيع
. . . . . أسرع إلى الشارع انتابته قوة لا يدري مصدرها استوقف سيارة نصف نقل وقبل أن يستقلها كان أولاده قد سبقوه إليها جلسوا بجانبه قالوا كلاما معادا وهو صامت كالدهر لا يتكلم هو نفسه لا يدري ماذا يستطيع أن يفعل ولكنه لا بد أن يعود إلى الأرض . . . يريد أن يراها . . . ربما يستطيع أن ينقذها من الضياع . . كل شيء مشوش في عقله إنه يتحرك بعاطفته بقوة دفع ذاتية العودة للوطن شيء جميل حتى لو كان الوطن ركاما وحطاما . . على حدود الأرض قفز من السيارة . . . أسرع إليها ملتاعا وجدها مليئة بالحفارات والجرارات وأكوام التراب ماتت الحياة فيها فلا خضرة ولا زهرة ولا شجرة قائمة .
صرخ من أعماقه : حرام . . . . والله حرام
ركع علي الأرض يقبلها يهمس لها بالحب والاعتذار . . . سامحيني (غصب عني) . . . سامحيني (غصب عني) لم يسمع شيئا من الصرخات التي ارتفعت من حوله .
حاسب . . . حاسب . . . احذر يا ساتر يارب
كان قلاب عربة نقل يرتفع إلى أعلى ثم يلقي بحمولته من التراب التي سقطت فوق عم علي الراكع في وله يناجي أرضه .
انبطح بجسده كله على الأرض فالتحم بها احتوته الأرض تماما وضمته إلى صدرها الحنون سعيدة بعودة ابنها إليها يجود فيها بأنفاسه الأخيرة .

يا فـــاعل الخيـــــر

تركي يحيى آل عردان

لون أسود مستبد بالمكان ، يسرد الظلمة قصة إجبارية تقتحم تصوراته ، لم تكن تريد أن تمكنه من الرؤية ، لولا نجمة في ثقب السماء لمحها مع أول حركة لجفنيه ، مجرد شعوره بقدرته على المشاهدة يخفف العبء المتراكم كطبقات الصخور .

مازال رنين الكلمات متلاحقاً من وراء الباب ، لم ينتظر أن يكون الصوت مرحاً ، لأنه لم يتعود على ذلك ، أو أنه لم يهيء نفسه للتفاؤل بذلك ، انتشل نفسه من الفراش ، وتسارعت خطواته تجاههم .

- اجلس يابني .

اكتسح الوجوم الأعين ، واستغرقت الكلمات أدغال الحزن ، نبرات أبيه أنبأته بأن ينظر للأسفل ، ويمسح بيديه وجهه

- ما الأمر ؟

- أختك !!

وتداعت أشرعة القهر .

لقلب الدمع . . المتهدل .

وتساقط جسمي

فبكيت .

وصرخت .

مسافة أعماقي

أختي

يا مبسم أوراقي

والهاتف مازال يدق

على باب كياني

أقبل

لا تخش شيئا

* * * * * * *

لم يتوقف عن الركض ، ولم تثنه قدماه الهزيلتان أو جسده المتهالك عن المتابعة ، كان وجهه يزداد اصفراراً كلما اقترب من القلب ، حينما ؛ قبض على أكمامه الخاوية ناظراً إلى السيارات المارة ، وانتابته حسرة دوت في أعماقه ، حسرة استشرت بعالمه الداخلي ، لأول مرة يتمنى أن يحضن المال في كفه ، ويحويه بين أصابعه الخمس ، فأطلق خياله لا نهائياً ، وتناثرت الصور غنية مرفهة ، بعد أن أخذ مكانه في كل صورة وابتسامته مرتسمة على وجهه المضيء . . . لكنه قطع ركضه فجأة ، ثم ثبت هنيهة ، وارتجف داخله بشدة ، كانت رجفة هائلة ، نظر إلى الأرض بعدها ، وانسابت دموعه غزيرة ، غزيرة جداً ، هملت كالمطر ، لم يستطع منعها ، ولم يملك إلا أن يطلق العنان ، ويسلم نفسه للبكاء ، والواقع المر .

* * * * * * *

ويلاه من ظلمٍ
تناثر
فوق أشلائي
سنيناً عاجزة
ويلاه
يا مالأ يمزقني
بكل حقارته
ويلاه
يا نفس
انطقيها
في الضلوع الواجفة

* * * * * *

ما كاد يصل إلى الشارع الرئيسي ، حتى انهمر على كتف الرصيف ، مسنداً ظهره إلى صدر البناء ، يلم أضلاعه المنهكة ، يلفه النصب ، ويحرقه اللهاث ، أدار نظره متأملاً في جنبات الشارع ، الناس تنجرف إلى السيارات ثم تغوص في بطن الشارع ، ولهيب شمس الظهيرة ينخر الرصيف ، ليس للأشخاص امتداد كل بحجمه ، لاظلال ولارفقة ، يسيرون منفردين ، لا يلقون التحية ، ولا يبتسمون ، بيع وشراء فقط ، البضائع تتراقص في الأسواق ، والأبنية ممتدة للأعلى كثيراً ، على أن الغبار قد داسها ، مختلفة كاختلاف الأصابع إلا في العلو ، اقترب منه رجل غارق في الوقار ، ابتسم وأعطاه نقوداً وذهب في طريقه ، عندما انتبه إلى أن لباسه وهيئته يتكلمان بغير ما يريد .

- عفواً ياعم ، لست متسولاً .

- المعذرة يابني .

وقبل أن يدير ظهره :

يافتى ، هيئتك ليست من هنا . قادم من القرية ، أريد مؤسسة " . . . " قيل لي إنها في هذا الشارع . - صدق من أخبرك ، أسكن قريباً منها . فإن شئت أن تصحبني فافعل . التحمت يداهما ، وشرعت خطواتهما تلتهم الطريق ، كانا متضادين لكن كالمغناطيس ، واتحد قرع الخطوات على باب الرصيف ، فيما اندلق فم الفتى يسرد القصة وأفرغ الرجل أذنه للاستماع . .

- قلب أختي يموت ، وأمي لا تكف عن النحيب ، دموعها تقتلني ، أما عمي فأحسبه لا يحب أن يرى أمواله تنقص ، هو يعلم أننا لا نستطيع السداد ، لا أدري ماذا أفعـــل .

- توكل على الله ، ويرزقك من حيث لا تحتسب .

- لو كنت ثريا لما . .

- لا يا بني ، أن تموت فقيراً خير لك من مال الدنيا .

- لمـــاذا ؟

- لكي لاتسأل عن مالك ، من أين اكتسبته وفيم أنفقته .

- فكيف أعيش ؟

ربت الرجل على كتفه ، وهزه برفق :

- بالتوكل ، وبذل السبب لكن حذار أن يصبح همك .

- وقلب أختي .

- سيعيش ، وتعيش أختك ، فقط ادع الله ، وتأكد من استجابته لك ، ثم اذهب إلى عمك .

- أعلم مسبقاً أنه لن يعطيني .

- عندها تجدني في ذاك الجامع .

- أنت شيخ المسجد !

- تجدني هناك !! .

* * * * * * * * *

مع الغروب ، والشمس تتهادى ، وتستل الذهب ببطء شديد ، ينتشي القلب ، ويضخ الدم في عروق الابتسامة ، واحمرار الأفق يزيد لهب الفرح ، والأم تحمل ابنتها ، تضمها بكل معاني الحنان ، وتطفو على عينيها دمعات السرور ، فيما يقف الفتى رافعاً رأسه ، ينظر إلى السماء ، يناجيها ، ويده في يد شيخه مرة أخرى ، حينها فقط ، يعلن الكلام انسحابه .

دراســـات نقدية

أساطير القاموس المحيط

د / أحمد رزق مصطفى السواحلي

تمهيد :

ظفر القاموس المحيط بشهرة علمية بين معجمات اللغة ، وذهب بصيت حسن بين العلماء والأدباء ، حتى صار - بإيجاز عبارته ولمحته الدالّة وعجيب اختصاره وضبطه - موضع ثقة الراسخين في العلم ، وأسرف بعضهم في توثيقه ، فزعم أن اللفظة لا تَرِد في أثنائه جديرة بأن تطرح وتُنْفَى من الاستعمال ويُقْضَى عليها .

والحق أن القاموس قد تهيأ له من الأسباب ما أحله في نفوس العامة والخاصة هذا المحل الذي لا يداني ، وهو - وإن اشتهر بالقاموس المحيط فمعناه : البحر الأعظم ، كما ذكر مؤلفه . (١)

وقد أراد المؤلف بهذه التسمية شيئاً من الإبداع على عادته في تنميق عنوانات كتبه، عنى بذلك إحاطة الكتاب بلغة العرب كإحاطة البحر للمعمور .

وربما سمي الكتاب بأسماء أخرى منها " القاموس المحيط والقابوس الوسيط " ، قال مؤلفه : " هذا آخر القاموس المحيط ، والقابوس الوسيط ، عنيت بجمعه وتأليفه . . " ، (٢) ومن أسمائه التي يميل بعض الدارسين إلى أنها الأصل وأن غيرها اختصارٌ عنها : القاموس المحيط والقاموس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط " - أي مفرقاً - وذلك تمسكاً بما ذكره الشارح في آخر جذر (وجد) ، قال : " بخط المصنف رحمه الله تعالى ما نصه : هذا آخر الجزء الأول من نسخة المصنف الثانية ، من كتاب القاموس المحيط والقاموس الوسيط في جمع لغات العرب التي ذهبت شماطيط . . (٣) ، ويبدو أنها سجعة وردت على ذهن صاحب الكتاب في أثناء ختمه الجزء الأول ، ولم يقصد منها أن تكون عنواناً على الكتاب ، أو أن هذه التعقيبة من وضع بعض نساخ الكتاب ؛ ولذا لم تشتهر هذه التسمية اشتهار المختصرة الأولى .

مؤلـف القـــاموس :

مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروزابادي اللغوي الشافعي ، قاضي القضاة .

ولد بكارزين من أعمال شيراز ببلاد فارس سنة تسع وعشرين وسبعمائة للهجرة ، كان ذكيا سريع الحفظ ، تلقي العلم عن أبيه وغيره كأبي عبد الله محمد بن يوسف الأنصاري الذي أقرأه صحيح البخاري وجامع الترمذي بتروٍّ وإمعان ، وكان المجد في شبابه محباً للسفر والترحال ، هاجر إلى العراق ملتقى الثقافات آنذاك ، وقرأ بها القراءات العشر ، ثم إلى الشام وأقام بالقدس نحو عشر سنوات ، انتفع خلالها بما تلقاه عن علمائها كالعلائي والشمس العودي وغيرهما ، وهب يحاضر الطلاب ويتصدر مجالس العلم ؛ فكثر طلابه وظهرت فضائله ، وكان من تلاميذه في الشام صلاح الدين الصفدي . . ، ثم رحل إلى مصر للاستزادة من علوم أعلامها ، فحصّل فيها من علوم التفسير والفقه واللغة ماروى ظمأه ، وكان ممن أخذعنهم في مصر : العز بن جماعة، والمظفر العطار ، وابن نباتة .

ورحل إلى مكة والهند ، ثم أقام بالحجاز مدة ، وألقى عصا الترحال بزبيد من بلاد اليمن ، وفيها دفن سنة سبع عشرة وثمانمائة للهجرة ، بعد أن خلف تراثاً من العلم ملأ به الأسماع ، وطائفة ممن تلقوا عنه صاروا فيما بعد من مشاهير العلماء ، كابن حجر والصفدي والبهاء بن عقيل والجمال الأسنوي ، وغيرهم (٤) .

ومن مؤلفاته : أنواء الغيث في أسماء الليث (لغة) ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (تفسير) ، تحبير الموشين فيما يقال بالسين والشين (لغة) ، تنوير المقباس في تفسير ابن عباس (تفسير) ، الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف (لغة) ، شرح على : "بانت سعاد" (أدب ولغة) ، اللامع المعلم العجاب الجامع بين المحكم والعباب (معجم لغوي لم يتمه) ، مقصود ذوي الألباب من علم الإعراب (نحو) . . . وغير ذلك من كتب الحديث والتاريخ ، إلى القاموس المحيط موضوع هذه السطور .

مـادة القـامـوس :

القاموس المحيط معجم لغوي أبان المجد في مقدمته عن غايته من تأليفه ، وهذه الغـايـة تتلخص في الجـمع والإيجـاز ، إذ كـان أراد أن يصل إلى هدف الجـمع والاستقصاء بتأليف كتاب : (اللامع المعلم العجاب . .) لكنه ضمنه في ستين سفراً يعجز عن تحصيلها الطلاب ، فألف القاموس في قالب من الإيجاز والإحكام ، وجعله - كما ذكر - محذوف الشواهد ، مطروح الزوائد (٥) ، وقد ظهرت من خطته عدة ظواهر أهمها : أنه راعى الاختصار ابتغاء تيسير الأمر على الطلاب ، فحذف الشواهد ، ونكب عن الخلافات وعَرْض الآراء ، ولم يعزُ الأقوال ، وتجنب التكرار قدرما أمكنه ، ولم يورد من الشواهد في القرآن والحديث والشعر وأقوال العرب إلا اليسير ، وهذا كله يدور في فلك ظاهرة الإيجاز التي حرص عليها بل كلف بها حتى بالغ فيها ، فوضع رموزاً حرفية استغنى بها عن كلمات نصية ، كإشارته إلى المؤنث بقوله : "وبالهاء . . " ويومي إلى الشيء المعروف بحرف (م) ، والموضع (ع) ، والقرية (ة) ، والبلد (د) ، والجمع (ج) ، وجمع الجمع (جج) . . وقد نظم بعض ذلك في قوله (٦) .

ومافيه من رمز فخمسة أحرف ... فميم لمعروف ، وعين لموضع
وجيم لجمع ، ثم هاء لقرية ... وللبلد الدال التي أهملت ، فع

لقد مضى الفيروز ابادي في القاموس تحكمه خطة صارمة قوامها الإيجاز ، ولم يشأ أن يحيد عنها - في اللغة - قيد شعرة ؛ حتى دارت أغلب نقود اللغويين عليه حول القصور والغموض والايهام وإغفال الشروح والشواهد . . . وكل ذلك من لوازم الإيجاز .

ويغني في الاستدلال لذلك أن نسوق نصا من القاموس وما يقابله من شرحه في تاج العروس ، لترى كيف طبق المجد خطة الإيجاز في العبارة وحَذْف الشواهد ، قال في (صغو) : "وأصْغى : استمع ، وإليه : مال بسمعه ، والإناءَ : أماله ، والشيءَ : نقصه ، والناقةُ : أمالت رأسها إلى الرجل (٧) "

إن بين أيدينا خمسة استعمالات لصيغة (أفعل) الرباعية من الجذر (صغو) ، وقد

وقد أوردها المجد فيما لا يزيد عن سطر ونصف دون عزو إلى الكتب التي نقل منها ، أو استشهاد لأحد تلك الاستعمالات ، مما أحوج شارحه إلى نحو عشرة أضعاف ما ذكره في القاموس حتى يعزو النقول ويوثق الآراء ويستشهد للاستعمالات ، قال الزبيدي الشارح : "وأصغى فلان : استمع ، وأصغى إليه : مال بسمعه نحوه ، كما في الصحاح ، وفي المحكم : أصغى إليه سَمْعَه : أماله ، وأصغى الإناءَ للهرة : أماله ،وفي المحكم : حرفه على جنبه ليجتمع ما فيه ، ومن المجاز : أصغى الشيء إذا نقصه ، كان الأولى أن يقول : أصغى حقه نقصه - كما في الأساس - أو أن يقول بعد أماله : ونقصه - كما في الصحاح - ونصه : يقال فلان مصغى إناؤه إذا نقص حقه ، وأنشد ابن سيدة للنمر بن تولب :

وإنّ ابنَ أختِ القومِ مُصْغَى إناؤه ... إذا لم يُزاحم خالَه بأب جَلْد

وقيل : أصغى إناءه إذَا وقعَ فيه ، نقله الزمخشري ، وأصغت الناقةُ إصغاءً ، إذا أمالت رأسها إلى الرجل ، وفي بعض نسخ الصحاح : إلى الرحل كالمستمع شيئاً ، وذلك حين يشد عليها الرحل ، نقله الجوهري ، وأنشد لذي الرمة :

تُصْغي إذا شَدّها بالكَوْر جانحة ... حتى إذا ما استوى في غرزها تَثب (٨)

لقد بات واضحا أن خطة الاختصار عند المجد قائمة على أساس ذي شقَين :

الأول : إيجاز العبارة ، وذلك بتجنب عرض الآراء أو الخلافات أو نسبة الأقوال ، مع الإشارة إلى مراده أحياناً بحرف يغني عن كلمة (٩) .

الثاني : تجنب حشد الشواهد على اختلافها من قرآن وغيره ، ويكفي أن نعلم أن القاموس المحيط كله اشتمل على خمسين ومائتي بيت وشطر من الشعر (١٠) ونحن نستطيع أن نحصي مثل هذا العدد وأكثر من خلال مطالعة باب واحد من أبواب لسان العرب أو تاج العروس .

نحن لا ننعى على الفيروزآبادي أن أوجز في عبارته ، ولا نستطيع أن نؤاخذه أيضاً على حذف الشواهد ما دام هذا منهجه الذي ارتضاه واختطه لكتابه وصرح به في مقدمته كما أسلفنا ؛ لأن تحديد الخطة والنص عليها والالتزام بها - كل هذا في حد ذاته منهج علمي واضح ، وهو - والوضوح - من أهم ركائز المنهج العلمي

للدراسات التي تعتمد على اللغة المكتوبة (١١) ، وهو أيضاً شرط في الفرضيات - أعني المسلمات - كما هو شرط في التدوين بما ينتظمه من مادة ومصادر ومصطلحات .

ولقد كان يمكننا - في ضوء ما تبين من إيجاز القاموس - أن نصنفه على أنه معجم لمتن اللغة دون بسطها أو شرحها لو لا ما صرح به مؤلفه في المقدمة ، وما لفتنا من مادته واقتصاره في اللغة - وهو معجم لغوي يفترض أن ألفاظ اللغة ومعانيها والاحتجاج لها من أسمى أهدافه - ثم هو على النقيض من ذلك توسع كثيراً في إيراد الحكايات والقصص الأسطورية مما لا شأن للغة به ، توسعاً يخرج به عن مصطلح المعجم وأهدافه وحد المعجمية ، بل يعد كثير مما ذكره في هذا الشأن - وسنذكره - من قبيل الخرافات ، وذكرها على هذا النحو المفصل وبهذا الكم في معجم لغوي مما يضحك الثكلي ، ومن ثم أشار الشدياق إلى تلك الثلمة في القاموس ونبه عليها (١٢) .

عن الأسطورة والخرافة والوهم :

ترتبط الأسطورة في أذهان العامة بالكذب والباطل والخبر الذي لا أساس له ولا فائدة ترجى من ورائه ، وهذا المفهوم السائد مأخوذ من الاشتقاق اللغوي والمعنى الاصطلاحي للكلمة ، فالأسطورة : « قصة خرافية تدور حول الآلهة والأبطال ، والأحداث الخارقة للعادة ، والأباطيل التي تنسب إلى غير الأنبياء وأصحاب الكرامات (١٣)

ويرى بعض الباحثين أن أصل الكلمة يوناني : هستريا = حكاية ، تاريخ ، ومنه كلمة :ISTOREYA إسطوريا بالمعنى نفسه في السريانية ، على الرغم من أننا نرى أنها من المشتركات اللغوية القديمة الموروثة ؛ لورودها في غير لغة قديمة بالمعنى ذاته ، فهي كلمة توارثتها أمم كثيرة ، ومن ثم فلا وجه للحكم بأصالتها في بعض اللغات وفرعيتها في الأخرى .

وقد ورد اللفظ بصيغة الجمع في القرآن الكريم تسع مرات (١٤) ، وهو فيها جميعاً قد أضيف إلى لفظ (الأولين) - أساطير الأولين - جاء في تفسيرها : هي الأباطيل والأكاذيب ، والأحاديث لا نظام لها ، جمع إِسْطار وإِسْطارة وإِسْطير

وإسْطيرة وأسطور وأسطورة (١٥) . وفي قوله تعالى (حتى إذا جاءوك يجادلونك يقولَ الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين) قال المفسرون (١٦) : أساطير جمع أسطارة ، وهي الترهات ، قاله أبو عبيدة ، وقيل : أسطورة كأضحوكة . . . يقال : سطر علينا أي أتانا بالأباطيل أو بأحاديث تشبه الباطل ، فتأويل (يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين) : يجعلون كلام الله وأصدق الحديث خرافات وأكاذيب وهي الغاية في التكذيب . ويلفت انتباهنا إضافة كل ماورد من هذه الكلمة في القرآن الكريم إلى لفظ : (الأولين) ، ذلك أن الأساطير تنسب عادة إلى عصور غابرة موغلة في القدم ، ولا يمكن عزوها إلى حال حاضرة ؛ لأن الواقع ينفيها ويقضي بكذبها .

والأسطورة – من حيث هي – قديمة ، وقد تداولت كل أمة أساطير خاصة بها عبرت عن فكر أسلافها وصورت أمجادهم وعقائدهم ، ومازالت الأسطورة مادة خصبة في آداب الأمم يسبح فيها الخيال ليمتزج بالواقع .

ولدينا لفظ يزاحم لفظ الأسطورة في المدلول ، وهو الخرافة ، قالت العرب (١٧) : حديث خرافة الأسطورة وهو المستملح من الكذب ، والخرافة نسبة إلى رجل من عذرة أو جهينة ، زعموا أن الجن اختطفته ثم رجع إلى قومه فكان يحدث بأحاديث مما رأى يعجب منها الناس فكذبوه ؛ فجرى على ألسن الناس التعبير عن كل حديث كذب مستملح بأنه حديث خرافة .

حقا لم يرد هذا اللفظ في القرآن الكريم مطلقاً ، لكن العرب استعملته فيما ذكرنا ، قال شاعرهم :

حيــاة ثم موت ثم بعث حديث خرافة ياأم عمرو !

وكثير من الباحثين يجعلون الحكاية الخرافية لوناً من ألوان الأساطير (١٨) ، ومن يميز بين الأسطورة والخرافة منهم يجعل آية ذلك ارتباط الأسطورة بالتراث الفصيح ، بخلاف الخرافة التي تشيع في العامية على اعتبار أنها جزء من الحكاية الشعبية .

نحن لا نميل إلى التمييز بينهما من هذه الجهة ؛ لأن كثيراً من الخرافات تُعالَج بالفصحى ، كما أن بعض الأساطير تتوارث العامة روايتها باللغة المبتذلة ، ومن هنا

لا نأمن امتزاج الأسطورة بالخرافة (١٩) .

ويمكننا أن نقرر عدة أمور ترتبط بموضوع هذا البحث ويقوم عليها ، وهي أيضاً تضع بعض الحدود الفاصلة بين الأسطورة والخرافة :

إن موضوع الأسطورة في قضية (أساطير القاموس) أوسع من ذلك التحديد الاصطلاحي الذي سبق نقله ؛ ذلك أن المراد بالأسطورة هنا لا يقتصر على القصة الخرافية ، وإنما هو كل أمر خارق للعادة نادر الحدوث أو مستحيله صحيحا كان أم غير صحيح ، سواء أكان موضوعه دينيا أم اجتماعيا أم جغرافيا . . أم غير ذلك .

إن جمهور الأساطير المورثة ينتمي إلى عهود ما قبل الديانات السماوية السائدة ، وأما الخرافات فهي في الغالب أحدث من ذلك ، ومن هنا تضاف الأساطير في التعبير الفصيح إضافة تشكّل جزءاً من معناها التاريخي القديم وتنبيء عن عمرها الذي يمتد إلى عهود سحيقة من التاريخ الغابر ، قالوا : أساطير الأولين (٢٠) ، ولم يفعلوا ذلك في الخرافة ؛ حيث لا تعمر كثيراً ، تنطلق على هيئة شائعة ، ثم لا تلبث فتموت أو تطوى صفحتها ، إذ " يبدو أن أصل الخرافة مجرد شائعة ، ثم زيد فيها وأصبحت جزءاً من تراث الشعب المنقول (٢١) . . " ، وغالباً ما تكون أقصر عمراً وأقل مكثاً من الأسطورة ، فإذا تضمنت الحكاية الخرافية موضوعاً دينياً قديماً فهي – في الأصل – أسطورة ابتذلت لغة ومضموناً بعد أن عوجلت باللسان الشعبي وتزيد فيها الرواة وحرفوها ، وبالتالي يمكننا أن نرد بعض الخرافات إلى أصل أسطوري لكنها تعرضت لزيادات القصاصين وتحريفاتهم .

– وبعض الأساطير العتيقة تناولتها الأقلام بالمعالجة الحديثة ؛ فأضفت عليها مسحة من الواقعية وقربتها إلى أذهان الناس ، خصوصاً ما تم تحويله منها من لغة مكتوبة إلى مشاهد مرئية ، كرحلات السندباد وصراع الإنسان مع الشر ممثلاً في ذلك الكائن الأسطوري الهائل والتنين الخرافي . . وغير ذلك .

– هناك طائفة مما يصنف في ضمن الأساطير والخرافات لا نستبعد أن تكون ذات أصل قديم في الواقع المادي ، كقصة حي بن يقظان لابن طفيل ، تلك التي صورت في شرائط مرئية في العصر الحديث ، ونحن لانستبعد هذا أيضاً مع بعض ماذكره

الفيروز أبادي في القاموس مما سننقله أو نشير إليه في هذا البحث .

– للأساطير والخرافات كائنة ما كانت في خيال الراوي وفي النص المكتوب شخصيتها وحدودها ورموزها الدلالية التي يجب أن تكون محل اعتبار في أذهان الدارسين لا على اعتبار صدقها ، وإنما على اعتبار أنها تمثل نمطاً من أنماط تفكير الشعوب وخيالهم ومدى تحضرهم وإن انفصلت عن عالمنا الزمني الذي نعيشه ، قل إن شئت هي تاريخ التفكير الأم في حقب زمنية سالفة .

* * * * *

لا شك أنه كانت للعرب في جاهليتهم أساطير وحكايات خرافية " ولكن ما وصلنا من تراث الجاهليين وإن تضمن شيئاً من الخرافات – لا بد لنا على رصيد أسطوري يذكر بالتقدير (٢٢) " ، ويرجع الدارسون قلة ما وصلنا من الأساطير الجاهلية إلى أسباب منها (٢٣) .

١ – أن الإسلام وقف سداً منيعاً في وجه الوثنية الجاهلية وكل ما من شأنه أن يمس جوهر العقيدة ، ومن ثم حجب الإسلام كثيراً من أساطير الجاهلية فلم تصلنا .

٢ – بعد الشقة وطول الأمد بيننا وبين الأسطورة الجاهلية ؛ مما أدى – في النهاية – إلى نسيان هذا الجانب من التراث الجاهلي .

٣ – اعتزاز العربي بشخصيته والتزامه بالواقع ، ومن هنا لم يسمح للخيال أن يلعب به أو يخدعه زيفه وبريقه ، فما ينبغي له – وهو الحريص على شخصيته الملتزم بواقعه – أن يكون صريع خيال أو يعيش في ظلال من الزيف والوهم !

وهذه الأسباب بجملتها ضعيفة أوْ هَي من خيط العنكبوت ؛ لأن الإسلام لم يقف سداً في وجه التراث المتصل بالحياة العربية الجاهلية ، بل إن أحداً لا ينكر أن جمهور ما وصلنا عن الحياة العربية الجاهلية إنما كان عن طريق القرآن والشعر ، ودارس الحياة الجاهلية اليوم إنما يعتمد – في المقام الأول – على نصوص هذين المصدرين ؛ لتمده بسمات المجتمع الجاهلي وما ساده من عبادات وشعائر وطقوس وعادات ، وما الأساطير إلا حكاية عن تلك الطقوس والشعائر . . .

وأما بعد الشقة وطول الأمد فلا يمكن أن يكونا سبباً في نسيان الأسطورة ، فقد

احتفظت الذاكرة العربية قبل التدوين - بالشعر والقرآن والحديث والنوادر والحكم والأمثال . . ولا يمكن - إزار هذا - إدعاء نسيان تلك الذاكرة للأسطورة والخرافة الجاهلية فقط دون غيرها مما احتفظت به ، فإما أن هذه الذاكرة قد احتفظت بكل شيء وإما أنها نسيت كل شيء (٤) .

واعتزار العربي بشخصيته أيضاً ليس سبباً في إهمال الجانب الخيالي المتمثل في الخرافة والأسطورة . . ولا شك أن هذه التأويلات لقلة الأسطورة المروية في تراث العرب تسيء إلى الثقافة العربية .

ومهما يكن من أمر فإن قلة الأسطورة العربية أمر واقع لا يسعنا إنكاره ، ولكن علينا أن نبحث عن أسباب حقيقية وراء ذلك :

لقد شهد العصر العباسي أكبر حركة لتنقية التراث العربي من الخرافات والأساطير التي رأى مدونو التراث في ذلك العصر أنها لا تتفق وواقع المسلمين في ذلك الوقت ، كما أنها تنافي - في جوانب منها - شيئاً من مباديء الإسلام حسب رؤية مدوني ذلك التراث في تلك الحقبة الزمنية . . . ومن هنا يمكن عدّ ذلك سبباً من أسباب نُدرة الأسطورة العربية .

ويعض أسباب ندرة الأسطورة والخرافة في التراث العربي يمكن ردها إلى أن العصر الجاهلي - الذي وصلتنا أنباؤه وشهد بعد ذلك البعثة والرسالة - لم يكن من عصور التلقائية التي تترعرع فيها الأساطير وتنمو فيها الخرافات ، لكن ذلك العصر شهد - لا شك - معرفة العربي الجاهلي بما نقصده بالأسطورة والخرافة وحدهما الحقيقي ، ولولا ذلك لما استطعنا أن نؤصل لهذين الاستعمالين لغوياً من خلال ما نطق به السلف . إن كثيراً مما شاع على ألسنة العرب من خرافات وأساطير راجع إلى تأثرهم بالفرس والهنود واليونان أو نقلهم هذه الأساطير فعلاً عن تلك الأمم مع تحريفها كي نوائم الحياة العربية ، لكن هذا لا ينفي معرفة العربي الجاهلي بالأسطورة مطلقاً ، فإن كثيراً من مدوني التراث العربي أشاروا إلى أساطير وخرافات عربية الأصل والنشأة ، غير أن طائفة من العقلانيين منهم - مثل الجاحظ ٢٥٥ هـ - دونوا شكوكهم حول تلك الأساطير التي شاعت بين العرب ، ومن ثم قل احتفال الناس بها ، وربما باد أكثرها

نتيجة الشك فيها وإهمال روايتها ، إضافة إلى ارتباطها في أذهان الناس بالكذب .
لقد أورد الجاحظ طرفاً عن علاقة الشعراء بالجن ، ورؤية ابن آدم للشيطان ، ثم قال : " والعامة تزعم أن الغول تتصور في أحسن صورة إلا أنه لا بد أن تكون رجلها رجل حمار . . . وذكروا أن العامة تزعم أن شق عين الشيطان بالطول . . (٢٥) "
وذكر هو أيضاً بعض الطرائف عن علاقة الإنس بالسعلاة والجن وغيرهما ، لكنه شكك في صدقها وغمز في الإيمان بها ، فقد أورد حكاية السعلاة التي أقامت في بني تميم حتى ولدت فيهم ، فلما رأت برقاً يلمع من شق بلاد السعالي حَنَّتْ وطارت إليهم ، وأنشد الشعراء في ذلك شعراً ، ثم علق بقوله : ولم أعب الرواية ، وإنما عبت الإيمان بها ، والتوكيد لمعانيها ، فما أكثر من يروي هذا الضرب على التعجب منه ، وعلى أن يجعل الرواية له سبباً لتعريف الناس حق ذلك من باطله (٢٦) . . "
ومن هنا كان لهؤلاء العلماء من مدوني التراث العقليين دور لا ينكر في التشكيك في كثير من الأساطير والخرافات العربية تارة ، أو الدعوة إلى نبذها واطراحها تارة أخرى ! ولقد استخدم الأدباء والقصاصون العرب ما وصلهم من تلك الأساطير مادة ملهمة ، فأفرزت قرائحهم صوراً أدبية وشعرية تنطق بالكثير عن علاقة الإنسان بالجن والشيطان وعالم الخوارق (٢٧) ، وتصور ذلك بعض طرف كتاب الأغاني ومقامات الهمداني ، وبخاصة المقامة البغدادية ، وهذا يعني أن بعض الأساطير العربية الموروثة هي عربية الأصل والأرض والأرومة ، ويعنينا أن نشير إلى أن ما حشابه المجد الفيروزابادي قاموسه خليط من الأساطير العربية وغيرها .
لكن الأسطورة العربية تعرضت لغير قليل من المسخ والتحريف وعبث العابثين ، وقد كان من أهم أسباب هذا ذلك الصراع الذي نشب بين العدنانية والقحطانية ، فلسنا نغالي إذا افترضنا أن ذلك الصراع أدى فيما أدى إلى اختلاق بعض القصص الأسطورية ووضعها وضعاً ، وكان من أشهر الرواة العرب الذين سلكوا هذا الطريق : وهب بن منبه والهمداني وعبيد بن شرّية ، كما أن بعض الأحاديث التي تتعلق بهذا الموضوع تظهر عليها سمات الوضع ، وآية ذلك ما ورد في حديث إسلام تميم الداري الذي خرج هارباً من أرضه في الشام ، فضل في البحر وصادف أهوالاً

وغرائب ، منها : الجساسة - الشيطان (٢٨)!

ولقد جعل بعض القمطانيين من أجدادهم أصحاب بطولات خارقة والأمثلة . تجدها في أخبار سيف بن ذي يزن الحميري ، والهميسع ، وتُبّع الأكبر ، وشمريهرعش ... ولا ننكر إلى ذلك أن أخبار هؤلاء تعرضت لمسخ وزيادة وتحريف على السنة الرواة أيضاً عبر التاريخ ؛ مما زاد في غرابتها وارتباطها بالأساطير. وبرع القاصّ الشعبي في إخفاء عنصري الصدق والكذب في الخرافة ، لا على مستمعيه فقط ، وإنما على الرواة العلماء في بعض الأحيان أيضاً !

فقد ظن طائفة من العلماء - بعد مضي زمن على شيوع تلك الخرافات وروايتها - أنها من مرويات العلماء المدققين ، فأحسنوا الظن ونقلوها دون أن يكون لها سند صحيح موثوق أو راو معروف ، ولم يشك في هذه الروايات إلا نفر من العلماء العقليين كالجاحظ علىّ ما أشرنا (٢٩) ، وهنا يجب التفريق بين نوعين من الرواة الراوي الشعبي الذي يملك حرية أكبر في التلاعب بالنص وتحريفه عن وجهته لإرضاء جمهوره ، والراوي المدقق العالم الذي يتقيد بالنص ويصب مجهوده على تحريره سنداً ومتناً ؛ كي يصل به إلى أقرب صورة من الحقيقة ، لا يعنيه إلا إحقاق الحق ، دون أن يوجهه ذوق جمهور أو غير ذلك .

ويبدو أن المجد الفيروزابادي كان أحد أفراد تلك الطائفة التي نقلت الأساطير والخرافات دون تمحيص ؛ اغتراراً بصحة روايتها وتوهماً لصدق النقلة فيها ، وربما رغبة في تضمين القاموس من الطرف والغرائب ما يلفت الانتباه إليه من بين المعجمات اللغوية ؛ فحشد فيه عدداً من الأساطير والخرافات يقطع باتجاهه هذا ، واستطرد في الحديث عنها على خلاف شرطه ، وكما لم يفعل في عرض مادته اللغوية !

مع أساطير القاموس المحيط :

نتتهي مما قدمنا إلى أن الأسطورة حكاية تاريخية أو دينية أو جغرافية أو علمية . . قوامها الخوارق والأعاجيب التي لم تقع بتفاصيلها ولا يقبلها العقل على حالها ، فإن كان شيء منها يستند إلى واقع فقد تُزيِّد فيه كثيراً ، حتى إننا عندما نريد أن ننفي وجود أمرما أو نستبعد حدوثه نقول عنه إنه أسطوري (٣٠) . وقد تضمن القاموس المحيط أنواعاً من الأساطير والخرافات ، منها ما يتصل بالعلم والجغرافيا والدين ، وأكثرها يتصل بالتاريخ والسير .

أ - **أساطير علمية** :

نعني بها تلك الحكايات التي ذكرها المجد وأثبتت الكشوف وحقائق العلم الحديث أنها على خلاف الواقع ، فمن ذلك قوله :

" الفَقَنَّس - كَعَمَلَّس - طائر عظيم بمنقاره أربعون ثقباً يصوِّت بكل الأنغام والألحان العجيبة المطربة ، يأتي إلى رأس جبل فيجمع من الحطب ماشاء ويقعد ينوح على نفسه أربعين يوماً ، ويجتمع إليه العالم يستمعون إليه ويتلذذون ، ثم يصعد على الحطب ويصفق بجناحيه ؛ فتنقدح منه نارٌ ، ويحترق الحطب والطائر ويبقى رماداً ؛ فيتكون منه طائر مثله (٣١) . . "

وقد ذكره شارحه في تاج العروس موثقاً عن حياة الحيوان للدميري ، ثم شك في صحته ؛ إذ علق على قول المجد : " ذكره ابن سينا في الشفا . . " بقوله : " فالعهدة عليه (٣٢) " يعني ابن سينا . وهذه الخرافة لم يذكرها جمهور أصحاب المعجمات .

- قال المجد : " اللوف بالضم . . . نبات له بصلة كالعُنْصُل ، وتسمى الصرّاخة ؛ لأن له في يوم المهرجان صوتاً يزعمون أن من سمعه يموت في سنته (٣٣) " ، وأورده الشارح ولم يعلق عليه (٣٤) .

- السمندل : طائر بالهند لا يحترق بالنار (٣٥) » ، واستهوت الخرافة شارحه ؛ فزاد : « ويقال إنه إذا هرم وانقطع نسله ألقى نفسه في الجمر ؛ فيعود إلى شبابه (٣٦) ! .

- وقال في الزِّبَعْرِي إنها : دابة تحمل بقرنها الفيل (٣٧) " ، وقال شارحه : قيل إنها الكركدن ، وقيل نوع يشبهه (٣٨) "

- وقال عن الرخ أيضاً : طائر كبير يحمل "الكركدن" (٣٩)

- ومن أساطيره العلمية ماذكره في (شحث) قال : شحيثاً : كلمة سريانية تنفتح بها الأغاليق بلا مفاتيح (٤٠) ، فسخر منه الشدياق قائلاً : وهو باطل من وجهين :

الأول : أن صيغة هذه الكلمة لا توافق صيغ اللغة السريانية ، وإنما يوجد فيها شحتو بالتاء أي الوسخ ، وشحد بالدال وهو البرطيل ، وأظن هذا هو الذي يفتح الأغاليق بلا مفاتيح . كيف يكون عند السريان هذه الكلمة وهم لا يعرفونها ولا يستعملونها

فتكون الدنيا كلها مسخرة لهم ؟ (٤١) ، قلت : لا مناسبة بين ما ذكره المجد وعلوم العربية ، بل هو بعلوم السحر وحساب النجوم أوفق .

ب - أساطير جغرافية :

ذكر الفيروزابادي طائفة من الأساطير الجغرافية تلك التي تتصل بالكون وأحواله وتقاسيمه من جماد وهواء ونار وماء ، وهي التي يمكن أن نتعرف عليها باتصالها بعناصر الطبيعة ، لكن ما نورده منها لا تقرّه حقائق الجغرافيا ونواميس الكون ، فمن ذلك :

- « والجزائر الخالدات - ويقال لها : جزائر السعادة - : ست جزائر في البحر المحيط من جهة المغرب ، منها يبتدىء المنجمون بأخذ أطوال البلاد ، تنبت فيها كل فاكهة شرقية وغربية وكل ريحان وورد وكل حب من غير أن يغرس أو يزرع (٤٢) "

وعلق عليه الشدياق في أسطورة الجزائر الخالدات ، وكان مما قاله : "وهنا ملاحظة من عدة أوجه : أحدها أن المحشي قال : الصواب أنها سبع كما جزم به جماعة ممن أرّخها .

الثاني : أن الصاغاني قال إنها ست في أقصى بحر المغرب ، ولكن لم يقل إنها ينبت فيها كل فاكهة . . إلخ . الثالث : أن ابن سيده والجوهري وصاحب اللسان لم يذكروها .

الرابع : أن المصنف لم يذكر سكان هذه الجزائر ، فإن كانت غير مسكونة فما الفائدة من وجود الفاكهة فيها ؟ الخامس : أن الافرنج لم يطلعوا عليها في هذا العصر ، فأين ذهبت ؟ (٤٣) "

ونحن نزيد بأن في قوله : « منها يبتديء المنجمون . . » إيهاما وتعمية ، كما أن قوله : « من غير أن يُغرس أو يُزرع . . » فيه إغراب يدعو إلى الريبة !

وفي تعليق الشارح عليه مزيد من الغموض والإغراب ، قال : « سميت بذلك لأنه كان معتقدهم أن النفوس السعيدة هي التي تسكن أبدانها في تلك الجزائر ، فلذلك كانت الحكماء يسكنون فيها ويتدارسون الحكمة هناك ، ويكون مبلغهم دائما فيها ثمانين كلما نقص منهم بعض زِيد ، والله أعلم . وأما وجه تسميتها بالخالدات فلأن

الجنة عندهم عبارة عن التذاذ النفس الإنسانية باللذات الحاصلة لها بعد هذه النشأة الدنيوية ، بواسطة تحصيلها للكمالات الحكمية في هذهالنشأة وعدم بقاء شيء منها في القوة ، وخلود الجنة عبارة عن دوام هذا الالتذاذ للنفس ، كما أن الخلود في النار عندهم كناية عن دوام الحسرة على فوات تلك الكمالات ، فعلى هذا يكون معنى جزائر الخالدات : هو الجزائر الخالدة نفس سكانها في جنة اللذات النفسانية المكتسبة في الدنيا . . . قال شيخنا : والصواب أنها سبع كما جزم به جماعة ممن أرّخها ، وهي واغلة في البحر المحيط المسمى بأوقيانوس من جهة المغرب غربي مدينة سلا على سمت أرض الحبشة ، تلوح للناظر في اليوم الصاحي الجو من الأبخرة الغليظة ، وفيها سبعة أصنام علي مثال الآدميين تشير : عبود ولا مسلك وراءها ، منهايبتدي المنجمون بأخذ أطوال البلاد على قول بطليموس وغيره من اليونانيين ويسمون تلك الجزائر بقناريا ، وذلك لأن في زمانهم كان مبدأ العمارة من الغرب إلى الشرق من المحلّ المزبور ، والإبرة في هذه الجزائر كانت متوجهة إلى نقطة الشمال من غير انحراف ، وعند بعض المتأخرين ورئيس أسبانيا : ابتداء الطول من جزيرة فلمنك ، وقالوا : الإبرة في هذه الجزيرة متوجهة إلى نقطة الشمال من غير ميل إلى جانب ، وعند البعض : ابتداء الطول من الساحل الغربي ، وبين الساحل الغربي والجزائر الخالدات عشر درجات على الأصح (٤٤) "

فقد ترى أن النصوص المبهمة التي ذكرها المجد ألجأت الشارح إلى إغراب وإبهام وتوسّع لا صلة له بالفن المعجمي ، وإذا استفسر الشدياق عن سكان تلك الجزائر فقد أجاب الزبيدي بأنهم ثمانون من الحكماء ، وركن إلى ضرب من الكلام الغريب فقال : إن عددهم فيها لا يزيد عن ثمانين ، وكلما نقص منهم بعض زيد عوضاً !! ولعمري ما مدخل « مدينة سلا ، وأرض الحبشة ، والأصنام على مثال الآدميين ، وبطليموس ، واليونان ، وقناريا ، ورئيس أسبانيا . . "بالفن المعجمي العربي ، وهل سُمِع ذلك من الأثبات الثقات الذين تُرتضى عربيتهم أو نقله عالم ممن شافهوا الأعراب ، وليت شعري كيف صحة تلك الكلمات في اللغة العربية ؟

- ومن الأساطير الجغرافية التي كلف بها المجد قوله : وهِنْد مَنْد : نهر بسجستان ،

ينصب إليه ألف نهر فلا تظهر فيه الزيادة ، وينشق منه ألف نهر فلا يظهر فيه النقصان" (٤٥) ، وأنا لا أدري معنى لذلك الكلام الذي يغلفه غشاء التسلسل والدور ، ولا تؤيده حقائق الجغرافيا الحديثة .

– ومن الخرافات الجغرافية وإبهام الكلام في القاموس : جَابلَص – بفتح الباء واللام أو سكونها – بلد بالمغرب ليس وراءه إنسي (٤٦) "

– ومن جغرافياته الموهمة قوله في (الوقواق) : "بلاد فوق الصين" ، وقد ذكرها الشارح دون تعليق ، لكنا لا نعلم معنى الفوقية في عبارة المجد ، وهل المراد العلو الذي هو ارتفاع أو غير ذلك !

– وقال في (قوف) : "والقاف . . . : جبل محيط بالأرض أو من زمرد ، ومامن بلد إلا وفيه عرق منه ، وعليه ملك إذا أراد الله أن يهلك قوماً أمره فَحرَّك فخُسِف بهم (٤٨) " وهنا تأمل من وجوه :

الأول : أن نص المجد هنا قاطع بإيمانه بما ذكر ، وليس فيه إشارة إلى شك .

الثاني : أن الشارح توسع في هذه الأسطورة بذكر غيبيات لا يعلمها إلا الله ، ومن ذلك قوله : "أو هو جبل من زمرد أخضر ، وقيل من ياقوتة خضراء وإن السماء بيضاء ، وإنما اخضرت من خضرته "يعني من خضرة ذلك الجبل !

الثالث : قوله في الملك الذي يلي أمر العرق في كل بلد : "يقال إن اسمه صلصائيل ، !

الرابع : إنه عزا ذلك كله في صدر كلامه إلى ماجاء في بعض التفاسير ، ثم قال معقباً في خاتمة الكلام : "كذا ذكره بعض المتكلمين على عجائب المخلوقات "

الخامس : ما وقع في نص الشارح من اختصار بالحذف لنص القاموس ، وهو غريب حقاً ؛ إذ جاء في نص القاموس : أمره فحرَّك فخُسِف بهم ، ولم ترد جملة (فحرك) في نص الشارح (٤٩) ، فإما أن تكون نسخة الشارح من القاموس كانت ناقصة في هذا الموضع سقطاً ، أو يكون ذلك من اجتزاء الشارح نفسه سهوا .

جـ - أساطير تاريخية :

اشتمل القاموس المحيط على كثير من الأساطير التاريخية التي تتناول سير أشخاص

وأعلام ، منهم من عاشوا فعلاً وحققوا أعمالاً عظيمة يُشار إليها أو عرض لهم من الحوادث الكبرى ما جعلهم محطاً لألسنة القصاص ، وعلى مر الأيام أضاف إليهم الخيال القاص ما وضعهم في إطار خارق عجيب يتحركون فيه (٥٠) ، ومنهم أيضاً أشخاص من ابتكار الخيال المحض ، لا ندري كيف ساغ لعالم اللغة بصفة خاصة أن يردد قصصهم كأنهم كانوا واقعاً حقيقياً لا شك فيه !

- طحث : "طحمورث : ملك من عظماء الفرس ، ملك سبعمائة سنة ! (٥١)"

- رثد ، قال عن مَرْثَد - كمسكن - : ملك لليمن ملكها ستمائة سنة ! (٥٢) "

- حيي : "وذو الحية ملك مَلَك ألف عام (٥٣)"

- عوج : "وعُوج بن عُوق - بضمهما - رجل ولد في منزل آدم ، فعاش إلى زمن موسى، وذكر من عظم خلقه شناعة (٥٤) " وبين آدم وموسى نحو ألفي سنة !

إن المشاهد المعلوم والمتبادر إلى أذهان العقلاء أنه يندر أن يعيش الآدمي أكثر من مائتي سنة ، ولم نعلم ممن ورد خبرهم في نصّ صحيح من عُمِّر طويلاً غير نوح عليه السلام ، فهل ترى صاحب القاموس استخف بعقول القراء وبالغ أو نقل مبالغات فيها غلوّ ؟

لا جرم إن ما ذكره المجد غير مدفوع برأي الأستاذ عبد الوهاب النجار ؛ إذ رأى - وهو يناقش عمر نوح عليه السلام - أن القدماء كانوا يعيشون أعماراً طويلة ؛ لأن حياتهم كانت ساذجة خالية من الهموم بخلاف المعاصرين الذين قصرت أعمارَهم كثرةُ المتاعب وطولُ المشقات ، كما ذكر أن بعض القدماء كانو يعدون الشهر عاماً ، ونص عبارته في ذلك : والذي أراه أنه لا مانع من أن يعمّر آدم ومن قرب منه أعماراً طويلة لأن النوع الإنساني كان في بدء نشأته لم يحمل هموماً ولم تعتوره الأمراض المختلفة ، ولم تنهك قوته الأطعمة التي لا يقدر على هضمها ، فكان من المعقول أن يعيش طويلاً . . وهنا رأي آخر وهو أن الأقوام الأولين كانوا يعدون كل شهر عاماً ، فإذا قالوا ألفاً ومائتي سنة فإنما يعنون مائة عام من أعوامنا (٥٥) " فالثابت حقاً أن أعمار القدماء لم تكن لتصل إلى الحد الذي ذكره المجد ، إلا من اختصه الله بخصيصة كنوح عليه السلام ، كما أن حياة الرسل لم تكن خالية من الهموم ، وكيف

ذاك وهم يحملون رسالة يلاقون من أجلها عنتاً ومشقة وعناد أمة !

كما أن المجد نقل تلك الأساطير في قاموسه بلهجة من يعتقد في صحتها ، ولم يبد شكاً فيها ، إضافة إلى أن معاصريه ومن قبله كانوا يعدون العام عاماً والشهر شهراً .

وموقف الزبيدي من الأساطير السابقة مضطرب ، ذكر الأسطورة الأولى باسم (طخمورث) - بالخاء المعجمة - وزاد بأن نسبه يتصل بنوح عليه السلام ، ولم يبد شكاً في القصة (٥٦) .

وأورد النص الثاني في (رثد) (٥٧) ، ولم يعلق بإثبات أو نفي .

ثم ذكر الأسطورة الثالثة وفي تعليقه ما يشي بعدم التسليم بصحتها ، قال : «وذو الحية زعموا أنه ملك . . . فلطول عمره لقبوه بذلك لأن الحية طويلة العمر (٥٨)» وأشار في الأسطورة الرابعة إلى تحقيق المجد للاسم ، قال في (عوق) : « ومن قال عوج بن عنق فقد أخطأ (٥٩) » ثم زاد الشارح بما نقله من أن صاحب الأسطورة كان من الفراعنة يوصف من الطول بأمر شنيع ، وأنه كان إذا قام كان السحاب له مئزراً ، وأنه صاحب الصخرة التي أراد أن يطبقها على عسكر موسى عليه السلام (٦٠) .

لقد أشرنا فيما مضى إلى أن الأسطورة العربية تعرضت لغير قليل من التحريف والزيادة والمسخ ، ويدل على ذلك أن الثعالبي النيسابوري ذكر أسطورة عوج بن عوق (٦١) وزاد وتوسع في وصف شناعة خلقه ، فكان مما ذكره أنه كان من جلساء نوح ، فلما أُمر نوح بصنع الفلك أراد عوج أن يساعده فقطع أطناناً من الخشب وحملها متوجهَاً إلى نوح ، ثم وسوس له الشيطان بأن نوحا سيحرقه بهذا الخشب ، فألقاه علي الأرض وأخذ شجرة منه ليؤدب بها نوحا ، فلما طارحه الحديث فيما وسوس به الشيطان إليه أقنعه نوح بأن ذلك إبليس ، وأخذ الشجرة فصنع منها الفلك وتبقى أكثرها !

ولقد كان من زيادات الرواة أيضاً في شناعة خلق عوج ما ذكروه من أنه كان يفسح ما بين قدميه ، فتكون إحدى رجليه على شاطيء بحر القُلْزُم (الأحمر) والأخرى على الشاطيء الثاني ، ثم يهوي بيده فيصيد من حيتان البحر الضخمة ما شاء ويرفعه إلى جهة الشمس فَيُشْوَى من حرّها ثم يأكله !

وقالوا فيما قالوا بشأنه إنه فرض إتاوة على أهل كل مصر بأن يتناوبوا صنع ثوب له كل عام ، فلما عجز أهل مصر ما عن الوفاء بذلك عاماً رفع صخرة وأراد أن يطبقها على البلد ، فأرسل الله ملكاً في صورة طائر نقب الصخرة من فوق رأسه ؛ فهوت واستقرت على عنقه وطُرِح أرضاً ، فكانت رأسه في اليمن وقدماه في الشام - أو عكس ذلك - وأخذت السباع تنهش سيقانه ، وكان يظن أنها ذباب فيتوسل إلى تجار الرحلات بأن يهشوا على ساقيه ليطير الذباب !

لاشك أن هذا كله من ثمار اتساع خيال الرواة والقصاص في ذكر أخبار عوج بن عوق ، فالأسطورة - كما ألمحنا - تفتقر إلى عناصر هامة مما يلزم حقائق العلم ومن أهمها : الدقة ، والتقيد بالنص ، وصدق النقلة ، وتتمتع الأسطورة مقابل هذا بجانب ثراء الخيال وحرية التلاعب بالنص .

لقد كان للفيروزابادي أيضاً دور في إدخال بعض القصص في الإطار الأسطوري، وذلك عن طريق التلاعب بنصوص القصص مما يضفي عليها ثوباً خيالياً ، هو ذكر أن أبا عروة « رجل كان يصيح بالأسد فيموت ، فَيُشَقّ بطنه فيوجد قلبه قد زال عن موضعه ، قال النابغة الجعدي :

زَجْرَ أبي عروةَ السِّباعَ إذا ... أشْفَق أن يختلطْنَ بالغَنَمِ (٦٢)

والسبع في اللغة : كل ذي ناب ومخلب مما يعدو على الناس والدواب فيفترسها ، كالكلب والذئب والنمر والأسد .

فزجر أبي عروة السباع يمكن أن يُقْصَد به أضعفها ، لكن المجد خصصه بأقواها بأساً وشكيمة ، فقال : كان يصيح بالأسد . . ويدل على تلاعبه بالنص أن الزمخشري قال : «و كان يزجر الذئب » (٦٣) ، وزما ابن سيده فلم يتدخل في النصّ، قال شارح القاموس : «رجل - زعموا كان يصيح بالأسد ، وفي المحكم : بالسبع . . . قال شيخنا : كتب بعض على حديث أبي عروة ما نصه :

كأنّه خبر لم يروه ثقة ... وليس يقبله في الناس من أحد

. . . . وكتب البدر القرافي عند هذا البيت [يعني بيت الجعدي] : ولا دلالة في البيت على ما ذكر . قلت : وهو مدفوع بأدنى تأمل . . (٦٤) »

ونص الجاحظ في هذا الخبر : "وكان أبو عروة - الذي يقال له : أبو عروة السباع - يصيح بالسبع - وقد احتمل الشاة - فيخليها ويذهب هارباً على وجهه ، فضرب به الشاعر المثل - وهو النابغة الجعدي فقال :

وأزْجُرُ الكاشحَ العدوَّ إذا غـ ... تابك عندي زجراً على أضم
زَجْرَ أبي عروة السِّباعَ إذا ... أشفق أن يلتبسْن بالغنم (٦٥) "

ذكره الجاحظ بلفظ السبع ، ولم يشر إلى موته من الصيحة فضلاً على أن يزول قلبه عن موضعه ، وإنما قال : فيخليها ويذهب هارباً . . »

وفي الخبر عند الفيروز ابادي تأمل من وجوه :

الأول : التخصيص إذ أثبت الأسد مكان السبع ، على خلاف ما ورد في الأمهات اللغوية .

الثاني : أن بيت النابغة الجعدي خلا من الإشارة قريباً أو بعيداً إلى موت الحيوان أو زوال قلبه عن موضعه ، والذي ذكره (زجر) ربما كانت أقصى نتائجه الانقياد بالكف عما شرع السبع فيه ، وهو مفهوم كلام الجاحظ .

الثالث : تعليق الشارح يقطع بتكذيبه الخبر ، قال : «زعموا . . . وهو مدفوع بأدنى تأمل »

الرابع : أكد الشارح ما يميل إليه بإيراد بيت عن شيخه الفاسي (ت ١١٧٠هـ)، ونقل نص البدر القرافي .

فقد ترى أن تغيير المجد للعبارة ألبس الحقيقة ثوب الأسطورة ، لكنه أفسد جوها وكان من نتيجة ذلك أن كشف زيفها ؛ مما أدى إلى دفع اللغويين مضمونها .

- ومن الأساطير العربية التاريخية في القاموس - ويظن أنها صدى لبعض ما جاء في التوراة - ما أورده المجد عن الدابة التي فهمت وتكلمت ، قال : وأطلال : ناقة أو فرس لبكير الشداخي ، زعموا أنها تكلمت لما قال لها فارسها يوم القادسية - وقد انتهى إلى نهر - ثبي أطلالُ ، فقالت الفرس : وَثَبْتُ وسورة البقرة (٦٦) " قال الشدياق : " ولهذه الحكاية نظير في التوراة ، وهي حكاية أتان بلعَام (٦٧) "

والأمانة تقضي بأن نذكر ورود إشارة إلى خبر تلك الفرس عند ابن الكلبي

(ت ٢٠٦هـ تقريباً) قال : «أطلال : فرس بكير بن عبد الله بن الشداخ الليثي ، وكان وُجّه مع سعد بن أبي وقاص ، وشهد القادسية ، فيُزعم - والله أعلم - أن الأعاجم لما قطعوا الجسر الذي على نهر القادسية - وقد أحجم الناس عن عبور نهرها وخندقها - صاح بكير بفرسه (أطلال) وقال : وثباً أطلال ، فاجتمعت ثم وثبت ، فإذا هي من وراء النهر ، فهزم الله به المشركين يومئذ ، ويقال : إن عرض نهر القادسية يومئذ أربعون ذراعاً ، فقال الأعاجم : هذا أمر مَن السماء، لا طاقة لكم به ، فانهزموا (٦٨) وإذا ذكر المجد أن الفرس تكلمت ونص على عبارتها : وثب وسورة البقرة » - وهو موطن خرق العادة في الخبر لينضم إلى طائفة الأساطير - فإن هذا لم يورده ابن الكلبي ، ولم يشر إلى حديثها من قريب أو بعيد ، غاية الأمر أنها استجابت ، وربما كانت الاستجابة نتيجة نَهْزٍ أو دفع بالقدم لا فهم للأمر المنطوق بالوثوب أو ردّعليه بكـــلام !

- ومما يستغرق منه اللغوي سخرية وضحكاً ما ذكره صاحب القاموس عن خرافة زواج البربر ، قال : البرابرة وهم أمة بالمغرب ، وأمة أخرى بين الحبوش والزنج يقطعون مذاكير الرجال ويجعلونها مهور نسائهم (٦٩)" وقد استغرق فيه الزبيدي توثيقاً وشرحاً !

لسنا بحاجة إلى الإفراط في التعليق على الأساطير التاريخية في القاموس ، فهي جد كثيرة ، ويعنينا أن نومىء إلى مواضعها في إشارات خاطفة :

- أورد المجد خبراً غريباً استشهد فيه بسجع طويل عن رجل مات ثم حيي (٧٠) ، وعزاه إلى كتاب من عاش بعد الموت ، قال الفاسي : ولم أر فيه - يعني في الكتاب المذكور - ما ذكره ، و لعله لغير ابن أبي الدنيا أو سقط في الذي رأيناه ، والله أعلم (٧١) .

فإن كان للخبر نصيب من الواقع فهي حالة إغماء طويلة ظنوها موتاً ، ففي حديث الشعبي : أغمي على رجل من جهينة ، فلما أفاق قال : ما فعل قُصَل . . .

نسب الفيروزابادي بناء أهرامات مصر إلى إدريس عليه السلام ، وزعم أنه بناها لحفظ العلوم فيها عن الطوفان (٧٢) ، فأي علوم كانت زمن إدريس عليه السلام ؟

بل إن حقائق التاريخ تعزو بناء الأهرامات إلى غير من ذكر ! .

- وأما البسوس فلها عند المجد خبر ، ذكر أنها كانت في بني إسرائيل وأعطي زوجُها ثلاث دعوات مستجابات ذهبت بشؤمها (٧٣) ، ولم يشر إلى خالة جساس بن مرة ، تلك التي سعرت حرب بكر وتغلب في الجاهلية !

- وذكر في (عبد) خبر رجل نام سبع سنين ، أو هو عبد كان يطعم نبياً - لم يعين اسم النبي (٧٤) وأطال في القصة على خلاف مسلكه في تفسير اللغة ، ثم لم يلك للقصة خاتمة ، وهذا يفسر غمز الشدياق فيه بقوله (٧٥) : وحسبك بهذا دليلاً على أن المصنف - يعني الفيروزابادي صاحب القاموس كان يحرص على أسماء الرجال وشاذ الأساطير والخرافات أكثر من حرصه على ألفاظ العربية وتفسيرها .

- ومن الخرافات المتصلة بالأمور الجنسية ما ذكره عن ابن ألغز (٧٦) ، ونقل فيه عن كتب الأمثال ما يعف القلم عنه ، وما ذكره من شعر لبنات ثلاث جرؤن في خطاب أبيهن في أمر تزويجهن (٧٧) ، وشبيه به ما أورده من رجز فاحش في (زول) (٧٨) قال الشدياق : وهذه النجاسة تنزه عنها الصحاح والمحكم وغيرها من معجمات اللغة (٧٩) .

- وقريب من الخرافات الجنسية اشتغاله بأساطير المخنثين وأسمائهم وغريب أخبارهم ، ذكر أن طويساً مخنث كان من شؤمه أنه أول من غنى في الإسلام ، ولد يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفطم يوم مات أبوبكر ، وبلغ الحلم يوم مات عمر بن الخطاب ، وتزوج يوم قتل عثمان ، وولد له يوم قتل علي (٨٠) ، فأي توافق وصنعة أكثر من هذا ؟ !

وأما عن خوضه في غيبيات أسماء الشياطين وولد الجن وإبليس وأحوالهم وغريب الخرافات المنسوبة إليهم فحدّث فيه ولا حرج :

- أورد قصة « رجل ملك الأرض وكانت أمه جنية فلحق بالجن (٨١) » وما أشبه هذه بأسطورة زواج عمرو بن يربوع بن حنظلة من سعلاة جنية وإنجابها منه ، فلما رأت برقاً طارت إلى بلاد السعالي ولم تعد (٨٢)

- وسُرْحُوب - في القاموس - شيطان أعمى يسكن البحر (٨٣) ، ومَبْسُوط : ولد

لإبليس ، وزَلَنْبُور من أولاد إبليس الخمسة (٨٤) ، وشنقناق : رئيس الجن (٨٥) ، والغول : شيطان يأكل الناس ، أو دابة قتلها تأبط شراً (٨٦) ، والقُلاط : سِنَّوْر من أولاد الجن والشياطين (٨٧) .

– وقريب من ذلك تسميته سجناً بجهنم (٨٨) ، وذكره اسم النملة المذكورة في القرآن الكريم (٨٩) ، وإيراده أسطورة ملوك مدين الذين وضعت الكتابة العربية على حروف أسمائهم (٩٠) ، ذكر الدكتور خليل نامي أن هذه « من الروايات الخرافية التي لا يقبلها العقل ولا يتصورها العلم (٩١) ، وقد حشد أدلة على بطلانها .

– ومنه أنه سمى الغلام الذي قتله الخضر في صحبته موسى وأشار إليه القرآن الكريم (٩٢) ،وسها المجد فعزا هذا القتل إلى موسى نفسه (٩٣) !

– ومما في القاموس لا يصدقه المرء إلا برؤية عينية قوله : "ودير الخنافس على طود شاهق غربي دجلة تَسْوَدّ في كل سنة ثلاثة أيام حيطانُه وسقوفُه بالخنافس الصغار وبعد الثلاثة لا توجد واحدة البتة ! (٩٤) "

– واستهوت كتب الأمثال صاحب القاموس ، فنقل منها قصصاً لا يدري ما صحتها وشغله ذلك عن اللغة متناً وشرحاً وشواهد وأسراراً ، ذكر في (عرس) قصة زواج أسماء بنت عبد الله العذرية (٩٥) ، وأطال فيها إطالة لا مغنم للغة من ورائها ، وسَوّد القراطيس بما لا فائدة منه لمن رام تحصيل كلام العرب .

– وأشبه بذلك ذكره ثلاثة أقوال في من ظل يضرط حتى مات ، ثم إشارته إلى أن فيه قولين آخرين (٩٦) ، وهو من تأثره بكتب الأمثال ونقله عنها حكايات لا أصل لها ولا طائل من ورائها ، وانصرافه بذلك عن متن اللغة وشرحها .

* * * * *

نحن لا ننكر إيراد مضرب المثل ومورده في معجم لغوي ، لكن الغريب حقاً أن يطيل المجد هذه الإطالة التي تخرج به عن معنى المعجمية وهو لم يطل كذلك في جمع متن اللغة وتفسيرها وحشد شواهدها .

ولقد غبر زمان اتخذ التصحيح اللغوي فيه أشكالاً مختلفة انصبت على أنماط الخطأ ، فكان من مظاهره ما أصاب الأصوات والأبنية والتراكيب والطرائق البيانية . . إلخ .

(٩٧) ، وآن أن نبين أن جانباً مهماً مما اشتملت عليه المعجمات وكتب اللغة قل التفات الدارسين إليه وتنبيههم عليه ، وهو تلك الأخبار المتناثرة التي أشارت إلى قصص تناقلها المؤلفون دون وضعها على المحكّ الحقيقي لمصطلح " الخبر " ، وهو بيان موقعه من الصدق أو الكذب .

الهـوامش :

١ - انظر : خطبة القاموس ١/ ٣ ، وقارن : تاج العروس ١ / ٢٢ ، ٢٣
٢ - القاموس / يا ٤ / ٤١٥ ٣ - تاج العروس / وجد ٢ / ٥٢٥ ٤ - انظر في ترجمته للاستزادة : الضوء اللامع ١٠ / ٧٩ : ٨٦ ، والبدر الطالع ٢ / ٢٨٠ : ٢٨٤ ، وأزهار الرياض ٣/ ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٦ ، ودائرة المعارف الإسلامية ٢/ ١١٣ ، ومقدمة تاج العروس ١/ ١٤ ، ١٥ . ٥ - انظر : القاموس / المقدمة ١/ ٣
٦ - انظر : حواشي الهوريني على القاموس ١/ ٨ . ٧ - القاموس / صغو ٤/ ٣٥٢
٨ - تاج العروس ١٠/ ٢١٠ ٩ - قال أيضاً في معاني (اليد) : الجاه ، والوقار ، والحجر على من يستحقه ، ومنع الظلم ، والطريق ، وبلاد اليمن ، والقوة ، والقدرة ، والسلطان ، والملك - بكسر الميم - والجماعة ، والأكل ، والندم ، والغياث ، والاستسلام ، والذل ، والنعمة ، والإحسان تصطنعه . . - القاموس / يدو ٤/ ٤٠٥ وليست هذه كلها من قبيل المترادفات كما يمكن أن يُظَن ، وإنما هي معان متغايرة لكلمة واحدة ، كل معنى منها في حاجة إلى تقدير كلمة (اليد) بعد واو العطف ، وعزو المعنى إلى راوية ونسبته إلى الكتاب الذي نقل عنه ، ثم الاستشهاد عليه بقرآن أو شعر أو مأثور من كلام العرب ، أو كل ذلك -١٠ انظر آخر حواشي مصححة ٤/ ٤١٥ ١١ - انظر : التعريف بعلم اللغة . د يفيد كريستل ٧٣ ، وأضواء . نايف خرما ١٢٥ ١٢- انظر : الجاسوس على القاموس ٣٠٣ وما بعدها
١٣ - انظر : المعجم الكبير ١/ ٢٨٥ ١٤- الأنعام ٢٥ ، الأنفال ٣١ ، النحل ٢٤ ، المؤمنون ٨٣ ، الفرقان ٥ ، النمل ٦٨ ، الأحقاف ١٧ ، القلم ١٥ ، المطففين ١٣ .
١٥ - معجم ألفاظ القرآن الكريم ١/ ٣٨ ١٦ - الأنعام ٢٥ ، وانظر : الكشاف / ١٢ ، ٢ ، واللسان ٦/ ٢٨ ، والبحر المحيط ٤/ ٤٥١ . ١٧ - انظر : اللسان ١٠/ ٤١٢ ،

والتاج ٦/ ٨٣

١٨ - انظر : الأساطير د. أحمد كمال زكي ١٣ . ١٩ - هناك تعبير ثالث شاع استبداله بالخرافات أيضاً في كتابات الدارسين وهو : الأوهام وغير أن جانب القصد في الخرافات ثابت ، وهو في الأوهام منتف ، فالإنسان يقع في شراك الوهم غالباً دون إرادة منه ، لكنه يقصد إلى الأسطورة أوّ الخرافة قصداً .

٢٠ - راجع هنا : نصوص القرآن الكريم والأمثال . ٢١ - الأساطير ١٤ .

٢٢ - الأساطير ٢٢ . ٢٣ - انظر : الأساطير الأسطورة العربية بين الحضور والغياب ٥، ٦ . ٢٤ - الأسطورة العربية بين الحضور والغياب ٦ . ٢٥ - الحيوان ٦/ ٢١٤ ، وانظر ٢١٥ ، ٢١٦ . ٢٦ - الحيوان ١/ ١٨٦ ، وانظر ما فيه عن أصول جرهم ١/ ١٨٧ ، وبلقيس وذي القرنين وتلاقح الجن والإنس ١/ ١٨٨ ، ٦/ ١٦١ . ٢٧ - زعموا أن لكل شاعر شيطاناً يوحي إليه ، حتى قال شاعرهم يفخر على من عداه :

إني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

٢٨ - حديث إسلام تميم الداري في : النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير ١/ ١١٠ : ١١٦ . ٢٩ - راجع : الأسطورة في الأدب العربي د. أحمد شمس الدين الحجاجي ٢٥ . ٣٠ - الأساطير ٣٥ . ٣١ - القاموس / فقنس ٢/ ٢٣٧

٣٢ - تاج العروس / فقنس ٤/ ٢١٠ ٣٣ - القاموس / لوف ٣/ ١٩٧ .

٣٤ - انظر : التاج ٦/ ٢٤٩ ٣٥ - القاموس / سمندل ٣/ ٣٩٨ ٣٦ - التاج ٧/ ٣٨٣ ٣٧ - القاموس / زبعر ٢/ ٣٧ ٣٨ - التاج ٣/ ٢٣٤ ٣٩ - القاموس / رخخ ١/ ٢٥٩ ٤٠ - القاموس / شحث ١/ ١٦٨ ٤١ - الجاسوس ٣٠٩ ٤٢ - القاموس / جزر ١/ ٣٩٠ ٤٣ - الجاسوس ٣١٥

٤٤ - التاج ٣/ ٩٨ . ٤٥ - القاموس / هند ١/ ٣٤٩ ٤٦ - القاموس / جبلص ٢/ ٢٩٧ ٤٧ - القاموس / وقوق ٣/ ٢٩٠ ، وانظر : التاج ٧/ ٩١

٤٨ - القاموس / قوف ٣/ ١٨٨ ٤٩ - انظر : التاج ٦/ ٢٢٨ ٥٠ - انظر : الأساطير ١١ ٥١ - القاموس / طحث ١/ ١٦٩ ٥٢ - القاموس / رئد

١/ ٢٩٣ ٥٣ - القاموس / حيي ٤/ ٣٢٢ ٥٤ - القاموس / عوج ١/ ٢٠١

٥٥ - قصص الأنبياء ٦٨ ٥٦ - انظر : التاج ١/ ٦٣١ ٥٧ - انظر : التاج ٢/ ٣٥٠ ٥٨ - انظر : التاج ١٠/ ١٠٩ ٥٩ - القاموس ٣/ ٢٧٠ ، وربما أشار إلى ما ذكره الثعالبي في عرائس المجالس ، فقد أورده (عنق) بالنون .

٦٠ - انظر : التاج ٢/ ٨٠ ٦١ - هي عنده (عنق) بالنون كما أشرنا .

٦٢ - القاموس / عرو ٤/ ٣٦١ ٦٣ - أساس البلاغة / عرو ٣٠٠

٦٤ - التاج / عرو ١٠/ ٢٣٩ ٦٥ - البيان والتبيين ١/ ١٢٨ ٦٦ - القاموس / طلل ٤/ ٨ ٦٧ - الجاسوس ٣١٣ ٦٨ - أنساب الخيل ١١١ , ١١٢ ٦٩ - القاموس / بربر ١/ ٣٧٠ ، ، وانظر : التاج ٣/ ٣٩ ٧٠ - انظر : القاموس / فصل ٤/ ٣٠ ، وإشارة إلى الخبر ذاته وتصحيح الاسم في / قصل ٤/ ٣٧

٧١ - انظر : التاج / قصل ٨/ ٨١ ٧٢ - انظر : القاموس / هرم ٤/ ١٨٩

٧٣ - القاموس / بسس ٢/ ٢٠٠ ٧٤ - انظر : القاموس / عبد ١/ ٣١١

٧٥ - انظر : الجاسوس ٣٠٧ ٧٦ - القاموس / لغز ٢/ ١٩٠

٧٧ - القاموس / قنف ٣/ ١٨٨ ٧٨ - انظر : القاموس / زول ٣/ ٣٩١

٧٩ - الجاسوس ٣٠٨ ٨٠ - القاموس / طوس ٢/ ٢٢٧ ، وانظر في أخبار المخنثين فيه أيضاً : عفر زان ٢/ ١٨٣ ، هيت ١/ ١٦٠ ، دلال ٣/ ٣٧٧

٨١ - القاموس / ضحك ٣/ ٣١١ ٨٢ - انظر : الحيوان ٦/ ١٦١ ، ١٩٧ ، ومعجم الأدباء - ترجمة علي بن هلال الكاتب ٤/ ٣٥٦

٨٣ - القاموس ١/ ٨٢ ٨٤ - القاموس ٢/ ٤٠ ٨٥ - ٣/ ٢٥٢ ٨٦ - ٤/ ٢٧

٨٧ - ٢/ ٣٨١ ٨٨ - انظر : القاموس / بولس ٢/ ٢٠١ ٨٩ - عيجلوف ٣/ ١٧٢ ٩٠ - بجد ١/ ٢٧٥ ٩١ - أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام ٥ ٩٢ - الكهف ٧٤، ٧٥ ٩٣ - انظر : القاموس ١/ ٣٩٠

٩٤ - خنفس ٢/ ٢١٢ ٩٥ - القاموس / عرس ٢/ ٢٢٩ ٩٦ - القاموس / نزف ٣/ ١٩٨، ١٩٩ ٩٧ - انظر : حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث ٩ .

أهم المصـــــادر : -

١ - الأساطير - د. أحمد كمال زكي - المكتبة الثقافية ١٧٠ - دار الكاتب العربي - القاهرة .
٢ - الأسطورة العربية بين الحضور والغياب - د. لوليدي يونس - مجلة الدارة - السنة ٢٢ ع٢ - ربيع الاخــر ١٤١٧هـ .
٣ - الأسطورة في الأدب العربي د. أحمد شمس الدين الحجاجي كتاب الهلال ع٣٩٢ - أغسطس ١٩٨٣م .
٤ - أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها - ابن الكلبي - تح / أحمد زكي - ط دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٤٦م
٥ - البيان والتبيين - الجاحظ - تح / عبد السلام هارون - ط الخامسة - الخانجي القاهرة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
٦ - تاج العروس من جواهر القاموس - الزبيدي - ط الأولى . الخيرية مصر ١٣٠٦هـ منشورات دار الحياة بيروت .
٧ - الجاسوس على القاموس - أحمد فارس الشدياق - ط الأستانة .
٨ - حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث - د. محمد ضاري حمادي - سلسلة دراسات (٢٣٩) بغداد - ١٩٨١م .
٩ - الحيوان - الجاحظ - تح / عبد السلام هارون - ط الثانية الحلبي مصر ١٣٥٧هـ
١٠ - القاموس المحيط - الفيروزابادي - دار العلم للجميع - بيروت .
١١ - قصص الأنبياء - عبد الوهاب النجار - مكتبة دار التراث - ط الثالثة القاهرة .

استراحة بيــادر

استراحة بيادر
في رياض الأدب

د. إبراهيم راشد

١ - (يا ذا الجلال والإكرام) :

روى الترمذي في سننه - بسند صحّحه عن حماد بن سلمة ، عن حميد ، عن الحسن - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ألظُّوا بياذا الجلال والإكرام »

[ألظُّوا بياذا الجلال والإكرام : أي الزموا هذا الذكر في دعائكم ، يقال : ألظّ بالشيء : إذا لزمه وثابر عليه .]

٢ - مد وجزر :

خبران مرّا بي في مطالعاتي ، في وقت متقارب - على تباعدهما - رأيت في أولهما صورةً من (أخلاق النصر) ، وكشف لي أنه بالإخلاص ونكران الذات كانت الفتوحات الإسلامية العظيمة ، وكان المد الإسلامي الزاهر . .

ورأيت في الآخر صورةً من (أخلاق الهزيمة) ، وعرفت - من خلاله - كيف ضاعت الأندلس وغيرها من ممالك الإسلام ، وكيف بدأت عصور التراجع . . .

أ - ذكر ابن عساكر - في ترجمة مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، وذكْر آثاره في الحروب ، ونكايته في الروم - عن الأصمعي ، قال :

« حاصر مسلمة بن عبد الملك حصناً ، فأصابهم فيه جهد عظيم ، فندبَ الناس إلى نَقْب منه فما دخله أحد ، فجاء رجل من الجند فدخله ، ففتح الله عليهم ، فنادى مسلَمة : أين صاحب النَّقْب ؟ فما جاء أحد ، حتى نادى مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً فجاء في الرابعة رجل ، فقال : أنا - أيها الأمير - صاحبُ النَّقْب آخذ عهوداً مواثيقَ ثلاثاً : لا تُسَوِّدوا اسمي في صحيفة ، ولا تأمروا لي بشيء ، ولا تشغلوني عن أمري . فقال مسلمة :

قد فعلنا ذلك بك . قال فغاب بعد ذلك فلم يُرَ ، فكان مسلمة بعد ذلك يقول في دبر صلاته : اللهم اجعلني مع صاحب النَّقْب » .

ب - ذكر لسان الدين بن الخطيب في (الإحاطة) - في ترجمة القاضي أبي جعفر بن مَسْعَدَةَ العامري ، المتوفى بمالقة عام ٦٩٩هـ - قال :

«. . . وكان له من أمير المسلمين بالأندلس حظوة لطيفة لم تكن لغيره ، استنزلها بسحر التلطف ، وخطبها بلسان التملّق حتى استحكمت له أسبابها .

حدثني بعض أشياخي ممن كان يباشر حال السلطان يومئذ ، قال : وجّه ابن مَسْعَدَةَ ابنه من مالقة بكتاب في بعض الأغراض الضرورية ، ثم رغب فيه أن يُنْعَمَ على ولده بالمشافهة لإلقاء أمر ينوب عنه فيه ، فلما حضر تناول رِجْلَ السلطان فقبّلها ، وقال : أمرني أبي أن أنوب عنه في تعفير الوجه في هذه الرِّجْلِ الكريمة الجهادية عنه خاصة ؛ لبعدعهده بها .

قال ابن الخطيب : . . إلى أمثال هذا ، مما اقتضى الانتفاع بعاجلٍ من الدنيا زهيد ، لا يُدْرَي ما الله صانع فيه . »

٣ - شفاء النفس :

مما حفظنا من شواهد النحو قول بعضهم :

تعَلَّمْ شفاءَ النفسِ قَهْرَ عدوِّها   فبالِغْ بلطف في التحيُّلِ والمكْرِ

وذاكرني به أحد الإخوان ، فقلت : قد أدّبنا السلف بغير هذا الأدب ، وبيّنوا لنا أن لا سبيل إلى هذااللون من الشفاء :

ذكر ابن أبي طاهر طيفور في (بلاغات النساء) أن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - كانت تقول : « **للهِ درّ التقوى ما تركت لذي غيظٍ شفاءً** » .

وذكر أبو حيان في (البصائر والذخائر) قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وينسب في مصادر أخرى إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه - قال :

« **ليت شعري متى أشفي غيظي ؟ أحين أقدِرُ فيقال : هلا غفرتَ ، أم حين أعجز فيقال : هلا صبرتَ ؟!** »

٤ - كلمة أخرى لأم المؤمنين :

وذكر صاحب (بلاغات النساء) أيضاً أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها - كانت تقول :

« **لا تطلبوا ما عند الله من غير الله بما يسخط الله** »

٥ - يحبُّ من يهشُّ له وإن لم يبرّه :

قديماً قالت العرب : بُنَيَّ ، إنّ البرَّ شيءٌ هيِّنْ
وجه طليق ، ولسان ليِّنْ

وفي الحديث : « إنكم لن تَسَعُوا الناسَ بأموالكم ، ولكن ليَسَعْهُمْ منكم بَسْطُ الوجه ، وحسنُ الخُلق »

ذكرت هذا وأنا أقرأ هذه المسألة في كتاب (الهوامل والشوامل) لأبي حيان التوحيدي ومسكويه ، قال أبو حيان :

« حكى بعض أصحابنا أن الرشيد قال لإسحاق الموصلي :

كيف حالك مع الفضل بن يحيى ، وجعفر بن يحيى [البرمكَّيينْ] ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، أما جعفر فإني لاأصل إليه إلا على عسر ، فإذا وصلتُ إليه قَبَّلْتُ يده ، فلا يلتفت إليّ بطرف ، ولا يُنْعم عليّ بحرف ، ثم أصير إلى منزلي فأجد صلتَه وبره وهداياه وتحفه قد سبقتني ، فأبقَى حيران من شأنه .

وأما الفضل فإني ما أغشى بابه إلا ويتلقاني ، ويَهَشُّ لي ، ويخُصُّني ، ويسألني عن دقيق أمري وجليله ، ويصحبني من بشْره ، وطلاقة وجهه ، وتهلُّلَه ورقة نغمته - ما يغمرني ويعجزني عن الشكر ، وأبقَى خجلا في أمره ، وليس غير ذَلك .

فقال الرشيد : فأيهما عندك آثر ؟ وفعل أيهما من نفسك أوقع ؟

فقال إسحاق : فعل الفضل .

وتوجه أبو حيان إلى مسكويه بالسؤال : ما السبب في تشريف إسحاق فعل الفضل دون فعل جعفر ؟

وأهم ما في جواب مسكويه تصحيح الرواية ؛ إذ قال :

أما الحكاية فأظنها مقلوبة ؛ وذلك أن الموصوف بالكبر هو الفضل ، وهو صاحب الشرف في العطاء ، وأما جعفر فهو الموصوف بالطلاقة والبشر . إلا أن المتَّفَقَ عليه أن إسحاق فَضَّل صاحب الطلاقة - وإن كان في الأكثر خالياً من برِّه - على صاحب البر والعطاء الجزيل ؛ لما قرنه بالكبر والتيه . »

٦ - مسألة لطيفة ، وجوابها :

ومن كتاب (الهوامل والشوامل) أيضاً ، نقتطف هذه المسألة .

سأل أبو حيان مسكويه : لم صار الإنسان إذا صام أو صَلّى زائداً عن الفرض المشترك فيه حقّر غيَره ، واشتطَّ عليه ، وارتفع على مجلسه ، ووجد الخُنْزُوَانَةَ [: الكِبْر] في نفسه ، وطارت النُّعَرَةُ في أنفه [تعبير آخر عن الكِبْر] حتى كأنه صاحب الوحَي ، أو الواثق بالمغفرة ، والمنفرد بالجنة .

وهو - مع ذلك - يعلم أن العمل معرَّض للآفات ، وبها يحبط ثواب صاحبه ؛ ولهذا قال الله تعالى : « وقَدِمْنَا إلى ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثوراً » [الفرقان / ٢٣] ؟

قال أبو حيان :

وكان بعض أصحابنا يضحك بنادرة في هذا الفصل ، قال :

أسلم يهودي غداة يوم ، فما أمسى حتى ضرب مؤذناً ، وشتم آخر ، وغضب على آخر . فقيل له ما هذا أيها الرجل ؟ فقال : نحن معاشر القرّاءِ فينا حدَّةِ !

وقال مسكويه مجيبا :

كلُّ من استشعر في نفسه فضيلةً ، وكان هناك نقصان من وجه آخر ، وخشي أن تنكتم تلك الفضيلة ، أولا يعرفها غيره منه - عرض له عارضُ الكِبْرِ ؛ لأن معنى الكِبْر هو هذا .

أيَ أن صاحبه يلتمس من غيره أن يُذْعِن له بتلك الفضيلة ، ويعرفها له . فإذا لم يعرفها تحرك ضروب الحركة المضطربة ؛ ولَهذا صدق القائل :

« ما تكبّر أحد إلا عن ذلّة يجدها في نفسه » .

وإنما السلامة من هذا العَارض هو أن يلتمس الإنسانُ الفضيلةَ لنفسه ، لا لشيء آخر أكثر من أن يصير هو بنفسه فاضلاً . . . . . ويجعل مثاله في ذلك الصحة ؛ فإن الصحة تُطْلَبُ لذاتها ، ويحرص المرء عليها ليصير صحيحاً حَسْبُ ، لا ليُعْتَقَدَ فيه ذلك ، ولا ليُكْرَمَ عليها . . .

٧ - لا علمَ إلاّ ما وعاه الصَّدْرُ :

روى ابن الأنباري في كتابه (المذكر والمؤنث) - بسنده - أن الأصمعي كان يقول :

لا علْمَ إلاّ ما وَعَاهُ الصَّدْرُ لا خيرَ في علْمٍ حوى القِمَطْرُ

قلت : ما أنشَده الأصمعي إنما هو تعبير عن منهج السلفَ في تلقّي العَلم ، ورغبتهم في الاعتماد على الحفظ في الصدور لا على الكتابة ، وكثيراً ما صرّحوا بذلك :

هذا محمد بن يسير يقول :

إذا لم تكن حافظا واعياً فجمْعُك للكتب لا ينفع

ويونس النحوي ينشد :

استودع العلمَ قرطاساً فضيَّعه فبئس مُسْتَوْدَعُ العلم القراطيسُ

والإمام الشافعي يقول :

علمي معي حيثما يَمَّمْتُ يتبُعني قلبي وعاءٌ له ، لا بطنُ صندوقَ

إن كنتُ في البيت كان العلمُ فيه مَعي أو كنتُ في السوق كان العلمُ في السوقَ

وقد سخر بعضهم من اعتماد أحد أدباء الكتّاب على كتبه لا على حفظه :

ذكر ياقوت في ترجمة أبي بكر الصولي أنه كان له خزانة أفردها لما جمع من الكتب المختلفة رتّبها فيها أجملَ ترتيب ، وكان يقول لأصحابه : كلُّ ما في هذه الخزانة سماعي ، وإذا أراد مراجعة كتاب منها قال : يا غلام ، هات الكتاب الفلاني .

فسمعه يوماً أبو سعيد العقيلي يقول ذلك ؛ فأنشد :

إنما الصوليُّ شيخٌ أعلمُ الناس خزانَهْ

إنْ سألناه بعلمٍ نبتغي عنه الإبانَهْ

قال : يا غلمانُ ، هاتوا رزْمَةَ العلم فلانَهْ

وقد رأيت الشيخ عبد العزيز الميمني رحمه الله ، وهو بقية السلف - ذكر شيئاً من ذلك في إحدى حواشيه في (سمط اللآلي) ، ثم قال :

« وإنما أطلتُ خلافاً لعادتي ؛ لأن أهل العصر اتّكلوا على الفهارس المرتَّبة بحيث صاروا من العلم أفرغَ من حجام ساباط ، ولم يعلق بذاكرتهم غير حروف المعجم ، وأسامي عدة من المستعربين وتلفيقاتهم ، وغير ذكر العهدين : عهد الأمويين وعهد العباسيين ، فإلى الله المشتكى ، وغير شنّهم الإغارةَ على عُقْرِ دارهم ، والغمز والحطِ من أسلافهم . »

قلت : رحم الله الشيخ ، فكيف لو أدرك من أضحت ذاكرتهم صفحة بيضاء ، وجل اتكالهم على « ذاكرة الكمبيوتر » ؟ !

٨ - **في دوحة الشعر :**

أ - **تعريف الشعر عند اليونان :**

قالوا : الشعر مَرْكَبة يجرها زوجان من الخيول المطهمة هما : المخيّلة والشعور ، يسيِّرها رجل حكيم هو : العقل ، وهذه المركبة تسبح فوق الغيوم .

ب - **شاعر ولع بهجاء القضاة :**

هذيل الأشجعي ، من شعراء العصر الأموي ، من أهل الكوفة ، هجا ثلاثة من قضاتها هم : الشعبي ، وعبد الملك بن عمير ، وابن أبي ليلى .

وماندري سر ولعه بهجائهم ، وهم من نبلاء القضاة وكرام القوم .

روي أنه تقدمت كُلثُم بنت سريع ، مولى عمرو بن حريث ، وأخوها الوليد بن سريع إلى عبد الملك بن عمير – وكان يقال له القبطي – فقضي لها على أخيها ؛ فقال هذيل :

أتاه وليد بالشهود يسوقُهُمْ ... على ما ادعى من صامت المال والخول

يقود إليه كلثماً وكلامُها ... شفاء من الداء المخامر والخَبَلْ

أدلى وليد عند ذاك بحجة ... وكان وليد ذا مراءَ وذا جَدَلْ

وكان لها دَلٌّ وعينٌ كحيلة ... فزدلت بحُسْن الدل منهًا وبالكَحَلْ

فَأفْتَنَت القبطيَّ حتى قضى لها ... بغير قضاء الله في مُحكَم الطَّوَلْ

فلو كانَ من في القصر يَعْلَمُ علْمَهُ ... لما استُعْمل القبطيُّ فينا علَى عمل

له حين يقضي للنساء تَخَاوُصٌ ... وكان وماَ فيه التخاوص والحَوَلْ

إذا ذاتُ دَلّ كَلَّمَتْهُ بحاجة ... فَهَمَّ بأن يقضي تنحنح أو سَعَلْ

وبَرَّقَ عينيه ولاكَ لسانَهُ ... يرى كلَّ شيء ما خلا شخصَها جلل

قالوا : وكان عبد الملك بن عمير يقول :

« لعن الله الأشجعي ، والله لربما جاءتني السعلة والنحنحة وأنا في المتوضأ ،فأردهما لما شاع من شعره »

جـ - **من استنطاق الحيوان في الشعر القديم :**

قال المثقب العبدي – شاعر فحل قديم جاهلي – يصف ناقته ، ويصور شكواها من أنه يجهدها غاية الإجهاد :

إذا مـا قُـمْتُ أَرْحَلُهـا بلَيْلٍ تـأوّهُ آهـةَ الرَّجُـلِ الحـزين
تقـول إذا دَرَأْتُ لهـا وضـيني : أهـذا دينُـه أبـداً وديـنـي ؟
أَكُلَّ الـدهر حَـلٌّ وارتحـال؟ أمـا يُبْـقي عليَّ ومـا يقـيني؟
فـأبقى باطلي والجِـدُّ منهـا كـدكَّـان الدَّرابنَةِ المطين

[أرْحَلُها : أضع عليها الرحل ، الوضين : بمنزلة الحزام ، ودرأته : مددته وشددت به رحلها . الدين : الدأب والعادة . باطلي : أي ركوبي في طلب اللهو والغزل . الدكان : الدكة المبنية للجلوس عليها . الدرابنة : البوابون - فارسي معرب . المطين : المطلي بالطين . يريد أنه وإن أتعبها فإنها ضخمة قوية .]

وقال الأبيوردي - يهجو بخلاء عصره - :

ركبْتُ طِرْفي فأذرى دَمْعَهُ أسفاً
عند آنصرا في منهم مُضْمِرَ الياس
وقال : حتَّام تؤذيني ، فإن سنحتْ
حوائج لك فاركبني إلى الناس

د - ومن موجع الهجاء للبخلاء :

ومن الصور الطريفة في هجاء البخلاء ، قول جحظة البرمكي - أو منصور الفقيه - :

وباخلٍ جئتُـه فقـدّم لي كسرةَ خبز وعينُه عَبْرَى
وقالَ : ما تشتهي ؟ فقلت له : قطرة ملح وكِسْرَةً أخرى

وقال أبو العتاهية :

أرقيكَ ، أرقيكَ باسم الله أرقيكا من بخلِ نفس لعلّ الله يشفيكا
ما سلِم نفسك إلا من يتاركها ولا عدُّوك إلا من يرجِّيكا

هـ - في معنى علو الهمة :

قال أبو منصور الخوافي :

سآخذ في متون الأرض ضَرْباً وأركبُ في العلا عَبْرَ الليالي
فإما والثرى ، وبسطتُ عذري وإما والثّريا والمعـالي

قلت : وهذا المعنى سبق إليه العباس بن مرداس السلمي ، وقدمه في بيت واحد ،

قال : ولي نَفْسٌ تتوق إلى المعالي ستَتْلَفُ أو أبلّغَها مُنَاها

و – في الدعوة إلى النشاط والتفاؤل :

قال الدكتور عبد الوهاب عزام :

قيل : ليل مظلم ، قلت : اذكروا في ظلام الليل إشراقَ الصباحْ
قيل : غيم معتم ، قلت : انظروا ربّ نجمٍ من وراء الغيم لاحْ

وقال الأستاذ عبد العلَيم القباني :

لا تُشَيِّعْ بالدمع يوماً تولّى في شعاب الزمان حتى اضمحلاّ
قم وغرِّدْ ؛ فإن صبحا جديدا كان في خاطر الوجود أطلاَ

٩ – من بلاغات الأعراب :

أ – جاء في (البصائر والذخائر) :

قال العتبي : رأيت أعرابيا وقد دفن ابناً له ، فلما حثا عليه التراب وقف على شفير قبره ، فقال : يابني ، كنتَ هبةَ ماجد ، وعطّية واجد ، ووديعة مقتدر ، وعارية متفضّل ، فاسترجعك واهُبك ، وقبضَك مالكك ، وأخذك معطيك ، فألحفني الله عليك الصبر ، ولا حرمني بك الأجر .

ثم قال : أنت في حل وبل من قبلي ، والله أولى بالتفضل عليك مني ، ثم أنشأ يقول :

نفسي ونفسك والنفوس معارة يدعو بها إما يشاء معيرها
فلئن ذهبت فقد ذهبت ومقلتي صبابة يجري عليك غزيرها
فعليك من منح الإله صلاته وسقى عظامك في الضريح عبورها

ب – وجاء في (معجم البلدان) – في رسم (ضريّة) :

قال الأصمعي : خرجت حاجّاً على طريق البصرة ، فنزلت ضريّة ، ووافق يوم الجمعة ، فإذا أعرابي قد كوّر عمامته وتنكب قوسه ورقي المنبر وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ، ثم قال : أيها الناس ، اعلموا أن الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر ، فخذوا من ممرّكم لمقرّكم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم ، فإنما الدنيا سم يأكله من لا يعرفه ، أما بعد فإن أمس موعظةٌ ، واليوم غنيمة ، وغداً لا يُدْرَى من أهله ، فاستصلحوا ما تقدمون عليه بما تظعنون عنه ، واعلموا أنه لا مهرب

من الله إلا إليه ، وكيف يهرب من يتقلّب في يدي طالبه ؟ فكل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم . . . الآية .

ثم قال : المخطوب له من قد عرفتموه ، ثم نزل عن المنبر .

١٠ - على قَدْر العين يكون مدى بَحْرِها :

ومن بلاغات غير العرب ، أنقل لك هذا النص من (المثنوي) .

و (المثنوي) منظومة طويلة ، نظمها جلال الدين الرومي (٦٠٤ - ٦٧٢ هـ) - بالفارسية - في ٢٥٧٠٠ بيت ، في ستة أجزاء ، وكتب مقدمتها بالعربية ، وتخللتها أبيات عربية من نظمه .

جاء في الجزءالأول من (المثنوي) - ترجمة الدكتور محمد عبدالسلام كفافي - :

كانت ذبابة على عود قشّ فوق بول حمار ، وقد رفعتْ رأسَها كربّان السفينة ، وقالت : إني أسميهما بحراً وسفينة ! وهذا ما استغرق فكري مدة من الزمان - فانظر هذا البحر ، وتلك السفينة - وأنا فوقهما الربّان البارع الحصيف الرأي . فكانت هذه الذبابة تسير سفينتها على صفحة البحر ، وقد بدا لها هذا القدْر ماءً لا يحدّ .

لقد كان هذا البول يبدو بلا حدود بالنسبة لها ، ومن أين لها ذلك النظر الذي يراه على حقيقته ؟

إن عالمها يمتد إلى المدى الذي يدركه بصرها ، فعلى قدر العين يكون مدى بحرها . »

قلت : يذكرني هذا المثل الذي ضربه جلال الدين الرومي لضيق الأفق ، واختار له مفردات مستشنعة - من الذبابة وبول الحمار وعود القش - ليزيد في كراهيتنا لهذا الأمر - أبياتاً ساخرة - في المعنى ذاته - كتبها الشاعر محمود عماد تحت عنوان « حدود الكون » ، قال :

ويوم ضباب أركبوني بِفَجْرِه ... أتانا عجوزاً لا تُحَسُّ خُطاها

فَسرتُ وسارتْ لا سواي ترى ... ولا أرى من جمال الكائنات سواها

فأوّل حدّ الكون خلفي ذيلُها ... وآخِرُهُ من بعد ذا أذناها

١١ - عود إلى الشعر :

متنوعـــات

* تحثو على عيب الغنيّ يدُ الغنى
والفقر عن عيب الفتى بحّاث
(الشريف الرضي)

* يعيش الفتى بالفقر يوما وبالغنى
وكلٌّ كأنْ لم يلقَ حين يزايلُهْ
(حوط بن رئاب الزسدي)

* يا زَلّةً ما وُقيتُمْ شرَّ مَصْرَعِها وزلّةُ الرأي تُنْسِي زلّة القدمِ
(أبو تمام)

* خَالَلْتُ توديعَ الأصادقِ للنَّوَى فمتى أودِّعُ خلِّيَ التوديعا ؟
(أبو العلاء)

* قال الشافعي : أنشدني مالك بن أنس ، قال : أنشدني الزهري لنفسه :
لا تأمَنَّن امرءاً أسكنتَ مُهْجَتَهُ غيظاً ، وإن قُلْتَ إنَّ الغيظَ يَنْدَملُ

* وجُرْحُ السيف تَدْمَلُهُ فَيَبرَى ويبقى الدهرَ ما جَرَحَ اللسانُ
(--------)

* لقد زادني حباً لنفسي أنني بغيض إلى كلِّ امريء غير طائلِ
وأني شقيّ باللئام ، ولاترى شقياً بهم إلا كريم الشمـــائل
(الطرماح بن حكيم)

* ولا تكثر على ذي الضغن عتْبا ولا ذكر التجرّم للذنوب
ولا تسـأله عمّـا سوف يبدي ولا عن عيبه لك بالمغيب
متى تكُ في صـديقٍ أو عـدوٍّ تخبّرْك العيونُ عن القلوب

١٢ - كلمات منثورة :

* بلغني أن العلماء يُسألُونَ يوم القيامة عما يُسْألُ عنه الأنبياء .

(الإمـــــام مـــــالك)

* من طلب شيئاً وجده ، وإن لم يجده أوشك أن يقع قريباً منه .

(عامر بن الظرب العدواني)

* إن الأصفار مهما تعدّدتْ لا تصنع رقما صحيحاً .

(-----------)

* كنا نلهو بالأماني ، ونطيب أنفساً بالمواعيد ، فذهب من يَعدُ ، وقطعتنا الهموم عن فضول الأماني ، (أبو إسحاق النظام)

* إن الظلم - أعنفَ الظلم وأقبحَ الظلم - ظلم التسوية بين غير المتساوين ؛ فإنه يجور على الأصلح ، ولا يحمي المجرد من الصلاح . ثم إن هذا العالم الذي يتساوى فيه كل شيء - وهذا مستحيل - لا شيء فيه . (عباس محمود العقاد)

١٣ - قبل الختام :

في قوله تعالى : « انفروا خفافاً وثقالاً » [التوبة / ٤١] ، قال أحد الصالحين :

« سيروا إلى الله عرجاً ومكاسير ، ولا تنتظروا الصحة ؛ فإن انتظار الصحة بطالة »

١٤ - عود على بدء :

وروى الترمذي - أيضاً - بسنده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، قال :

« سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يدعو يقول : اللهم إني أسألك تمام النعمة فقال : أيُّ شيء تمامُ النعمة ؟ قال : دعوةٌ دعوتُ بها أرجو بها الخيرَ ، قال : فإن من تمام النعمة دخولَ الجنة والفوز من النار .

وسمع رجلا وهو يقول : يا ذا الجلال والإكرام ، قال : استُجيبَ لك فسَلْ .

وسمع صلى الله عليه وسلم رجلاً وهو يقول اللهم إني أسألك الصبر ، فقال : سألتَ الله البلاءَ فسله العافية . »

ســـــابل

حافظ إبراهيم في قمة الوفاء

عبد العزيز بن صالح العسكر

الوفاء من صفات الكرام ، وقد تحلى به العرب ، وعرفوا به ، وأسفار التاريخ حافلة بقصصهم الكثيرة ، وهي قصص تؤكد أن الوفاء حلية لخلق العربي أينما حلّ وحيثما ارتحل ، وفي كل الظروف والأحوال .

ولكنه بين الأقران أجمل ، وبين رفقاء الطريق أجود ، وخصوصاً : الشعراء ! فهم في منافسة دائمة ، وفي سباق يمتد ليشمل فترة الحياة جميعها لدى كل واحد منهم ؛ ولذا فلا غرابة أن يكون بينهم هجاء يشكل ظاهرة بارزة في الأدب ، وإذا خَفَّت حدّة الخصام والمنافسة اكتفى كل من الشاعرين بإغفال شأن الآخر وعدم الالتفات إليه ، أو الاعتراف بفضله وتفوقه وسبقه . هذه سمة في تاريخ الأدب على مر العصور . أما أن يُحبَّ كل من الشاعرين صاحَبه ويعترف بمكانته وفضله ، فذلك نادر وقليل ، ولعل منَ ذلك القليل ما كان بين أمير الشعراء « أحمد شوقي » وشاعر النيل« حافظ إبراهيم » .

وتعال معي أخي القارىء الكريم لنرى في هذه السطور صورة من صور الوفاء والحب بين شاعرين كبيرين قلما تجد لها مثيلاً ! .

أقيم مهرجان كبير لتكريم أحمد شوقي سنة ١٩٢٧م اشترك فيه بعض شعراء الأقطار العربية ، وكان ممن حضره حافظ إبراهيم ، فألقى فيه قصيدة بلغت ثمانية وتسعين بيتاً مطلعها :

* بلابل وادي النيل بالمشرق اسجعي   بشعر أمير الدولتين ورَجِّعي (١)
* أعيدي على الأسماع ما غَرَّدتْ به   يراعةُ شوقي في ابتداء ومقطع

ويريد بالدولتين : النظم والنثر ؛ فقد علا فيهما نجم الشاعَر وسطع ؛ وفي القصيدة يبين حافظ منزلة شوقي ومكانته كما هي مكانة الشعراء بعامة ، فهو طبيب النفوس ومُسَلِّيها ؛ ومعالج ولهها وشوقها ! وفي ذلك يقول :

* نفاخر من (شوقينا) ببراعة   ونزداد فخراً من (علي) بمبضع

(١) القصيدة من البحر الطويل ، وهو من أسهل بحور الشعر وأكثرها طرقاً عند الشعراء

* فذاك شفاء الجسم تدمى جراحه　　　وتلك شفاءُ الواله المتوجِّع (١)

وقد شاب (شوقي) قبل سن الشيب فلماذا يا ترى ؟! يرى حافظ أن ذلك من هول القوافي وأثرها ، ومعاناة الشاعر في اختيارها وتهذيبها :

* لئن عجبوا أن شاب (شوقي) ولم يزل　　　الهوى والقلب جم التمتع
* لقد شاب من هول القوافي ووقعها　　　وإتيانه بالمعجز المتمنِّع
* كما شيَّبَتْ هودٌ ذؤابةَ أحمدفي　　　وشيَّبت الهيجاء رأس المدرَّع

ويجيب السائلين : لم لا يلقي شوقي قصائده بنفسه ، وأن ذلك يعد عيباً يحط من قيمة الشاعر ومكانته . . إن شوقي في نظر حافظ مثل (موسى) فقد أيده الله بـ (هارون) ؛ عليهما السلام فلن يضير شوقي أن لا يلقي قصائده بنفسه :

* يعيبون (شوقي) أن يُرَى غَيْرَ منشد　　　وما ذاك عن عيّ به أو ترفّع
* وما كان عاباً أن يجيء بمنشدٍ　　　لآياته أو أن يجَيء بمسمع
* فهذا (كليم الله) قد جاء قبله　　　بـ (هارون) ما يأمره بالو حي يصدع

وفي ثمانية عشر بيتاً يشير حافظ إلى عدد من قصائد الشاعر المشهورة مؤكداً أنها من غرر الشعر العربي في العصر الحديث ؛ وأن « شوقي » قد قارن فيها البحتري وشعراء زمانه :

* وسينية للبحتريّ نَسَخْتَهَا　　　بسينيّة قد أخرست كل مُدَّعي
* أتى لكَ فيها طائعاً كلُّ ما　　　على كلِّ جبَّار القريحة ألمعي

ولئن كان شعر الشعراء صوراً مكررة ؛ فلا يكاد يخرج الشاعر عن نسق واحد ، ونمط واحد من أنماط التعبير ، وبألفاظ متشابهة ، فإنك يا أمير الشعراء تغرف من نهر يتجدد :

* وشعرك ماء النهر يجري مجدداً　　　وشعر سواد الناس ماء بمَنْقَع

والممدوح هنا لم يترك لغيره شيئاً فقد أتى على مملكة القريض جميعها :

* تملكت من ملك القريض فسيحه　　　فلم تُبْقِ يا (شوقي) لنا قيد إصبع

(١) يريد بـ - (علي) علي إبراهيم باشا : جراح معروف في عصره .

(٢) ومن ذلك قوله : أسالت (سلا قلبي) شئوني تذكراً　كما نثرت (ريم على القاع) أدمعي

يشير بذلك إلى قصيدتين الأولى في تحية مصر بعد عودته إليها من المنفى مطلعها : سلا قلبي غداة سلا وتابا . . .

والثانية التي سميت : (نهج البردة) في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ومطلعها : ريم على القاع بين البان　والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم .

وشاعر النيل هنا يلتمس من أمير الشعراء أن يترك في « مملكة النثر » مكاناً ويتيح للناثرين فرصة يبثون من خلالها شجونهم وأحاسيسهم ، ويظهر أثر القرآن الكريم وألفاظه وأساليبه في شعر حافظ ، وذلك حينما يقول :

* فبا لله دع للناثرين وسيلة تفيء عليهم واتق الله واقنع
* عملت على نيل الخلود فنلته فقل في مقام الشكر يارب أوزع

إن الممدوح قد صوّر القديم والجديد ، وحاكى بشعره فحول الشعراء في العصور الماضية ولم تقتصر محاكاته على العرب وحدهم وإنما حاكى غيرهم كذلك . . وإذا كان قد بلغ هذا المدى فأنى لمنافسه أن يدركه . . !!

* جلا شعره للناس مرآة عصره ومرآة عهد الشعر من عهد (تُبَّعِ)
* يجيء لنا آنا (بأحمد) ماثلاً وآونة (بالبحتري) المرصع (١)
* وإن خطرت ذكرى الفحول بفارس وما خلّفوا في القول من كل مشبع
* أتانا بروض مزهر من رياضهم و(حافظهم) فيه يغني ويرتعي (٢)
* فقل للذي يبغي مداه منافساً طمعت لعمر الله في غير مطمع*

وفي الشدة بقيتَ مرفوع الرأس ، بل زادتك تألقاً وإشراقاً ، فقد كان النَّفْي لك مدرسة أفدت منها ، وأرضاً خصبة لغرر القول وجواهره ؛ وهكذا كان الشعر والشعراء في المصائب والشدائد :

نُفيتَ فلم تجزع ولم تك ضارعاً * ومن ترمه الأيام يجزع ويضرع (٣)
وأخصبت في المنفى ولم تك مجدباً * وفي النفي خصب العبقري السَّميدع
تذكرتَ عذب النيل والنفس صبّة * إلى نهلة من كوب ماء مشعشع
وأرسلت تستسقي بني مصر شربةً * فقطّعْتَ أحشائي وأضرمت أضلعي
أنروى ولا تروى وأنت أحقّنا بريّ فيا قلب النُّيُوع تَقَطّعِ
* أبى الله إلا أن يردك سالماً ومن يرعه يسلم ويغنم ويرجع

(١) يريد بأحمد الشاعر العباسي : المتنبي أحمد بن الحسين (٢) يريد بحافظ : شمس الدين محمد الشيرازي . ويقصد الشاعر هنا : أن شوقي إذا ذكر الفحول من شعراء فارس وما أبدعوا فيه من المعاني نمّق من رياض أشعاره ما يحكي رياض أشعارهم حتى إن شاعرهم ليتغنى ويرتعي في رياض ذلك الشاعر العربي .

(٣) يشير إلى نفي شوقي إلى الأندلس ، والذي دام أربع سنوات من ١٩١٥م إلى ١٩١٩م .

وفي البيت الحادي والسبعين يعلن حافظ مبايعته لـ (شوقي) أميراً لشعراء عصره ؛ وفي نظره أن الممدوح أهل للإمارة . . فاقبلها وأسْمِعْ أرضَ العرب وساكنيها غرر شعرك وتَغَنَّ بها فلم يعد فيها منازع لك :

* أمير القوافي قد أتيت مبايعاً — وهذي وفود الشرق قد بايعت معي
* فَغَنِّ ربوع النيل واعطف بنظرة — على ساكني النهرين واصدح وأبدع
* ولا تنس "نجداً" إنها منبت الهوى — ومرعى المها من سارحات ورتَّعِ
* وحيِّ ذُرا « لبنان » واجعل لـ « تونس » — نصيباً من السلوى وقسِّم ووزع

وفي ختام القصيدة ، يبين حافظ في أربعة وعشرين بيتاً رسالة الشعر في نظره ؛ فيقول إن منهجنا – وهو احتذاء لمن قبلنا – كان في جُلِّه بكاء على الأطلال ، وتصويراً للوجد بهند ودعد والرباب ، وإن ذكرنا الشجاعة والبطولة ذكرناها مقرونة بالسيف والرمح – وهما عُدَدٌ قديمة – بينما سلاح أعدائنا في أعالي الفضاء وأعماق الماء !!

يا قومي ، إن رسالة الشعر رسالة شريفة وخطيرة ، فهو حداء الرَّكْب للمعالي ، وهو سلاح المقاتلين الذي يسبق ما بأيديهم ! وهو منبِّه العزائم ومحيي النفوس ، وهو بحق مدرسة تعلم القيم وتغذيها وتجلوا الصدأ عن الهمم لتؤدي رسالتها في الحياة ، وأنتَ يا (أمير الشعراء) أهل لأن تذكِّر أقرانك وإخوانك شعراء العربية برسالتهم وتستنهض هممهم للمعالي ليعود لأمتنا وبلاد ناعزُّها ومجدها –ومما يقول في ذلك :

* ففي الشعر حث الطامحين إلى العلا — وفي الشعر زهد الناسك المتورع
* وفي الشعر ما يغني عن السيف وقعه — كما روع الأعداءبيت لأشجع
* وفي الشعر إحياء النفوس وريها — وأنت لري النفس أعذب منبع
* وأنت بحمد الله ما زلت قادراً — على النفع فاستنهض بيانك وانقع
* وقفنا على النهج القويم فإننا — سلكنا طريقاً للهدى غير مهيع (١)
* ملأنا طباق الأرض وجداً ولوعةً — بهند ودعد والرباب وبوزع
* وملت بنات الشعر منا مواقفاً — بسقط اللوى والرقمتين ولعلع

(١) الطريق المهيع : الواضح البين .

* وأقوامنا بالشرق قد طال نومهم   وما كــان نوم الشعــــر بالمتوقَّــع
* تغيَّرت الدنيا وقد كان أهلها   يرون متون العيس ألين مضجــــع
* وقد كان كل الأمر تصويب نبلة   فأصبح بعض الأمر تصويب مدفع
* ونحن كما غنى الأوائل لم نزل   نغني بأرمـــاح وبيضٍ وأدرع

* * * * * *

* لدى كل شعب في الحوادث عُدَّةٌ   وعدّتنا ندب التراث المضيَّع
* فيا ضيعة الأقلام إن لم نُقمْ بهـــا   دعامة ركن المشرق المتزعــزع
* أتمشي به شمُّ الأنوف عَداتُه   وربُّ الحمى يمشي بأنف مجدَّع
* عزيز عليه يا بني الشرق أن ترى   كواكبه في أفقه غير طُلَّـــع
* وكيف يوقى الشَّـــرأو يبلغ المنى   على مـــا نرى من شـــمله

فيا (شوقي) ويا كل صداح بالشعر في مهد العربية وماشٍ على ثراها اسمع دعـــــوتي :

* فإن كنت قوالاً كريـــاً مقـــاله   فقل في سبيل النيل والشرق أودع (١)

هذه قصيدة حافظ سجل حافلٌ بمشاعر نحسبها صادقة تجاه رفيق دربه ، وأنيس طريقه ، ومؤنس وحشته - إن أوحشه الطريق . . . ولو جاءت من غيره فلربما عراها الضعف ، ووُصفَ قائلها بالمجاملة واتهم في صدقه فيما يقول ؛ ولا يعي ما حوته القصيدة إلا منَ سمت هممهم ، وقويت صلتهم بالتراث ، وسلمت عقولهم ، فهؤلاء وحدهم لا يقفون عند اللفظ فحسب ؛ ولكنهم يدركون بثاقب بصائرهم ما يشير إليه من معان ويغوصون إلى أعماقها ليلمسوا من خلالها مدى صدق الشاعر وإيمانه بما يقول وتفَاعله معه . . وذلك ما يحتاج إلى مران ودربة وخبرة طويلة في دراسة الشعر الأصيل والعيش معه . . .

(١) القصيدة في ديوان حافظ ج ١ ص ١١٩ - ١٣٠ . بعنوان : تهنئة أحمد شوقي بك . وحينما اقتضت حكمة الخالق سبحانه أن يموت حافظ قبل شوقي رثاه شوقي برائعةٍ لا تقل في جمالها عن هذه القصيدة . . مطلعها :
قد كنت أوثر أن تقول رثائي يا منصف الموتى من الأحياء . . . وسيكون لنا معها وقفة في لقاء قادم بإذن الله تعالى .

(ترانيم عاشق)

فاطمة صالح جاسر القبيسي

في حسن أرضك تزهر الأشعاريا ... أبها ، وتثمر في ضفاف خيالي
وألملم الأوراق من فرط الهوى ... كيما أسطر في الجنوب مقالي
وإلى رباك الخضر ترحل أحرفي ... لتعود راقصة بكل دلال
(ذرَة) تسطر بالشموخ حروفها ... وتمدُّ للتاريخ كفَّ وصال
وضباب سحر قد تمايس فوقها ... ترنو إليه بطرفها المختال
وتقول للمصطاف هذي أرضنا ... سحرت عيون الخلق سحر حلال
ونمت غصون (الطلح) حتى عانقت ... سحب السماء برقة وجمال
والشمس تلمح من خلال فروعها ... ذاك العناق ، بلهفة وجلال
ونسائم الآصال كم رقصت هنا ... ما بين أشجار وبين ظلال
ويفوح زهرك يا جبال فينتشي ... قلب تذكر سالف الآمال
ما زلت أذكر يوم جالت حسرتي ... فوق الفؤاد فما يطيق سؤالي
فقصدتُ أبها أستظل بحبها ... من قيظ أحزاني وثقْل رحالي
ووقفتُ أرمق ما أرى وجوانحي ... حبلى بآفاق من الإجلال
فرأيت صدرك يا عسير يضمني ... ويفيض كفاً بالنفيس الغالي
ومساكن الطين التي أحببتها ... نامت بدفء في ربى وجبال
وخيوط فجر قد تدلت فوقنا ... وأدتْ بقايا الليل في إذلال
أما نسائمها فهمسٌ ناطق ... بروائع الآثار والأطلال
غيمٌ تراءى في سماك كأنه ... درر تلوح على الرؤى بجمال
فطفقت لا أدري أهذي أرضنا ... أم أنني في جنة وظلال
هذي حروفي يا عروس الحسن قد ... نقشت قصائد عشقها بلآلي

* عسير *

أيا مهجتي بين أشجار النقا ... تداعب همس النسيمِ العُجاب
وتهفو لها من أريج الشّذا ... وقطر الندى فيه ميل انسكابَ
وتدنو من القُرب طيفُ الصِّبا ... لها الود في مقلتي والتهابي
رياضٌ زَهت في رباك عسيرُ ... كبرق المحاسنِ روضٌ مجاب
بها الماءُ في عذب يسيل ... وتبكي سَماها بَدمع السحاب
إذا حنَّ رعدٌ وهبَّ نسيمٌ ... يعمّ الربا من خيار المُطاب
وتلك الجبال جبال عسير ... تظل وتبقى بقَاء السحابَ
تناشد فيها لبعد الغمام ... لتبرق في ظلمة كالشهاب
وترقى لنا في بهاء وحُسْن ... وخضر الجوانبَ كل الرحاب
بدت في شموخ علاَّها اكتستَ ... بأشجارها ساميات المهاب
ويُؤْسَرُ من في هَواك عسيرُ ... ليلقى الأنيس وخير الرغاب
ويُلمح طرفٌ لشمس الأصيل ... فتبرق منها كسيف اختضاب
وإن لاحت الأفق تبغي المغيب ... بطرف كحيل رنت لإياب
فيأتي الهلال البهيج بليل ... نسيم الهوى فيه من كل باب
عسير أيا دوحنا قد أتى ... أناس من الأفق رامت جنابي
ليلقوا بك في ربوع زهت ... أمانيهم بين طيب الصحاب
وكاد وريحان خير المنى ... لتزهو بطيب لها من حجاب
فيا راَغباً عن عسير ارتحالاً ... ستلقى هواناً ومرّ الغلاب
وتخطو خطاك طريق الردى ... لتلعق مر الشقا والصعاب
فسر نحوها إذ يصيف الزمان ... فطيب الهوى من أريج إياب

ملاحظة : لم يكن اسم القائل واضحاً في الأصل والنادي يأمل منه الاتصال

قــراءة في كتــاب

قراءة في كتاب أهل السراة في العصور الوسيطة

للدكتور / عبد الله أبو داهش

بقلم / الشيخ هاشم بن سعيد النعمي

علاقتي بالتاريخ قديمة وبخاصة تاريخ منطقة عسير التي تتربع فوق قمم جبال السراة ويسعدني تجاه الدكتور عبد الله أبو داهش أن أقدم كلمة لكتابه : (أهل السراة في العصور الوسيطة) فلقد عرفت الدكتور (أبا داهش) ناقدا قبل أن يكون مؤرخاً عرفته محققا قبل أن يكون شاعرا عرفته أديباً قبل أن يكون مؤلفا .

ورغم هذا وذاك لا أدري كيف تسرب إلى الظن بأن هذا الكتاب لا يعدو أن يكون محاولة تجريبية كالكثير من أمثاله لا يزال في بدايته ويفتقر إلى النضج والمراس فما عساي أن أقدم لمثله وربما بنيت ظنا على أن كثيراً من البخلاء على ميدان التاريخ يكثرون الركض فيقحمون أنفسهم بمحاولات تافهة ظنا أنهم بها قد وصلوا وهم لا يزالون في البداية المتعثرة ولهذا فإنهم بهذا الأسلوب لن يصلوا وكادت هذه التصورات تثبط عن الكتابة بيد أن بعض الظن إثم وأخذت أمسك بالكتاب وأقلب صفحاته ذات اليمين وذات الشمال ومضيت للتوأقرأ صفحاته الواحدة تلو الأخرى فإذا بي أجد أن هناك شيئاً يستحق القراءة أو كما يقول المثل (كل الصيدفي جوف الفرا) وفي حدود علاقتي بتاريخ منطقة عسير التي تحتل قلب سلاسل جبل السراة ومطالعتي لما حواه هذا السفر الصغير الحجم الثَّر الفائدة الذي لا تتجاوز صفحاته أربعا وتسعين صفحة أستطيع أن أقول إنه استطاع بمادته العلمية أن ينفذ إلى أعماق القلب بأسلوب شيق يستهوى القلوب ويحرك الأحاسيس ويذكي في النفس حب الإستطاع بدأه بذكر المبررات التي ما برحت تشده نحو التأليف في هذا المجال الشيق والتي كان من ضمنها إلحاح بعض الإخوة الذين ألحوا عليه في الكتابة عن هذا الجانب المهم . .

قام المؤلف بعمل توطئة لبحثه الذي قسمه ستة أقسام بأسلوب شيق يشهد للمؤلف بسعة الاطلاع وجودة الأسلوب تحكي عن تعريف هذا العنوان ومفهومه المكاني والزماني (قلت) وقد أحسن في التعريف بهذا العنوان لكونه من مبتكرات العصر .

* المبحث الأول *

أفاض المؤلف في هذا المبحث عن ذكر أهل السراة بما فيه المواقع والحدود بأسلوب علمي رصين يهز المشاعر ويجعل القاريء يتابع فقرات البحث فقرة بعد أخرى مشيرا إلى ما أورده الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب عن مواقع ومسميات تلك القبائل العربية التي كانت تسكن السراة عند وروده بها في أوائل القرن الرابع الهجري ولكون الهمداني يرحمه الله لا يتقيد بالترتيب المكاني في رصد مواقع تلك القبائل وفقا للواقع الذي تعيشه وقتئذ إذ نجد أنه بدأ من الجنوب يتحدث عن مواقع في أرض جرش كالجبل الأسود وسعيا مدينة قديمة ثم ينحدر من سطح السراة إلى قعر تهامة فيتحدث عن زنيق وضنكان وأبرك والمعقد وحرة كنانة ثم يرجع من حيث بدأ ويستعرض في حديثة سراة عز ثم سراة الحجر إلى سراة زهران من الأزد ثم دوس وغامد ثم سراة بجيلة ثم يرجع قافلا جنوبا من حيث بدأ و يستعرض في حديثه سراة جب ووادعة ويأم في نجران يبد أن المؤلف استطاع أن يتجاوز تلك الشطحات تارةً بالإشارة اللطيفة وأخرى بالاستشهاد الموجز دون تعرض لتلك الشطحات ثم يستفيض الهمداني في تلك الشطحات فيعود إلى التحدث عن مواقع بجيله قبيلة جرير بن عبد الله الصحابي المشهور فيقول بعد ذكره معدن البرام بجهة الطائف ثم سراة بني علي وفهم ثم سراة بجيلة والأزد بن سلامان بن مفرج والمع وبارق ودوس وغامد والحجر إلى جرش وهذا الاضطراب في ترتيب القبائل ومواقعها يجعل من الصعب معرفة مفهوم هذا الخلط ما لم يتصدى له بعض من له معرفة بقبائل هذه السروات ومواقعها وذلك بإعادات ترتيب كتاب صفة جزيرة العرب ترتيباً يتفق ومعطيات العصر وبرغم هذه الشطحات وعدم الترتيب فإن كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني سيبقى مصدراً مهما من مصادر تراثنا إذ هو بغزارة مادته يجمع بين التاريخ والجغرافيا والأنساب ولن يستغني عنه من ينشد الحقيقة والتوثيق في الثلاثة المحاورالتي أشرت إليها آنفا .

* المبحث الثاني *

بعنوان : ملامح حياتهم السياسية

لقد طرح المؤلف على بساط البحث وجهة نظره عن الملامح السياسية التي كان يتميز بها أهل هذه السراة على حين كان يعتقد الكثير ممن طرق أخبار هذا الصقع أن مجتمعه كان مغلقاً بعد أن ضعفت الخلافة العباسية وتقلص ظلها عن البلاد العربية وهذا ما وقع فيما يسمى بالعصور الوسطى التي هي مدار بحث المؤلف بيد أننا عندما نتعم النظر فيما أورده الباحث في هذه الملامح نجد أنه أشار إلى دويلات امتد نفوذها إلى هذه السروات تركت لها أثرا بارزاً في حياتهم السياسية كانت ممثلة في عهود البارزين من أمراء مكة المكرمة الذين امتدت ولا يتهم على هذه السروات وحكموها حكما مباشرا في فترات طويلة فيما يسمى بالعصور الوسطى ذكر منهم المؤلف شخصيات برزت مواهبهم في بسط نفوذهم على تلك الأصقاع التي احتفت وما تزال مجموعة قبائل مهمة من جذمي العرب عدنان وقحطان من أولائك الأمراء رمينة بن عجلان .

وجمال الدين محمد بن بركات والشريف حسن أبو نمي وغيرهم من أمراء مكة الذين كان لهم وبلا شك نفوذ قوي بين تلك القبائل العصية المراس إن هذه الملامح السياسية والتطورات الأمنية التي أشار إليها المؤلف والتي واكبت المجالين السياسي والأمني يدلان دلالة واضحة على مدى ارتباط أهل السراة بإمارة مكة بعد تقلص ظل الخلافة العباسية عن الجزيرة العربية ولعل ما أورده الباحث في هذا المبحث حول ذكره للغزوات الأمنية التي كان يشنها بعض أمراء مكة ضد المتمردين على الأمن من بعض سكان تلك الأصقاع يعطي بعداً تاريخيا عن مدى اهتمام أمراء مكة من الأشراف بتوطيد الأمن بين سكان هذه المرتفعات في تلك الفترة العصيبة إذ يقول على صفحة ٣٠ - ٣١ .

وفي الثامن والعشرين من جمادي الثانية سنة سبع وثمانين وثمانمائة قاد الشريف رميثة بن عجلان جيشا إلى بلاد الشرق فأغار على شهران وغيرهم وقال على

صفحة ٣٢ . ولقد تعود أشراف مكة المرور على بلدان السراة عن طريق غزاتهم لبعض أطراف إمارتهم ومن ذلك أن الشريف حسن أبانمي سنة ٩٨٢هـ لما عاد من غزوته للوسيع بمنطقة الليث مرّ على بجيلة وأمرهم بالتزام الشريعة المحمدية فخالفوا أمر الله وأوامره العلية فقاتلهم إلى أن طلبوا العفو فأجابهم إلى ذلك ويستطرد الباحث فيقول . ولم تقتصر ولاية أشراف مكة على أطراف السراة الشمالية بل نرى سيطرتهم السياسية تغشى ما وراء ذلك ففي العقد التاسع من القرن العاشر الهجري . قال العصامي كانت غزوة سوق الخميس ويسمى زهران يتصل به قرن ظبي والصفا والمخواه وجبل عظيم يسمى ملس كان من شأن سكان تلك المواضع أنهم لا يورثون النساء خصوصاً البنت كما أن من عادتهم أن يمنعوا كل من وصل إليهم خصوصاً العصاة على ولاة الأمور الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ثم تكرر منهم ما ذكر من القبائح ولم ينقادوا إلى النصائح الموجهة من الشريف فجهز عليهم حملة بقيادة ابنه الحسين واستطاعت الحملة الإستيلاء عليهم والتنكيل بهم وإعادة الأمن إلى مساره ونصب فيهم أميراً وقاضيا فلم يلبثوا ان قتلوا الأمير والقاضي مجهز عليهم امير مكة الشريف حسين ابو نمي جيشاً كثيفاً قاده بنفسه فاستولى عليهم وقتل مجرميهم واقتاد رؤساهم الى سجن مكة فاستتب الأمن وحسنت الأحوال ، هكذا ملخص ما أورده الباحث عن العصابي قلت وهذا يؤكد بصورة لا تقبل التعليل أن كل هذه السروات من ذي القدم تابعة وما تزال لإمارة مكة المكرمة يؤكده ما أورده الباحث في نصوص بحثه هذا الذي يشكر عليه المخلص من أمهات كتب التاريخ ويؤيده ما أوردته في كتابي المخطوط بعنوان عسير بين الجغرافيا والتاريخ عندما كتبت عن فتح مدينة جرش بضم الجيم في السنة العاشرة للهجرة ومكانة تلك المدينة التاريخية الصناعية بما فيه ولاتها ومصائرها وما آلت إليه من خراب وتدمير وما وقع بين أهلها من حروب بما فيه المعارك الدامية التي جرت بين بني عنز بن وائل القبيلة العدنانية وبين بعض مجاوريهم لأسباب سياسية وثارات قبلية كانت سببا في تدمير مدينة جرش وجلاء سكانها بما فيهم العواسج من حمير .

* المبحث الثالث *

قلت لا شك أن علم الاجتماع هو أحد فروع المعرفة ويهتم هذا اللون من العلم بدراسة المجتمع في تكوينه وبنائه ونظمه الاجتماعية وأحواله البيئية وقد يختلف المجتمع باختلاف بيئته الجغرافية نظرا لأن للبيئة الجغرافية لها علاقة بالظواهر الاجتماعية ولهذا فإن علم الاجتماع يركز دراسته في المقام الأول على المفهوم الذي تعيشه الجماعات الإنسانية وما ينتج عن حياة تلك الجماعات من نظم وتقاليد و أدوار وموروثات تحتمها حياة تلك المجتمعات البشرية يبحث تختلف حياة ونظم وتقاليد وتفاعلات المجتمع الذي يعيش على مرتفعات جبل السراة عن المجتمع الذي يعيش في السهول المختلفة الواقعة على شريط البحر وفي المنحدرات المحاذية لتلك السواحل نظرا لتعرض مجتمع المرتفعات للعوارض الطبيعية مثل شدة البرد القارس وهطول الأمطار على تلك المرتفعات باستمرار الأمر الذي دفع المجتمع السروي الى أخذ الحيطة لهذه العوارض وتشييد المباني واختيار مواقع القرى بضم القاف وإحكامها لتصبح صالحة للسكن تفاديا من العوارض الطبيعية إضافة إلى أن إنسان هذه المرتفعات عرف يحب الاستقلال وعدم الخضوع لذوي السلطان ما لم يكن قويا لهذا نلاحظ أن كل قرية من قرى هذه المرتفعات محاطة من جميع أقطارها بالحصون الحربية المشيدة على رؤس الجبال وفي مداخل الأودية وحول مزارع القرى إضافة الى الحصون الخاصة بمقتنيات أهل القرى ونتيجة لهذه العوارض الطبيعية والبيئة فقد طبع سكان هذه المرتفعات على حب الاسقلال وعدم الخضوع لأى سلطة ما لم تكن قوية لها هيبتها وقوتها الضاربة ناهيك ما إذا كانت السلطة تستند إلى عقيدة صحيحة لقد عايشت سكان هذه السروات ردحا من الزمن وشاهدت الكثير من عاداتهم وتقاليدهم وخصالهم الحميدة التي من أحسنها التعاون وإغاثة الملهوف والإحسان الى الفقراء وإكرام الضيف وغض الطرف عن الرذيلة والإنتقام ممن يسيء الى الجار الى غير ذلك من الخصال الحميدة وليست صلتي ومعايشتي سكان هذه السروات وليدة عهدها وإنما هي صلة الأب بالأب والجد بالجد ومن أراد الاطلاع على المزيد عاداتهم وتقاليدهم ومحاسن أخلاقهم فليرجع الى القسم الاول من تأليفي بعنوان (تاريخ عسير في الماضي والحاضر) .

(ملامح حياتهم الإجتماعية)

أشار الباحث إلى بعض المدن الأثرية السروية التي أصبحت في عصرنا هذا أثرا بعد عين منها مدينة (جرش) بضم الجيم وفتح الراء والتي كانت تمثل منعطفاً مهما من تاريخ امتنا المجيدة من ابرز مآثرها صنع الدبابات والعرادات وغيرها من الأسلحة التي كانت تمثل القوة الذاتية في وقتها وتقع مدينة جرش البائدة على مقربة- من مدينة فيصل العسكرية يقابلها في الاتجاة الشرقي جبل الحمة الأثري كما أشار الباحث إلى مدينة الجهوة الأثرية التي كانت مقراً لسلطة الجابر بن الضحاك الربعي من نصرين ربيعة بن الحجر من بني الأثلة قلت وكانت تقع بالقرب من بئر النمصة بجهة النماص وبئر النمصة هي إحدى المعالم التي حملتا اسم النماص . ،. ولقد استعرض الباحث ما ورد في رحلة العلامة يوسف بن يعقوب المعروف بابن المجاور التبصرة بدأ من الطائف الى صعدة وابن المجاور هو أحد الرواد الذين أفاضوا بالذكر عن احوال أهل هذه السروات ولم تقتصر رحلة ابن المجاور على ذكر بلدان السراة وحسب بل جاوزتها الى جنوب الجزيرة العربية ولعل ابن المجاور خير من تحدث في وقته عن أحوال أهلها وحياتهم الاجتماعية وتقاليدهم وعاداتهم وبخاصة سكان السواحل من مكة الى زبيد فعدن فحضرموت ثم عودته من حضرموت في اتجاة صنعاء فنجران فصعدة فأحواز جرش ثم يواصل السير في رحلته عائدا الى مكة المكرمة ولذلك جاءت رحلته هذه التي قام بها في القرن السابع الهجري والتي تعد في شموليتها أوسع الرحلات التي طرقت بلدان السراة وما ينجر اليها من السواحل التهامية بما فيه جنوب الجزيرة العربية ومما يميز رحلة ابن المجاور خلوها من التمييز الذي منيت به معظم المؤلفات قديما وحديثا إلا أنه برحمه الله يتمادى في الإغراق بذكر المساوي على حين يشح جدا بذكر المحاسن انظر الصفحة رقم ٢٦ والصفحة رقم ١٢٤ وغير ذلك كثير . واذا كانت رحلة ابن المجاور قد اتخذت شكلا شموليا من حيث التوسع ودقة الوصف فإن رحلة الموسوي المكي قد اقتصرت على ذكر أحوال أهل السراة الاجتماعية وركزت بالدرجة الأولى على عناية أهلها بالزراعة وبجميع أ نواعها كالبر والشعير والعدس والفواكه وغيرها إضافة إلى إعتناء السكان بتشييد الحصون والقرى وغيرها كالأسواق القديمة ولقد ركز الباحث في بحثه على ماجاء في الرحلات التالية جزيرة العرب للهمداني والتبصرة لابن المجاور ونزهة

الجليس للموسوي إضافة الى بعض المراجع القديمة والحديثة مثل إتحاف الورى لابن فهد وسمط النجوم العوالي للعصامي وغيرها من المصادر وإذا كان لي من كلمة أختتم بها هذا التقديم فإنني أقول لكل من ينشد الحقيقة دونك الصيد في (جوف الفرى) .

ماقبل الـوداع

كتب فقط للزينة ..!!

عبد الرحمن حامد القرني

يتعمد الكثير من الناس إدخال ضيوفهم إلى الأماكن التي توجد بها مكتبة مليئة بالكتب لإبراز الجانب الثقافي (الوهمي) بداخلهم . .

وإذا حدث وحاولت تصفح أحد هذه الكتب سوف تجد أن بعض أوراقه لم يتم فصلها عن بعضها البعض مما يدل على ان هذا الكتاب وغيره لم يفتح من قبل أي من أفراد العائلة . .

هذه الظاهرة ليست تعميماً ، فهناك أُناس يستفيدون بالفعل من هذه الكتب عن طريق قراءتها والرجوع إليها كمراجع عند الحاجة إليها . .

وقد ساعد هؤلاء الذين يتخذون من الكتب (زينة لأدراج) مكتباتهم لا زينة (لعقولهم) ومداركهم العلمية هو ذلك التوزيع المجاني للكتب الدينية والثقافية ، أو (هراء) الكتب في وقتنا الحالي . . باالإضافة إلى إصرار من بعض ربات البيوت على أن يكون في منزلها مكتبة مليئة بالكتب والمجلات على غرار ما لدي (فلانة وعلانة) مكتبة ضخمة تكفي لاحتواء هذا الكم الهائل من الكتب بالإضافة إلى ما يختاره ذوق ربة البيت من أنواع أطقم الصيني التي تصف جنبا الى جنب مع الكتب ؟!!

كما تحتوي المكتبة أيضاً على تماثيل صغيرة ، وبعض أدوات الزينة المنزلية لتصبح وظيفتها أي شيء آخر إلا أن تكون وظيفة (ثقافية) . . ؟!!

لذلك أقترح على المصانع التي تنتج هذه المكتبات (الدواليب) صناعة أرفف جاهزة يرسم عليها الكتب بحيث ترضى غرور هذا المثقف الوهمي ، وفي الوقت نفسه نحافظ على قيمة الكتاب ونحمية من الابتذال والإهانة وتركه وحيداً دون ان يقرأه أحد قابعاً بجوار الصيني والتماثيل والأشياء التي تضيف (جمالاً) لديكور المنزل . . ؟؟

محتويات العدد الثالث والعشرين من ملف النادي بيادر


KING FAISAL CENTER FOR
RESEARCH AND ISLAMIC STUDIES



مطابع الجنوب ت : ٢٢٤٧٥٧٧